

لطيف يحيى

كنت إبنا للرئيس



عدي صدام



لطيف يحيى

يروى قصة السنوات الخمسة التي عاشها بالقرب من **صدام**

نوركا للنشر - النمسا NORKA VERLAG

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

لطيف يحيى بالتعاون مع كارل قندل

كنت

ابناً

الرئيس

الناشر

نوركا للنشر

NORKA VERLAG

نوركا للنشر

1994

فيينا - كلوستر نوويرج

جميع الحقوق محفوظة

ممنوع الطبع واستعمال النص من قبل التلفزيون والإذاعة والسينما وأي وسائل
أخرى. كل ذلك استعماله لمخاضرات حتى جزئياً إلا بتصريح من دار نوركا للنشر

الطبعة الأولى

نوركا للنشر

كنت ابناً للرئيس

كنت
ابناً
الرئيس

لطيفه يحيى
بالتعاون مع
كارل فندل

الطبعة الأولى

١٩٩٤



الناشر

نوركا للنشر

NORKA VERLAG
KLOSTERNEUBURG. 3403
AUSTRIA

Printed in Germany

قهر المخاوف

● اليوم هو الثالث والعشرون من أيلول عام 1987.. الشمس المتحلقة في كبد السماء تعلن عن إنتصاف النهار.. عيناى معلقتان بمؤخرة رأس سائق السيارة الفارق في الصمت.. ليموزين مرسيديس كاحلة السواد، زجاجها الغامق يحجب الرؤية وضوء النهار الساطع.. كما لو أنها آتية على التو من المصنع، ولا ذرة غبار واحدة، رائحة نفاذة تنبعث من المقاعد الوثيرة وسجاد الأرضية، التابلوه مكسو بلون الخشب.. ينساب صوت المكيف في هدوء، وكذلك المحرك.

تهادت السيارة لتعبر بطريقة «ملوكية» ساحة القصر الجمهوري.. تتنافس منطقة القصر في بغداد بأبهتها وفخامتها أرقى المناطق في أجمل العواصم الأوروبية: مبان الوزارات، بيوت الوزراء.. والمطار الخاص، ساحات التريض، قاعات للعرض المسرحي والسينمائي.. دور الاستشفاء ومساحات ممتدة تحفل بالخضرة وتتناثر في أرجائها نافورات الماء المتراقص في وضح النهار.. مسابح فيروزيّة محاطة جوانبها بالمرمر.. وفي قلب المكان «مركز عصب صدام السري».

كل شيء يجعلك تفقر فاهك مندهشا.

لا أعرف إلى أين أقاد.. ولا قدرة لي على السؤال.. تنتابني المخاوف.
ألحظ عبر النافذة المتشحة بالسواد ليموزين أخرى تتبعنا.

هناك على الجبهة لم أكن أحس كل هذه المخاوف.. الآن أتصيب عرقاً.

أدس يديّ في طيات حلتي الخضراء، أجاهد لأزِيل لزوجتي العرق، تتراحم الأسئلة داخل رأسي: لماذا أنا؟!.. وكذلك الهواجس:

دائماً يختفي أناس في العراق، تطرق الأبواب عند الفجر أو في منتصف النهار سواء بسواء.. يساق من ساء طالعهم إلى المجهرل.. إلى المحارق.. ليكونوا مادة يمارس فيها السجانون متعة الإذلال.. يتسابقون إلى تعذيب الأجساد والأنفس.. هناك مصيران لا ثالث بينهما.. إهراق الحياة على الفور أو السجن مدى الحياة.

لا أحد يعرف لماذا؟! حوائط صلدة تقتل الحقيقة.. كل ما تتناقله الهمسات المسحوقة مجرد ظنون، ونسيج حكايات مبتورة.

تسللت كراهية العسكرية إلى نفسي مع مطلع اليوم الأول، كنت أدرك أن الواحد والعشرين شهراً من الممكن أن تتمدد إلى عشر سنوات. في العراق القوانين ليست سوى سحابات دخان ينقثها غليون «الرئيس القائد» وفق هواه - عندما يحتاجون الرجال للجبهة تطول مدة خدمتهم.. يختزلون مصيرهم في عبارة شديدة الإيجاز «الوطن يحتاجكم». لا تبدو في الأفق أي علامات؛ متى ولا كيف سوف ينتهي ذلك النزاع الدامي على الحدود بين العراق وإيران.. يصعب التكهن بذلك.. خاصة لمواطن عادي مثلي.. يعرف فقط أن صدام يسعى للسيطرة على شط العرب ذلك المدخل البحري، الذي يمثل أهمية فائقة للعراق، وكذلك يسعى الإيرانيون.

الحرب المشتعلة نيرانها تبتلع الجميع.. كل من أعرفهم.. الأقارب.. الأصدقاء.. الجيران.. دفعوا جميعهم إلى مناطق القتال.

دلالات الحرب ترزح شوارع بغداد.. وجوه محرقة، أيدي وأرجل مبتورة، ملامح يائسة ترسم على وجوه يعصرها الألم.. شبان قلقون أضجرهم طول انتظار الشاحنات العسكرية التي تأتي لتنقلهم إلى مناطقهم العسكرية.. يعبثون في «كلاشينكوفاتهم» تعبيراً عن هذا القلق.. أبدأ لم أحاول أن أتوقف لأتبادل الحديث مع أي من هؤلاء - الحرب لا تهمني - عندما كنت ألحظهم وأنا أتجول بسيارتي وسط بغداد كنت أطلع على وجوههم علامات التعب والضجر، دفعوا للقتال دون قناعة لا يقيدهم سوى الإكراه.. ماذا بوسعهم؟.. الفارون من الخدمة ومن يعصون الأوامر مصيرهم الإعدام.

السجن رقم 1 في معسكر الرشيد إزدحمت جنباته بالآلاف الهاربين من أمرية الانضباط العسكري إنتظاراً للإعدامات الجماعية، سواء في الساحات التي أعدت خلف الجدران.. أو في صدر الميادين العامة حيث يسعى النظام إلى ترويع الجميع.. أمهات وأباء يحتضنون صغارهم .. الألم يعصرهم، لا يقوون على الوقوف الذي أجبروا عليه.. عليهم أن يشهدوا تساقط فلذات أكبادهم.. فتية في عمر الزهور وصمهم صدام بـ (خائن البلد) ، وعلى نويهم أن يقرؤا بذلك، ويتحملوا ليس فقط العار.. بل وأيضاً كلفة الطلقات التي أعدم بها صغارهم.

لكن ما نعرفه على وجه اليقين؛ أن الطريق إلى المهالك مرصوف بكلمة تنقلت في ساعة غفلة من بين الشفاة المنطبقة.. نكتة.. أو مجرد ملاحظة عن الرئيس، أو عن العائلة.. أقلب في المخيلة صفحات حياتي.. أفتش سطورها.. ربما إرتكبت جرماً في حقهم.. لا شيء.. لقد كنت وفيّاً للنظام.. يئبي القلق أن يفارقني.. يضيق المقعد بجسدي

المحموم.. ركبتي تنفرسان في مؤخرة مقعد السائق .. سقف السيارة وأرضها والجوانب تشكلت من جديد.. استحالتي إلى زنزانية تخنق أنفاسي.. يتسدد القلق في جوانب رأسي وينساب إلى الأوردة والشرابين؛ السؤالات لازالت تلاحقني: هل نبست شفتاك بالطيف بكلمة ما هنا أو هناك.. أمام أصدقاء يتمازحون.. بحث لرفاقتك على الجبهة بما تكنه من كراهية للحرب.. ربما تقاعست مرة عن إطاعة أمر.. أو أدت واحدة من المهمات بشكل غير مرضٍ. ملعونة أيتها السيارة الزنزانية.. ملعونة أيتها الحرب.. ملعون أيها المجهول.

قبل عدة أشهر من عام 1987 جندت في الجيش العراقي والحرب العراقية - الإيرانية في قمة إشتعالها.. كانت قواتنا قد استطاعت إحتلال 1800 كيلومتراً من أرض الإيرانيين.. إزدهم شط العرب بكم هائل من العتاد.. أربعين كتيبة مدفعية ثقيلة وخفيفة.. بطاريات للهاونات.. إزدهمت نقاط التماس على الحدود بالألوية والفرق المدججة بالسلاح.. الصواريخ المنصوبة على جانبي المواجهة تنطلق لتحثت الخراب الهائل.. صفارات الإنذار تصرخ في أرجاء البلاد.. تعوى الصواريخ في سماء بغداد.. تخرق الجدران.. سحبات قاتمة تتصاعد في الأفق.

كم حلمت بيوم تخرجي.. ها أنا قد أنهيت دراستي الجامعية في كلية القانون السياسية.. وبت أسرتي الإحتفال بتفوقي بشكل لائق.. لكنها الحرب.. كان علينا أن نحتفل بعرسنا في الغرف المقيدة الضوء.

ملعونة أيتها الحرب.. كم حلمت بهذا اليوم.. يوم الوداع لقاعات الدرس.. والدخول إلى عالم التجارة مع أبي.. إكتها الحرب.. على أن أنتظم في سلك العسكرية.. هكذا يقضي القانون.. كل من يبلغ سن

الثامنة عشرة عليه أن يلبي نداء الوطن.. عليه أن يقاتل
أحلامه... يدوسها بالهذاء العسكري الثقيل.

ولا عزاء.. هكذا قرر النظام.

أُلحقت بمدرسة القوات الخاصة والتي تستقبل خريجي الجامعات،
وكذلك الذين لم ينهوا الدراسة.

المشرف على تدريبنا (أياد سعد) أمر بإعدادنا كضباط قوات
خاصة في أسرع وقت ممكن. ونجح إلى حد كبير في تأهيلنا خلال
الشهور الأربعة الأولى من التدريب الشاق إلى الدرجة التي جعلنا
قادرين على خوض العمليات العسكرية.

نورتنا حملت الرقم 23 ومسمى (صدام العرب)، وبدأت في 16
كانون الثاني عام 1987 داخل معسكر الرشيد الواقع في ضواحي
بغداد.

في الشهر الأول تدريبنا إلى درجة الإرهاق.. كل يوم أربع
وعشرون ساعة من غسيل الدماغ حتى الإفراط؛ ننهض عند الرابعة
صباحاً، وفي الخامسة يجري التعداد.. الحاضرون والغائبون.. ثم
توزع الأوامر لتبدأ رحلة التدريب القاسي.. نركض نصف عراة..
نجاهد لانتزاع أقدامنا التي تغوص في رمال الساحة.. الشنا،
القفزة، الركض، الزحف على الأسفلت، التسابق ركضاً والقفز على
العوارض.. تلك كانت ملامح برنامجنا اليومي.

أكثر ما كان يؤلنا سيل الشتائم التي كنا نلتقيها من ذلك المدرب
الغامق البشرة، الضخم الجسم ومخارج الكلمات.. أتوبه من جنوب
العراق ليسومنا سوء العذاب.. لم تكن تكفيه فظاظة ألفاظه

وقاموس شتائمه المفرط في البذاعة.. بل كان يتجاوز فيجلدنا بالكابل إذا ما قصرنا في التدريب.. تسالت كراهية «سالم الجيوري» إلى أنفسنا بسبب ما كنا نلقاه على يديه من قسوة، لا نذكر له فضيلة... إلا فضيلة العدل في توزيع الشتائم وضربات الكابل.. كان الجميع عنده سواسية.. مجرد حيوانات.

كان يشاركنا التدريب إخوة مسلمون مغاربة.. يتعرضون لما نتعرض له، ويقاسون ما كنا نقاسيه..

لا فسحة للراحة من الإرهاق، فقط لحظات قصار لتناول وجبة الغذاء عند الثانية ظهراً.

المشرفون على تدريبنا وضعوا نصب أعينهم تحطيم شخصيتنا، وتطويعنا لنكون مجرد أدوات عسكرية مؤهلة للقتال.

التدريب رغم قسوته.. كان هيناً إلى جوار حرماننا من أي اتصال بالأهل والأصدقاء.. كان علينا أن لا نعرف عالماً آخر خارج أسوار معسكر الرشيد حتى ننهي دورة التدريب الأولى.

شهر كامل.. بعده أطلقوا سراحنا لمدة يومين.. نزور فيهما الأهل.. ونتنفس رياح الحرية.. ثمان وأربعون ساعة نعرف فيها معنى الإنسانية، ثم نعود لنفقدوها من جديد مع بداية الدورة الثانية، وهي الدورة الأكثر أهمية، هكذا أخبرنا المدرب.. ألحقونا بجناح خاص يسمى «الصاعقة».

وبدأت رحلة التدريب على استعمال الأسلحة الخفيفة.. كيف ن فك «الكلاشينكوف»، كيف نزود خزائنه بالطلقات، الطريقة المثلى لتنظيف

السلاح.. والبراعة في التعامل مع الأعطال المفاجئة.. كل يوم كنا نكرر الفك والتركيب والتنظيف لدرجة أننا ملكتنا القدرة على القيام بدقائق تلك العمليات، حتى صرنا قادرين على ممارستها ونحن غارقون في النعاس.

وكان علينا إضافة لكل ذلك أن نتقن لعبة الكراتيه، الدفاع عن النفس، القتال الأعزل - القتال بالسلاح الأبيض - دون إحداث جلبة وفي لمح البصر.. دربنا كذلك على ما يسمى بـ «حرب الشوارع»، وكيف نتسلل إلى صفوف العدو دون أن نحدث ما يلفت أنظاره خاصة عند الليل.

كان علينا في نهاية الدورة أن نتحمل البقاء أطول وقت مستطاع دون ماء أو غذاء. كنا نحشر في «جملون» كبير يتسع لأكثر من ألف شخص.. المكان غارق في الروائح الكريهة.. رائحة البول وطفح المجاري وتخثر الفضلات.. عليك أن تتماسك حتى لا تخرج ما في أمعائك.. آلاف الأشخاص مروا من هنا.. وقليل منهم نجا سليم النفس ململم الفؤاد، عنده قليل من الثقة بالكون وخالفه.

أرض التدريب حافلة بتراب كثير، يتوسطها حوض ممتلئ حتى الحافة بمياه المجاري، تطفو على سطحه جثث القطط والكلاب النافقة. في مواجهة الحوض وعلى منصة عالية كان يجلس المدربون، محصنة أنوفهم وأفواههم بالكمامات الواقية من الروائح المنبعثة من كل جوانب المكان.. كانوا يكرهونا على إلتهايم الحشرات التي تحفل بها الساحة، صراصير، بعوض، وأفاعي كانت طعامنا لأسبوع كامل.. وكان الحوض مسبحنا نشارك حيواناته النتنة الطفو والغطس دون أن يكون مسموحاً لنا بالتوقف، فضلاً عن المعارضة..

الركل والضرب المبرح عقاب مألوف لمن تراوده نفسه الإحجام عن تنفيذ التدريب.. وكانت معركة تتسم بما تتسم به صراعات الحياة أو الموت.

ستار زميل دراستي وشريكي الآن في هذا الجحيم، ضعيف البنية، رقيق المَشَاعِر، شاء سوء حظه أن تضبطه نظرات المدرب وهو يجاهد كي يتجنب متأنقاً الحشرات التي تسعى في المكان.. زعق المدرب بصوته الجهوري الأجش: ستار.. كل هذه الصراصير التي عند أقدامك!! إقبض عليها والتهمها.. المسكين ستار قبض بين راحتيه حفنة من الصراصير، ضم الكفين بكل قواه وسالت العصاراة على ساعديه، زعقات المدرب تدعونا جميعاً إلى مشاركة ستار الوليمة: إقبضوا جميعاً على الصراصير.. أعصروها واكلوا هنيئاً مريئاً جاهد ستار ليمتنع عن التقى، إصطكت أسنانه، أطبق شفتيه بكل قوة، تنافرت عروقه، وأحمرت وجنتاه. سالت الدموع من عينه، ثم بدأ يرتجف كالمحموم.. تقياً كل ما في أحشائه واقفاً مرة وجائماً على ركبتيه مرة أخرى.. فعلها ثلاث مرات.. صاح المدرب: أرفعوا هذا الخبيث.

تولى شخصان منا إطاعة الأمر فتوقفوا ستار، وأتى ثالث ليمسك برأس المسكين، تسابقت الأيدي تحشر الصراصير في فمه، وزعقات المدرب الأمرة تطن في أذنيه: إبلع هذه الحشرات.. أنت جندي عراقي، حاول ستار وفشل.. عاوده القى.. وعادوا إجباره على ابتلاع الصراصير حتى نجحوا في إرضاء إلحاح الأمر.

أهلكنى التدريب الشاق.. أصاب الشلل عقلي.. أصبح جسدي يتلقى مباشرة الأوامر ويطيعها دون إعتراض من مراكز الإحساس التي

سُملت. تحملت عضلاتي بلا كلل السير لمسافة تتعدى 60 كيلومتراً
سـا مثقل بكل لوازمي العسكرية.

لُجج مدربونا في مهمتهم.. حولونا كما أرادوا إلى حيوانات أجيـد
مُرويضها وإعدادها لتكون أدوات قتال.. كان مدربونا يفاخرون
بمقررتهم على صنع وحوش قادرة على مصارعة العدو.. كانوا
يتفاخرون بزعمهم أن إسرائيل ذاتها تخشى القوات العراقية
الخاصة.. ويطالبوننا أن نشاركهم هذا الافتخار.. كانوا يقولون
لنا: يجب أن لا يكون للخوف مكان بينكم، دعوا ذلك للعدو..

ولطالما رددوا على مسامعنا ما يجب أن نفاخر به: أنتم طلاب هذه
الدورة فريق واحد، سمح لكم بالدراسة في الجامعات العراقية
ورقع عليكم الإختيار كي تكونوا مرآة للجيش العراقي تعكسون قوته
وتشجاعته.. كانوا يمنوننا بالوصول إلى أعلى المراكز.. كانوا يعظمون
قدرنا: القوات الخاصة العراقية لديها طريقة لحماية الوطن
خُوق طرق الجيوش العالمية جميعها.. بالفوا في نفخ أوداجنا:
صُفكم هو الأقوى، يفوق الصفوف المناظرة في كل الجيوش.

في الخامس من نيسان إنتهى تدريبنا الأساسي فمنحنا إجازة لأربعة
أيام.. سابت الريـح لأكون بين أهلى في بغداد..

حاولت جاهداً أن أبـدو منشـرح الصدر، موفـور العافية.. جاهـدت
حتى لا يلحـظ أفراد أسرتي آثار التـدريب القاسي . وكان هذا موضع
خُـبر لأبي.. فخر أن يحـمل ولـذه السـلاح.. السـلاح في عالمنا العربي
جـزء من الرـجل، هو أكـثر من أدـاة قـتل، هو تعبير عن القوة والثقة
بـالنفس، عن السـلطة والـجاء.. أمر طـبيعي ومعتاد أن يحـمل الرـجل
السـلاح، لا يخلو منزل، أو عائلـة منه، مسـدس، بـندقية أو كـلاشنكوف..

السلاح جزء من الرجل.. ومن لا يملك سلاحاً فليس برجل - هكذا
لقننا صدام.

تسامرت مع أبي كعادتنا، ولم نتوقف طويلاً عند فترة التدريب التي
إنتهت، تحدثنا أكثر عن ما هو أت.. حدثته أنهم أخبرونا أننا سوف
نتدرب خلال الثلاثين يوماً القادمة على الهبوط بالمظلات وراء خطوط
العدو، وعلى القيام بعمليات هجومية.

إنتهت الأجازة وبدأنا من جديد.. مدربنا كان خشناً قاسياً، لكنه
كان يقوم بعمله كما ينبغي، حال دوننا والخوف من اللحظات الأولى،
كان يكرر علينا القول: أننا مميزون، ويطالبنا بأن نفكر دائماً في
ما نفعل فقط، داوم النصيح: «يجب عليكم أن تتعرفوا على الخوف،
إذا لم تعرفوا الخوف فلن تستطيعوا التعامل معه، تعرفوا عليه كي
تتسوه وتتجاوزوه».

يتوسط المعسكر برج يرتفع إلى أكثر من مائة وثلاثين متراً، بسدت لنا
درجاته الحديدية ممتدة إلى ما لانهاية.. وكانوا يدفعونا للصعود
إلى القمة.. والجلد بسوط حديدي عقاب من يحاول التلكؤ أو
التملص من الصعود.. تلال من الخوف والرهبة أصابتني وأنا واقف
عند القمة مثقل الظهر بالمظلة.. على أن أقفز من هذا العلو الشاهق،
ولا خيار آخر. كان المدرب يتوعد من لا يقفز بإعادة التدريب كاملاً..
جاءني عبر مكبرات الصوت المثبتة عند قمة البرج صوته مشجعاً: لا
تخف.. كن قوياً.. ركز جيداً.. أرخيت عضلاتي.. أخذت نفساً
عميقاً وقفزت وأنا أصرخ «الصاعقة».

اليوم التاسع من أيار 1987 كان يوم إنتهاء دورتنا.. دورة
«صدام العرب» - خمسمائة مجند تعثر منهم ستون لم يوفقوا

كضباط، عليهم أن يعيدوا الدورة كاملة.

اصطففنا في ساحة المعسكر لنمنح رتبنا العسكرية.. النشيد الوطني العراقي تصدح به آلات الفرقة الموسيقية العسكرية.. اتسم حفل تخرجنا بالمهابة.. القائد العسكري الهام عبد الجبار شنشل حضر ليسلمنا الأوسمة، ويقدم لنا التهاني والمباركة بإنخراطنا في الجيش العراقي.

إنتفخت أوداجي لحظتها.. وزالت كل آثار التدريب الشاق، أحسست بأهميتي، أنا الآن ضابط في جيش العراق ولم يتعد عمري الثالثة والعشرين بعد.. ها أنا قد وضعت أقدامي على الطريق إلى المستقبل في المجتمع العراقي، النفوذ والمال.. إجتاحتني الفرحة، كنت أعرف أنني ذاهب إلى الجبهة فقد تسلمت الأمر بذلك مع وسام التخرج . ولم يقلل هذا من فرحتي.. تداخلت واختلطت مشاعري.. ولت أيام التدريب.. حلة زاهية مرشوقة بوسام لامع.. وفوق ذلك أربعة أيام جديدة سوف أقضيها مع الأهل في وضعي الجديد.

كان يوم الثالث عشر من أيار 1987 شديد القيظ يدفع إلى الإختناق ونحن محشورون في عدد من الباصات العسكرية في طريقنا من بغداد إلى موسى بن نصير، الفرقة (35) شرقي دجلة الواقعة في محافظة البصرة جنوب العراق.. في القرنة.

لحسن المصادفة كان قائد الفرقة محمد طاهر توفيق من منطقتنا في بغداد، تبادلنا التحية مرات قليلة هناك، وهي الآن كافية لتقرب بيننا، بانث على علامات القلق وإمارات التعب.. الخوف مما هو آت.. وقد لاحظ قائدي ذلك جلياً.. خاطبنا بود: «لديكم الآن أربع وعشرون ساعة لتستريحوا من متاعب

الرحلة.. ثم لتواصلوا إلى مكان آخر.. إلى الجبهة.. هذا كل ما قاله.. وانصرفنا إلى بطن المعسكر المشيد في عدة طبقات تحت الأرض.. الحر الخانق وإسعات البعوض ليست وحدها التي حالت بيني وبين النوم.. الانفجارات المتلاحقة استتفرت حواسي جميعها.. ها أنا أسمع لأول مرة نوي المدافع بكل هذا القرب إنها الحرب إذن. تلامس مراكز أحاسيسي.. تهزها.. تأرجحها في كل اتجاه.. أنا الآن في قلب الأتون المتأجج.. ولا مهرب.

مع إشرافة اليوم الثاني نقلت إلى منطقة المراقبة رقم 5 - 2 في العزيز عند منطقة المستنقعات.. ثلاثة كيلو مترات تفصل بيننا وبين الإيرانيين - الخمينيين كما كنا نسميهم - أصواتهم تلتينا واضحة عندما تهدأ الريح ويخف التراشق.. كانوا يتوعدوننا بقطع الرقبة عندما تحين لهم الفرصة المناسبة.

ذأبوا على السخريّة منا.. كان نداهم المفضل الموجه تجاهنا: يا جيش مي أكرم.. مي أكرم عاهرة في واحد من بارات بغداد.. تجاوز نشاطها مناضده لتوزع خلاعتها على ثلاثة أرياع الملاهي المنثورة في أحياء بغداد المختلفة.. ملاه فاقت في مياذلهما مثيلاتها في مدن المياذال الأوروبية والأمريكية.. وكانت مي ملكتها المتوجة. كانت الترجمة الموجزة لعبارتهم تعني «أنتم جنود العاهرة الملحون».

كلفت بمراقبة تحركات الإيرانيين من أعلى برج محاط بالمستنقعات من جوانبه الأربعة ، وكانت وسيلتنا للوصول إلى البرج، أو على الأحرى كوخ المراقبة قارب صغير يتأرجح على صفحة الماء الأسن.. مصطبتان هما كل اثاث الكوخ، وكانتا كافيتان لنومنا ونصب

لاسلكي المراقبة.. كانت مساحة الكوخ «ثلاثة أمتار» تكفي بالكاد، للنوم والمراقبة وزاوية إقطعتها لتكون مكاناً للطهي.. كان علينا أن نتكيف واضعين نصب أعيننا أننا في مواجهة مع ما أسميناهم بالخميين الشياطين.

فريق الكوخ تحت إمرتي جنديان، مكلف لاسلكي اسمه إسماعيل طه، يكبرني بسنوات قليلة، تمرس لطول المدة على الحرب، ومجنّد عادي يدعى محمد مطشر جاء من أطراف بغداد، مهارته في الطهي أفادتنا. ساعات طويلة من المراقبة الدائمة لمواقع الطرف الآخر.. أثنان وعشرون يوماً من الضجر.. الدقات الرتيبة المنبعثة من جهاز الإرسال اللاسلكي كادت أن تحطم أعصابي.. على أن أتماسك وأقاوم الضجر والملل حتى لا أخطئ في رصد التحركات الإيرانية وإبلاغ القيادة بها على الفور عبر الجهاز الرتيب.. كانت رسائلي بمثابة جهاز التوجيه لدفعيتنا الثقيلة.. الأوامر الدائمة لنا كانت تقضي أن نسارع بالانسحاب لو تعرض موقعنا للهجوم، فتسليحنا الخفيف لا يسمح بالمقاومة.. وزاد من وقع الملل علينا إخفاقنا في رصد أي تحركات ذات شأن على الجانب الآخر.. فقط شاحنات صغيرة تنقل الطعام لمواقعهم المتناثرة.. الغبار المتناثر من حول الشاحنات يطمس معالمها.. كنا نشم أنفاسهم نون أن تتجسد أمام عيوننا ملامحهم.. صامته الجبهة إلا من بعض طلقات متفرقة تومض في مسارها كالشهب المحترقة.. سماء زرقاء ممتدة، تنعكس على صفحة المستنقعات ليختلط الأزرق بلونها الأسن.

تسللت إلى داخلي تلال من السأم.. كرهت الحرب التي لا تأتي.. الحرب التي بلا ملامح.. وبلا عدو منظور ومحدد.. توقفت عند عو آخر ألامسه

وأعائشه هو الضجر.. كرهت الألواح الخشبية التي أنام وأعمل عليها.. كرهت أزيز اللاسلكي.. وزاوية الطبخ، والقائمة المرتسمة على ملامح رفيقائي في المرصد.. كرهت طول الانتظار.. يالها من حرب سخيفة.

أخيراً تحرك الماء الأسن وساعداي يجفان بقوة فائقة لأصل بالقرب إلى اليابسة.. هبت ريح الحرية.. أخيراً منحت أجازة لمدة أسبوع، أسابق الريح لأكون هناك.. ألامس أنامل أبي، أقبل جدران بيتنا.. جنتنا الواسعة.. كم هو عظيم ورائع ذلك المنزل الذي شبيت على الطوق في ساحته. كان الاعتقاد في السابق لا يكشف لي كل هذه الروعة التي عليها منزلنا الكائن في حي الأعظمية الراقي.. الآن أدرك كم هو كبير وواسع.. بعد أن خنقنتي الأمطار الثلاثة التي قيدت فيها حركتي.. الأمطار المعلقة ما بين السماء والأرض.. البرج، أو كشك المراقبة كما أسميناه.

حاولت أن أنتزع إجابات من ذلك الحكيم أبي عليها تعينني على الخروج من الحيرة التي ملأت جنباتي.. لماذا نحارب يا أبي؟!.. أنظر إلى بيتنا، لدينا كل ما نحتاج.. الشعب العراقي لا ينقصه شيء.. لماذا إذن قسر علينا أن نموت هناك؟! اعطني الجواب يا أبي.. لكن أبي يراوغ: «ياولدي الخدمة العسكرية واجب وطني، والهروب معناه الموت». إذن لا جواب.. لا يربطني بتلك الحرب المعطوبة سوى الخوف من العقاب وجلب العار والألم للعائلة.. وعدت إلى هناك.. إلى البرج والماء الأسن.. هذه المرة لا ضجر.. يومان فقط.. في العاشر من حزيران عام 1987 هجم الخمينيون من كل الجهات.. اللهب المتصاعد أحال زرقة السماء إلى ألوان مختلطة.. الأحمر فيها الغالب.. كان هدفهم القضاء على

الفرقة 35، أمرت المسؤول عن اللاسلكي أن يرسل المعلومات التي توافرت لي فوراً إلى مقر القيادة.. أمرونا بالإنسحاب الفوري.. هرونا إلى الماء.. هاجمت المروحيات البرج فدمرتة.. حصرنا نجاهد بحثاً عن مخزج.. جددنا صوب موقع أمن دون فائدة.. استسلمت المواقع الواحد تلو الآخر، أسروا عدة ألوية مشاة.. فصلوا الضباط عن الجنود.. قابونا موثوقة أيادينا إلى ملجئ قديم، ضربونا بقساوة.. تبارى حراسنا الستة في التكيل بنا.

غسان حمود مساعد قائد فرقة المدرعات العاشرة.. واحد من أبطال جيشنا، يحمل عدة أوسمة تجسد البطولة.. نجح في هجوم معاكس في فك أسرنا.. هروا حراسنا الستة مع ظول الخمينيون عبر المستنقعات إلى مواقعهم السابقة.. خلفوا معداتهم متناثرة عند الحواف وغاصوا طلباً للنجاة.. لم يهنأوا بنجاح هجومهم أكثر من ساعتين.. تحولوا بعدها إلى فارين أو أسرى.

انتقخت أوداج جيشنا لهذا الإنجاز.. إستعرض صدام حسين فرقة المشاة العسكرية وسط مظاهر وعزيمات النصر، مئات المصورين، والبث المباشر ينقل إلى شعب العراق وقائع الاحتفال.. تسابقت صحفنا في الإشادة بمقاتلينا المغاوير، نالت فرقتنا جسيماً أوسمة خاصة بهذه المناسبة.. رُقيت أنا إلى رتبة الملازم الأول.. وكان على أن ألبس روح المنتصر وأزمو برتيتي الجديدة.. لكن الضجل والحزن على ما أصاب صديقي الملازم الأول ناظم تبناً حالاً.. ناظم كان واحداً من زملائي في الدورة العسكرية.. تألفنا أثناء فترة التدريب.. ناظم تعرض لضربة مفاجئة أثناء الهجوم المضاد من جندي إيراني كان منبطحاً على الأرض.. كان ناظم يحرس الجندي المنبطح.. فجأة

هب الإيراني من على الأرض وعاجل ناظم بحجر اصطدم بوجهه فأحدث فيه جرحاً غائراً .. صرخ ناظم من الألم .. سألت منه الدماء وأختلطت بالرمال التي تكوّم عليها .. واحد من رجالي فتح على الفور النار من سلاحه المشهر فأصاب الإيراني في مقتل .. لأول مرة أرى الموت هكذا مجسداً .. إنسان يزحف وهو يصارع الإحتضار .. لحظات خاطفة وتتوقف الانفاس المتلاحقة .. العيون الجاحظة تتوقف عن الدوران .. أنها الحرب الملعونة .. مشاعر مختلطة إجتاحتني .. صديقي ينزف .. آخر يموت، عدو غابر .. لكنه بشر، ملعونة أيتها الحرب.

بعد أيام قلّائل .. في الخامس والعشرين من تموز 1987 نقلت إلى بطارية هاونات خفيفة .. وحدتي تحمل الرقم (954) .. تتمركز عند أطراف الجبهة .. لاحظت التسليح السوفيتي جيد الصنع المتوفر لوحدي .. مدافع حديثة (85 ملم) يصل مداها إلى أكثر من أربعة كيلومترات .. ضباط أكفاء يتميزون بالذكاء أشاعوا في داخلي الاطمئنان والراحة؛ أمر الوحدة الرائد محمد غالب إنسان تغلو الطيبة وجهه فتشيع إلى من حوله .. مقدر من الجميع لبطولته في كثير من المعارك التي قاد فيها الهجوم على العدو .. نصير بكر، وسعد أحمد ضابطان يحملان رتبة الملازم الأول وكانا من بغداد .. لاحظت عليهما النحافة وطول القامة .. وشوارب كثيفة .. يتميزان بالقدرة العالية، والتفكير المنظم والمتطور كما لو كانا قد تلقيا الدراسة في أعرق الجامعات الأوروبية أو الأمريكية .. لاحظت محاولتهما للتآلف معي، من اللحظة الأولى ضماني إلى مجموعتيهما .. حرصا على حضوري إجتماعتهما الهامة، ومشاركتهما الطعام في غرفة القيادة التي كانت

بمثابة المطعم.. وكنا هكذا ندعوها.. كان اسمها الذي ألفناه..
المطعم.. حتى كدنا أن ننسى أنها غرفة القيادة.. بعض المناضد
خشبية متناثرة في مساحتها الصغيرة، وتتعلق المناضد كراسي
خشبية أعدها الجنود على عجل واضح.. مركزنا القابع تحت
سطح الأرض يضم طوابق عدة، تعمه الفوضى.. تلال من الأخشاب
المتنوعة الأحجام.. أكياس رمل عند المداخل والمخارج وفي
الممرات.. مكتظ وخانق نعم.. لكنه يدعو إلى الراحة كلما تذكرت ذلك
البرج الخشبي اللعين الذي عايشته قبل نقلي إلى هنا..

جلسة شاي هادئة ضمتني والرائد محمد غالب.. انكشف فيها
غطاء ما غمض على في البداية.. جاني الجواب الذي فتشت عنه..
لماذا قرباني إليهما من اللحظات الأولى! .. وها أنا أدرك بوضوح
المعنى الكامن وراء التلميحات المبتورة في سياق الحديث اليومي..
الاحترام إلى حد الخشية.. الود المقارب للتملق.. الحلقة في
قسماتي ومتابعة مسلكي بانتباه ملحوظ.. وفي كل الأوقات حرص زائد
على تحاشي ما يسىء إلى الرئيس القائد.. المبالغة في تجنب أي
حديث عن الحكام.. عن صدام.. العائلة.. وكانوا يتصرفون وكأنهم في
حضرة واحد من هذه العائلة.. الآن أدركت.. أنهم تصرفوا على ذلك
النحو وفق قناعة تلبستهم أنني بالتأكيد واحد من آل صدام.. ضللتهم
ملاحني شديدة الشبه بـ «عدى» ابن صدام.. أو فكراً ظنوا معرفتهم
بعدي جاءت عبر التلفاز والصور التي تنشرها له صحف العراق.. لم
يجهدوا أنفسهم لتحري حقيقتي.. عاملوني من اللحظات الأولى بزعم أنني
واحد من العائلة المتربعة على عرش بغداد.. الكلام في حضرتي
ملفوف بالحريز.. قال محمد غالب وهو يقبض على راحتي ويرفع

كأنسه ويبتسم: «أكيد لك علاقة جيدة مع أناس نوى سلطة في بغداد. فانت تنتمي إليهم».

غالبت ضحكاتي التي كادت أن تنفجر.. إكتفيت بنصف إبتسامة، شاركته اللعبة.. لم أنبس بحرف.. تركته يتمادى في تملقي، أخذت رشفة من كأسه، ومسحت شاربي بأطراف أصابعي.. تسليت بالنظر إلى غالب المغلوبية قدرته في مواجهة واحد من العائلة المقدسة كنا صورت له مخيلته.. فاق تملقه أو في الحقيقة رعبه الكامن بين جوانحه الحد، عرض على أن أتولى القيادة السياسية للوحدة.. قابلت طلبه برفض متأدب.. كنت أعرف نوافعه.. لكن كنت أعرف أن للعبة حدود.. القيادة السياسية للوحدات يقرها حزب البعث.. أيام قلائل وجاء ضابط شاب بعثه الحزب ليتولى ذلك الأمر.

السكون في وحدتي.. برقية عاجلة وتحمل درجة السرية.. وأكثر من ذلك جاءت من مكتب الرئيس.. وكانت تعيني.. موجهة لذلك الذي راودت ضباط الوحدة ظنون تقارب اليقين أنه واحد من أسرة صدام.

بغداد في 20 أيلول 1987.

سري وشخصي جداً

استعلامات القصر الجمهوري

يرجى حضور الملازم أول لطيف يحيى لطيف إلى مقر استعلاماتنا حين استلام هذه البرقية خلال ٧٢ ساعة ويعاقب المقصر .. انتهى.
برقية شديدة القصر.. غامضة.. أثارت دوائر السكوت بين صفوف

ضباط الوحدة.. دعاني غالب إليه وهو شديد الإضطراب: لطيف، هل فعلت شيئاً؟ هل خالفت القوانين؟!.. أجبت قبل أن أعرف بخبر الرسالة: لا، أبدأ، لماذا؟.. تبسم في حنو أبوي: لطيف، عليك أن تنهب على الفور إلى بغداد، القضية تتعلق بمهمة سرية هامة.. قطع على محاولتي السؤال: لا أسئلة، لطيف.. صديقي.. إرحل.. إغتصب إيتسامة ليؤكد إطمئنانه إلى أن حدسه عن نوع المهمة صحيح.

أربعة عشرة ساعة مسافة الرحلة إلى المقر الرئيسي في بغداد.. في تمام السادسة مساءً كنت هناك.. العرق ينضح من حلتي العسكرية، ما أن دلفت إلى قاعة الاستقبال الواسعة حتى وجدته أمامي.. كان في انتظاري.. خزل حرب التكريتي عضو حزب البعث الحاكم.. صافحني وقال: إجلس سوف تصل السيارة حالاً.. تمدد الصمت بيننا عشر دقائق تفوق في ثقلها عشر سنوات.. فاجئني على غرة: ماذا عن الجبهة.. قلت: مدهشة.. لي كل الفخر أن أكون هناك.. كنت أعرف أنني أكتب، وعلى الأرجح محادثي يعرف ذلك أيضاً.. الكذب في عراقنا أصبح عادة.. صار جدارنا الواقى في مواجهة المجهول.. الكل يكذب، والكل يعرف أن الكل يكذب.. أصبح الصديق عملة غير قابلة للتداول.

عشر دقائق أخرى ونودي على لاستقل السيارة الواقفة في محاذة مدخل القاعة.. أدار السائق الصامت المحرك قاصداً القصر الجمهوري.. المرسيديس الأخرى تتبعنا كظلنا.. ركبها الثلاثة متجهمون، تلوح الجديفة على بلامحهم.. يبدو أن الأمر غير عادي.. أكبر من جرم اقترفه شخصي ويساق من جراه إلى السجن.. تلاحت أنفاسي.. القلق يعتريني.. رجوت السائق لفافة أنفث مع دخانها بعض مخاوفي لكنه رد في اقتضاب.. قال: عنراً سيدي أنا لاأدخن..

على أن استخرج من المخيطة مساري العسكري.. وربما من ساعة مولدي.. هل تلفظت يوماً بما لا يليق في حق الرئيس.. أبداً لا.. هل تدمرت بالطيف من الحرب.. البتة لم أفعل.. ربما وأنت تتسامر مع الوالد أخذت راحتك فتسريت منك كلمة ما في حق واحد من أسرة المهيب الركن، تسربت من فمك لتلتقطها آذانهم المبيوثة خلف الحوائط.. أبداً.. أبداً.. لا يبقى إذاً سوى احتمال واحد.. ربما وأنت في رقادك تتقلب في فراشك، تغط في نومك وتحلم بصوت مرتفع.. قلت في أحلامك ما لا تقدر عليه في الصحو.. يالهول الكارثة ربما كان الأمر متعلقاً بأبي.. أو واحد من أسرتي.. لا.. لا.. نفضت خاطر سريعاً من رأسي.

غالب.. آه.. ربما غالب.. ربما أخضعوني لإختبار ولاء.. نفخوا أوداجي بأن أكنوا المشابهة بيني وعدى ليستدرجوني إلى فخ الطمأنينة فتنساب من اللاوعي كوامني.. لماذا كل هذا القلق بالطيف.. ربما كان الأمر مجرد سوء فهم.. ليلاً بالله عليك، وحاولت.. حملقت عبر النافذة أرقب أسفلت الطريق وهم يجرى في الإتجاه المعاكس للسيارة.. أدت رأسي أتابع السائق الصامت.. رغبت في مبادلة الحوار.. ربما يعرف شيئاً ما عن الأمر.. لكنني تراجعت.. ضبطته هو أيضاً يتابعني عبر المرآة.. هذا المتسريل بالصمت من المؤكد أنه يعرف الكثير.. حمل بسيارته آخرون غيري إلى المجهول.. وجوده في مدار الأسرة الحاكمة أتاح له معرفة الكثير عن الإتهامات والجرائم.. عشرات القصص والحكايات التي يتداولها سكان بغداد، القصص المتراوحة بين الحقيقة والخيال.. يعرفها بالتأكيد كلها.. ياله من ملعون.. لماذا إذاً هو صامت.. لماذا لا يروي بعضاً من عطشي إلى الإطمئنان.. قفزت إلى مقدم

رأسي صورة مشهد عاينته الأسابيع الماضية عندما كنت في إجازة في بغداد.. أربعة رجال مقيدون بالزنابير وسط ميدان متسع، يحوطهم العسكر المدججون بالسلاح.. نسوة أصابهن الهوس، أظافرهن الملطخة بالطلاء تخمش وجوه الرجال المقيدين.. بصقات وركلات ذات اليمين وذات اليسار يلقاها المساكين.. لحظات ويقاد المقيدون إلى المشانق المنصوبة في قلب الساحة.. تأرجحت أجسادهم بعد أن ودعتها الحياة.

الحشد الذي كان يشهد العرض والإعدام جرت أقدامه إلى الشوارع الجانبية.. أدنى واجبه تجاه النظام.. شهد عقاب التجار المجرمين سارقي قوت الشعب.. هكذا وصمهم القائد صدام في حديث إلى الشعب وقواته المسلحة بثه التلفاز.. قال: هؤلاء الأقدار والطامعون أرادوا أن يستغلوا الشعب وياعوا سلعاً بأسعار عالية.. الناس سواء الذين تجمعوا في ساحة الإعدام أو من بقوا في منازلهم يعرفون أن الأمر غير ذلك.. يعرفون أن الضحايا الأربعة ساقهم سوء الحظ إلى الدخول في ساحة المنافسة مع تجار العصابة الحاكمة فكان نصيبهم الإزاحة.

أعرف أن الخوف متبادل.. صدام يخاف الشعب.. والشعب يخاف صدام.. وأنهار الدم التي تجري تؤكد تلك الحقيقة.. وكان على أن أتعلم.. أن أكون أشد حرصاً.. لكن.. ربما لم أكن حريصاً إلى الحد اللازم.. ها أنا في قلب المصيدة.. تأخذني الدوامة إلى الأعماق.. قفز إلى رأسي خاطر مفزع: ربما استبدلوني بشخص آخر.. ألصقوا بي تهمة أرادوا أن يبعدها عنه.. وإن أعاقب أنا بجرمه... يا إلهي.. هل هي النهاية؟

وربما كانت البداية؟!..

توقف صوت المحرك فانتبهت والسيارة واقفة في مواجهة قصر
نسر بغداد، مقر عدى صدام حسين.. القصر يبدو مألوفاً لي.. رأيته
مرات يتصدر صفحات صحفنا السيارة.. وعبر التلفاز.. ساطت نفسي..
ماذا يريد بي عدى؟!.. فتح لي السائق الباب ودعاني بأني إلى النزول دون
أن ينطق، أو ينظر تجاهي.. وكان في إنتظاري رجلان مهربان ساقاني
إلى داخل القصر، وتركاني واقفاً أنتظر.. أخذت أتأمل ما حولي..
في المواجهة مرآة كبيرة تلو أرائك مصنوعة من الجلد الأبيض،
ومطرزة بالذهب.. الأناقة تسود المكان، وتأخذ بالآباب.. لم يطل
إنتظاري.. دقائق قصار وانفتح الباب.

خطا متمهلاً إلى حيث أقف محملاً.. ابتسامة واسعة يفيض بها
وجهه، يقبض بين إصبعيه سيجار الهافانا الكبير.. يا أطفاف
الله.. من يقف في مواجهتي؟! لطيف يحيي أم عدى صدام، أو أن طول
تحديقي في مرآة الحائط الكبيرة أحال صورتي المطبوعة على
سطحها الرائق إلى دم ولحم مجسد يبتسم ويقبض على الهافانا..



2 | الجنة

● أنا أعرف عدى منذ سنوات.. وقت أن كنا زملاء في مدرسة واحدة.. كلية بغداد النموذجية.. وكان والده في ذلك الحين نائباً لرئيس الجمهورية.. عدى يصغرني بأربعة أيام.. ولد هو في 18 حزيران 1964 وأنا في 14 حزيران.. أيامها لم أكن أحس أن هناك فارقاً بيننا.. وضعية أبيه لم تكن تهمني.. أسرتي موسرة، ولنا بيت عظيم.. بالغ الكبر والفخامة.. يقع في الأعظمية أرقى مناطق بغداد.. أهلي من الاثرياء.. أبي كان صاحب معمل.. ويملك أيضاً ثلاثة متاجر للأنوات الكهربائية.. ويتاجر إضافة لكل ذلك في المرمر وأحجار طبيعية أخرى.. كنا في مصاف الطبقة العليا في مجتمع بغداد.. وكنت الولد الأكبر في العائلة وموضع فخر عند أبي وأمي.. كل ما أبتغيه أحصل عليه.. كذلك كان إخوتي البنات والبنين.. جوتي، روبي، أميد، جولا وجوان.. لم نشعر أبداً أن شيئاً ينقصنا.. كنا نمرح في الجنة.. بيتنا الرائع.. وبغداد الزاهية.. كنت أحب الذهاب إلى المدرسة.. والذي كان شديد الاهتمام بي، دائم المساعدة لي، يتابع دروسي ويرعى مواهبي.. ألقى منه الرعاية المناسبة لوضعي كابن أكبر.. أثناء العطلة الصيفية يصحبني الوالد إلى حيث يعمل.. أرقب حركة البيع والشراء.. أتمرس على فن التجارة.. كان حلمه أن أواصل على دربه.. كان يعدني لأكون تاجراً كبيراً.. وكنت من جانبي شديد الحرص على أن أكون عن حسن ظنه.. أنهيت السنوات

الإبتدائية الستة بتفوق واضح.. أول صفتي.. معلمتي السيدة فوزية كانت دائمة الاطراء لمواهبتي وقدراتي.. كانت تؤكد لي في كل حين أنها تتوقع لي مستقبلاً زاهراً.

كنت شغوفاً عند زيارتي لمتجر الأدوات الكهربائية بمشاهدة العمال وهم يعملون في إصلاح الأعطال، أراقبهم وهم يعملون على إصلاح الأعطال، أراقبهم وهم يفككون آلات التسجيل، التلفزيونات وأجهزة الفيديو.. كنت أرغب في تعلم كل شيء.. التعرف على كل قطعة.. أقضى في البيت جل وقتي أمارس هوايتي المفضلة.. رسم اللوحات الكبيرة.. أصبغ بالوان فاقعة القماش المشدود أشكل بفرشاتي المساجد والبيوت والأشجار المتراقصة على شاطئ دجلة.. من الذاكرة أجسد ملامح معلمتي وأخوتي.

كلية بغداد النموذجية.. أفضل مدرسة في العاصمة.. لا بل في كل العراق.. لا ينال شرف الإلتحاق بها سوى أبناء العائلات الموسرة والقوية، وأبناء الصفوة السياسية والعسكرية.. لا ينال غيرهم هذا الحظ.. لكن قد يواتي بعضاً منه قلة معدودة من أبناء الطبقات الوسطى ميزهم نبوغ بارز ومواهب ملحوظة.. هنا فخر العراق.. الشباب المنتخب ليكون الصفوة القادمة.. التي عليها أن تترقى بعراقنا الحبيب درجات.

تتألف المدرسة من المقر الأساسي وعمارتين إضافيتين.. تجاوز مساحتها الكيلومتر المربع.. ملجأ كبير بناه الكوريون أسفلها.. ممرات وغرف شديدة التحصين.. راعوا عند تشييده أن يصمد في مواجهة الغارات النووية.. كما حرص مشيده على أن يضم بين جنباته وسائل الرياضة والترفيه.. كما كانت تحفل بأشهى أصناف

الطعام.

لم يكن المبنى مجرد مدرسة يلقي فيها الطلاب المعرفة.. أرادوا لها أن تكون أكثر.. أن تكون مركزاً له أهمية خاصة.. معمل تفريغ للكوادر التي على عاتقها سوف تقع مسؤولية بناء مستقبل العراق.

لذا حرصوا أن يوفرها لها معلمين على درجة عالية من الكفاءة.. أكثر من ذلك اضطلع صدام شخصياً بمهمة إختيارهم..

الطريق إلى المدرسة الواقعة في حي الأعظمية مزدهم بالحواجز.. عند كل حاجز يقف الحراس شاكي السلاح.. يراقبون.. يسألون.. يتحققون من الهويات.. حراس الحواجز والأسوار تابعون لجهاز الأمن الخاص وهو واحد من الأجهزة الأربعة التي تشكل العصب الأمني للنظام.. نشعر طول الوقت أننا مقيدون في حجرة زجاجية.. معزولون عن العالم خارج المبنى.. لا زوار يتخطون الحواجز.. لا رفاق يجسرون على التفكير في القنوم.. ومن يجسر منا نحن أيضاً على توجيه دعوة أو يصطحب رفيقاً يلقي العقاب الفوري وربما يكون الطرد من المدرسة من نصيبه.

حدّد للمدرسة هدفان.. أن تقدم لطلابها القسط الوافر من العلوم، وأن تعدّهم ليكونوا أعضاء في الحزب.. تشربهم أيديولوجيته السياسية وتطوعهم ليكونوا جنوداً للنظام.

الاحساس بالتوجس.. الخوف كان يتمدد في الحجرات.. يزعم الطرقات.. يتحسس المعلمون خطواتهم.. ينتقون ما ينبسون به.. كانوا على يقين من أنهم خاضعون للمراقبة.. وكان هذا جداً حقيقياً.. المعلمون أعضاء لجنة الحزب بالمدرسة يضطلعون بمهمة مراقبة

أعمال المعلمين الآخرين.. وكان يتولى أمر هذه اللجنة ذلك المعلم الضخم
البنيان المسمى فازع.. رأس واضح الضخامة.. عضلات مقتولة
بفضل احترافه في السابق للملاكمة.. سنواته تراوح الخمسة
وأربعين.. يخطو في حيوية خشنة .. يشيع الفزع والرهبنة فيمن
حوله بكلمات شديدة الفظاظ.. يحرص في كل مناسبة على أن
يهابه الكل.. لابد أنه جاهد بدأب ليحظى بعضوية الحزب
وبالوظيفة. نجح في أن تصيب عدوى غلظته المعلمين الآخرين فانقلبوا
من أشخاص طيبين إلى عدوانيين.. لكن علينا نحن الطلاب.. وكان للقسوة
ما يبررها في نظرهم.. لسنا مجرد طلاب عاديين.. إنما طلاب في
طريقهم لعضوية الحزب.. القسوة والخشونة أدوات للصقل والتهديب..
التطويع للدرجة الأولى في العضوية.. درجة مؤيد.

الصف الأول كان بالغ الصعوبة.. عالم جديد على أن ألفه.. على
أن أدرس كثيراً.. وتوافق هذا ورغبتني في أن أكون أول الصف.. كما كان
على أن أنتبه للواجبات الحزبية.. فالحزب كان الأهم.. الواجبات..
المشاريع.. برنامج الحزب «التقرير المركزي للمؤتمر القومي التاسع
لحزب البعث»، يحوي بين سطورهِ قصة الحزب، النشأة والمسار.. وكان
واجب على كل عراقي أن يلم بهذا البرنامج ويردد مقولاته.. ويرفع من
شأنه.. يجعله في مصاف الكتب المقدسة.

عمرى إثنتا عشرة سنة.. لا أجيد صعوبة في حضور جلسة
التمرين في اللقاء الحزبي.. لقاء كل أسبوع.. يستغرق اللقاء ساعتين..
يشدد علينا المعلمون كي نقوم بواجباتنا الحزبية بدرجة كاملة..
إمتحانات متلاحقة كان علينا أن نؤديها.. ليختبروا مدى قدرتنا على
تمثل روح الحزب.. كلمات البرنامج.. شعاراته..

كانوا يطموننا أن أول درجة في الحزب هي المشاركة الوجدانية.. تليها الفعالية الحزبية.. ثم الدرجة النضالية.. يحوز بعدها الفرد العضوية الكاملة.. وينفتح له الطريق إلى التدرج.. من مؤيد بعد ذلك إلى نصير ثم نصير متقدم.. ثم عضو عامل.. ثم عضو قيادة فرقة.. ثم عضو في قيادة فرع.. إلى أن يصل الفرد إلى عضو قيادة قطرية أو عضو قيادة قومية.

حماستي وقناعتي في ذلك الوقت جطت رحلة المتاعب الحزبية محببة ومقبولة.. لي رفاقي.. تعرفت خلالها على رفاق مهمين، علي محمد صالح مثلاً، والده واحد من قادة الحزب.. وميض السعدون ابن لضابط كبير في جهاز الأمن الخاص.. أسامة قحطان ينتمي إلى عائلة مدير البنك العراقي المركزي.. وكان أهم أولئك الرفاق زياد ميشيل عطق.. ابن ميشيل عطق.. مؤسس حزب البعث العربي وفيلسوفه الكبير.

زياد كان شاباً لطيفاً مهنياً.. وكان مميزاً: يمشى مختلاً يتكلم بتؤده.. ويتعامل مع الآخرين بتحضر بالغ الطور.. ملامح شخصيته الكاملة تفوق سنواته الأربع عشرة.. أدركت أن علاقتي بزياد لها أهمية عالية، لذا سعت إلى مصانفته.. حاولت أن أدخل عالم رفقة على مهل.. أنتهز كل فرصة سانحة لأبادله الحديث.. في تشرين الثاني 1978، وكان يوم إثنين، كنا قد أدينا إمتحاناً بالغ الصعوبة.. جاء إلى بعده.. عرض على أن نلتقي خارج المدرسة.. في نادي الطوبة.

نادي الطوبة.. ياله من حلم.. مجرة أخرى تسبح في فضاء آخر.. يقع النادي خلف الشيراتون.. تتجلى في ساحاته بغداد الأخرى.. بغداد الغنى والترف.. كان محط الأنظار يقع في قلب المنطقة التي

يرتادها إلى جانب صفوة العراق المستثمرون القادمون من بلاد الغرب.. جاوا إلى بغداد يحملون في حقائبهم أحلام الثراء.. يتاجرون ويتعاملون بمليارات الدولارات.. وفدوا إلى بغداد التي أصبحت محط أنظار الغرب وشركاته العملاقة.. تنافست الشركات ليكون لها موضع قدم في العراق.. أضحت بغداد عاصمة من عواصم الاستثمار.. يتسارع الجميع إليها: رجال أعمال، تجار أسلحة، محبو اللهو والتسلية.. يأتون إلى فنادقها.. نواديها الليلية.. إلى الحانات.. يعبوا من خمرها.. ويسامروا الجميلات لقاء نقود قليلة.. لم أتجاسر على سؤال زياد عن قيمة الاشتراك الشهري في نادي العلوية.. سمعت أن القيمة ربما تصل إلى ثلاثة آلاف دولار على الأقل للشهر الواحد.

اليوم الجمعة.. الشمس الحارقة تتوسط كبد السماء.. على الرصيف المواجه لبيتنا وقفت أنتظر زياد.. جاء في الموعد تماماً.. سيارته المرسيدس وقفت في محاذاتي.. قال إصعد.. وصعدت.. نهب الطريق غير عابىء بقانون السرعة.. القانون لطيفة غير طبقته.. كنت مرتدياً أفضل حكة لدى، زياد كان مرتدياً حلة من الكتان الفاتح أبدعتها أنامل المصمم «إرمانى»، وربطة عنق من صنع أيف سان لوران وحذاء من صنع «نحوشى».. رائحة العطر النفاذ تعبق المكان من حوله.

مدخل النادي بالغ الروعة: بوابة كبيرة يحرسها عملاقان يطالعان الهويات وبطاقات الدخول.. لحظ واحد من حراس البوابة علامة العضوية على الزجاج الأمامي لسيارة زياد فأشار في أدب يدعونا إلى الدخول.. في موقف السيارات المزدحم توقفت سيارة زياد.. هبطنا.. أظهر بطاقته لواحد من حراس الموقف.. قبل أن يهم الحارس بسؤالى

سارع زياد إلى تسوية الأمر، وضع يده على كتفي وابتسم للحارس..
قال هذا صديقي فانصرف الحارس مكتفياً.

خطونا إلى الداخل.. ورحت جمهوراً .. إنها الجنة.. مطاعم..
ملا.. ألعاب بالكمبيوتر.. طاولات بليارد.. صالات لإقامة الاحتفالات
تستأجر في الأعياد والأفراح.. مسابح تتراقص الأضواء على مياهها
الفيروزية.. ملاعب بولو.. حقل واسع للعبة «الكروكيت» وأخران
لكرة السلة.

توقف زياد مرات عديدة للمصافحة.. الجميع هنا يعرفونه.. يتبادل
الحديث بؤد زائد.. أصغيت باهتمام لحديث دار بينه وبعض أصدقاء
لوالده، محور الحديث كان عن أحدث السيارات.. وتطرقوا إلى الثروة عن
نادي الصيد.. نادي الصيد الأفخم والأرقى بين نوادي بغداد العامرة..
يا لأطاف الله.. حتى هذه اللحظة كنت أحسب أن العلوية لا يعلى
عليه.. التقطت من الحديث المتناثر أن نادي الصيد هو الأرقى.. لا
يرتاده غير عائلة صدام وعوائل الوزراء وكبار رجال الحزب، حكى زياد
عن المرة التي ارتاد فيها النادي بصحبة والده.. قال بحماس زائد:
إنها الجنة.. أبهى من كورنيش Sunset وأروع من Oleandive
في ميامي بيتش.. رشف رشفة من كأس اختلط فيه الجين والتونيك؛
مع الثلج والليمون ثم واصل حديثه والكل يراقبه في انبهار.. العشب
أخضر خضرة غير عادية.. عندما تلحظه تجول بخاطرك ملاعب
الجولف الإنجليزية.. قطرات الندى تتناثر على أوراقه الغامقة
اللون.. لحظات من الاندماج طبعت ملامح زياد.. كانت يمناه تقطع
الفضاء كممثل قرر أن يحتوي كل الجمهور.. يسلبه فؤاده.. يشده إلى
شاشة فضية تتحرك على سطحها الحوريات.. لا أحد يجرؤ على

المقاطعة، أو يودها.. واصل زياد: مسابح صيفية وأخرى شتوية.. كلها مغلقة بالموزييك.. الماء أزرق رائع.. وعاد ليؤكد خصوصية المكان.. فقط الوزراء الذين يعرفهم الحراس جيداً يذهبون إلى هناك.. مرة دخلت إلى هناك سيارة مرسيدس SEL 500 .. في البداية لم أتعرف على السائق.. كانت السيارة تسير وكئنّها خالية منه.. لحظات وتوقفت.. واندفع من كان يقودها ولم تلحظه في البداية.. صبي في الثانية عشرة يرتدي حلة سموكج ناصعة البياض، يتدلى من خاصرته مسدس كبير، ويرافقه أربعة حراس.. الصبي كان ابناً لأحد الوزراء..

وبدت أن أستمع إلى زياد حتى الأبد.. قال بجدية: عندما ترتكب ولو غلطة بالغة الصغر.. تطرد على الفور.. أياً ماكان والدك.. ومهما كانت عائلتك واسعة النفوذ.. أي جرم صغير يدفع بك إلى الهاوية.. قال واحد مخاطباً زياد: كيف البنات هناك؟.. أصاب الانزعاج زياد.. قطب جبينه.. تنفس بعمق ولس براحته مقدم رأسه ثم خاطب السائل: أى مغفل أنت!!.. إنهن غير قابلات للمس على الإطلاق.. حانر أن تبسّم.. أو تلتفت إذا سعت للتعرف عليك واحدة منهن.. وجه ناظريك إلى الأرض أو إلى السماء.. الأفضل أن ترحل سريعاً.. البنات هناك من عالم آخر حتى بالنسبة لي.. عاود زياد التنفس بعمق.. أطبق قليلاً شفتيه ثم واصل بطريقة تعليمية: أخرج وتسلى، إلعب البليارد أو كرة السلة.. إياك والتحرش بهن.. قال بصورة أقرب إلى الهمس: إنهن مراقبات طول الوقت، إذا نظرت إليهن، أو تكلمت إلى إحداهن سقطت أنت أيضاً في طاحونة المخابرات.. ولجت باختيارك وادي التيه.. أضعت حاضرك والمستقبل.. لن يدعوك وشائك.. وبألها

من مصيبة حلت بك لو كانت إحداهن صديقة لعبدى.

أتاح لي زياد عالماً شديد الإثارة.. يوم مشحون بكل ما هو غريب ومشوق.. خاس النادي، الحكايات، الغداء.. وهؤلاء الشبان الدارجون إلى عالم الكبار.. في طريق العودة رجوت زياد أن يتوقف رغم أن شارع بيتنا لم يكن قد إقترب.. لماذا طلبت ذلك لا أعرف!.. أردت أن أكون وحيداً.. ربما.. وربما ملأني إحساس أنني أقل شأنًا من ذلك الزيادة المنتمي إلى عالم آخر.

قال زياد وسيارته تسارع إلى الانطلاق: لطيف، لسوف أُسرُّ إذا استطعت أنت نيل العضوية الفخرية للنادي.. دبر زياد الأمر بطريقته ولم أرغب أن أسأله كيف فعل.. المهم أنني نلت شرف العضوية.. وتتابع زيارتنا له سوياً.

مرة كنا هناك.. اليوم نهار جمعة.. شمس الظهيرة تميل إلى الخلف.. انهمكنا في لعب كرة السلة.. سمعنا فجأة صوت طلقات ناربية آتية من جهة المسبح.. اندفعنا إلى هناك.. حول المسبح تراحم لفيف من الصبية، على أجسادهم «دشاديش» بنيه غامقة.. يتوسطهم واحد بدا أصغرهم، يقبض على رشاش.. عرفنا أنه حسم به نزاع وجلبة سادت حول المسبح.. أطلق دفعة من طلقات رشاشه إلى السماء فخرست الأصوات.. سألت أحد السعاه.. من يكون الصبي.. تنفس.. قال هامساً: «هست.. هذا عدى صدام».. قلت لنفسى:.. هذا هو إذن.. ابن صدام حسين المشهور.. ورغم أنني لم أره إلا من جانب واحد فقد لاحظت أن ثمة تشابه بيننا.. العيون، الأنف، لون الشعر.. كأن الواقف على مقربة مني هو أنا.. في البيت حرصت أن أكتّم أحداث اليوم.. لم أحدث بها أحداً من إخوتي.. أو

أبي.. جاهدت لأنسى.. لماذا أطلق عدي النار؟ لا أريد أن أعرف..
قفز إلى رأسي حديث زياد وتحذيراته في أول زيارة للنادي.. تذكرت
جملة قالها بصوت أمر: إذا لاحظت أي شيء ، لا تنتظر، لا تصفي،
حاول أن تيسر غير مهتم.. لا تحاول أن تتقرب منهم.. أنهم الأقوى..
هم العراق..

بعد عام.. في منتصف الفصل الدراسي الثاني 1979، قال لنا معلم
الصف أن طالباً جديداً سوف ينضم إلينا.. أنه قادم من ثانوية
المنصور.. وكان عدي.. عدي صدام حسين.. اختار له والده صفنا..
بعد أن نقلنا إليه أننا أكثر الصفوف إجتهداً وجدارة.

ذات صباح ونحن جلوس نتابع بانتباه مؤشر المعلم وهو يتحرك على
السبورة افتتح باب الصف نون أن يطرق كالعادة.. دخل عدي للمرة
الأولى.. نقتل مرفوع الرأس نون أن يلقي التحية.. إندفع إلى آخر
الصف حارسان واضحا الضخامة، وبقي عند الباب آخران.. بينما
جلس خامس إلى جوار عدي يكتب له النرس، زادت أبصارنا،
وانصرف انتباهنا بعيداً عن الدرس وعن المعلم إليه.. إلى عدي
الجالس في خيلاء.. وكان علينا أن نألف ذلك كل يوم.. طقوس كل يوم..
الحارسان المندفعان إلى المؤخرة، والباقيان إلى جوار الباب، والخامس
الذي يكتب الدرس.. عدي كان أكثر الأحيان يأتي مرتدياً الجينز
والقميص الكابوي.. مشعث الشعر.. اعتدناه كما هو.. كان يأتي ويذهب
نون أن يغيرنا التفاتاً.. حتى المعلمين.. كان الإرتباك والخشية تطبع
علاقتهم به.. لم يكن يولي الدروس أو المراجعات أو الإمتحانات أي
اهتمام.. على خلافنا نحن الـ 24 صبياً.. كنا نجتهد لنصبح متفوقين..
وهو لا يشييه الاجتهاد.. وليس بحاجة إلى التفوق.. في واحدة من

المرات تجرأ معلم وطالبه أن يتوجه إلى السبورة ليكتب.. سار متمهلاً.. قبض بأصبعه قطعة تباشير وقذفها تجاه المعلم ثم أردف قائلاً : دعني وشأني يارجل.. وعاد إلى جوار الحارس.. كان يأتي وليس في صحبتبه أي من كتب الدرس.. يأتي متى شاء ويذهب عندما يريد.. آخر العام نال درجة أول الصف.

قوانين المدرسة الصارمة كانت تهوى كقطع البلور تحت أقدامه.. يدوسها غير عابىء.. تحت عجلات سيارته البورش..

ذات يوم اندفع إلى داخل الصف ترافقه صديقه التلميذة في ثانوية البنات المواجهة لثانوية الصبيان.. سلو أحمد السبتى.. شعرها أسود كثيف، بشرتها في بياض الثلج، عيناها خضراوان.. تبرز مفاتها خلال ثنيات الفستان المكتم.. أخذتنا المفاجأة فأخلدنا إلى الصمت.. فقط نسترق إليهما النظرات.. تجلس إلى جواره بادية الانزعاج وكأنما أجبرها على المجيء.. كنا نرقب قدوم معلم الصف.. كيف يجابه هذا الخرق الصارخ للنظام المدرسي.. أتى المعلم.. سار إلى عدى.. وقف هنيهة، ثم انحنى.. قال بصوت واهن: سيد عدى، هذا لا يصير.. كان الرجل يغالب انفعاله.. ودون أن يغير من جلسته صاح الصبي في وجهه أمراً إذهب يارجل وقم بعملك.. إبدأ الدرس.. قال ذلك ثم أخذ يربت على يد صديقه ويضحك بصوت مرتفع.. ويدحرج قلمه الذهبي على النضد.. تابع المعلم الذي سار منكسراً إلى السبورة.. بدأ درسه وكأن شيئاً ما لم يحدث.. نصف ساعة حفلت بالتوتر غادر بعدها عدى الصف.. أخذ الصبية المبتسمة في خجل ومضى.. نصف ساعة جسدت لنا القدرة الهائلة التي يحوزها ذلك الفتى.. ابن صدام حسين.. الذي أصبح في ذلك الوقت رئيس جمهورية

العراق.. في اليوم الثاني أصبح المعلم سىء الطالع في خبر كان.
أحب الحجرات إلى كانت حجرة الرسم.. كنا نذهب إليها مرتين في
الأسبوع.. ساعتين نقضيهما في سعادة.. كان الرسم هوايتي
المفضلة.. يأسرني.. يفجر كوامن نفسي.. أذكر أول لوحات
رسمتها.. كانت لوحات من الطبيعة الحية.. مشاهد من كردستان
سجنتها ريشتي عندما صحبني والدي بسيارته الفولفو إلى هناك..
ذهبنا سويا إلى «سرسنك» و«شقلوا».. في تلك المنطقة نشأ جدائي..
كانت موطنهما قبل أن يغادرا إلى بغداد، ويمارس جدي التجارة..
لازال لنا أقارب يعيشون هناك في شمال العراق.. أشعر بارتياح عندما
أزورهم خلال العطل الصيفية.. وأسجل مشاعري بألوان بهيجة
أطبعها على القماش المشدود.

أقام معلمنا معرضاً للوحات صفنا.. ولدعا له الزائرين.. شددت لوحاتي
الأنظار.. وظفرت بجائزة «أجمل لوحة».. كانت اللوحة عن كردستان..
تسارع الرفاق يقدمون إلى التهنئة.. حتى عدي.. جاء إلى وعانقني..
ريت على كتفي.. سألني قائلاً: أريدك أن ترسم لي لوحة، صورة
شخصية لأبي الرئيس، أريد أهديتها له.

كان هذا في عام 1980، صدام حسين كان قد تولى الحكم رئيساً في
16 أيار 1979، وأيضاً السكرتير العام لحزب البعث، وقائد القوات
المسلحة.. جمع الخيوط في قبضته القوية بعد أن تخلص من
الرئيس أحمد حسن البكر الذي قالت الحكاية الرسمية أنه مات إثر
نوبة قلبية مفاجئة.. لكن الرواية التي تدور على الشفاه أنه قضى
عليه بالسهم.. قبلها صرعت شاحنة مجنونة زوجة البكر وولده
الأصغر بعد أن داست بالقصد سيارتهما الصغيرة.. ملامح المؤامرة
بدأت مبكراً.. منذ سنوات يرتب صدام ليعلوسدة الحكم.. ضاق بوضعية
الرجل الثاني، رغم أن الرجل الأول لم يكن أكثر من خيال ظل.. هيا

لقفزته طويلاً.. دوام على الحديث عبر التلفاز.. ألح على الناس.. حتى اختال عليهم الأمر.. قدم نفسه لهم في صورة المخلص القادر على إحياء بابليون أخرى.. كان يؤكد لهم أن العراق الحاضر هو الخلف الحديث لإمبراطورية بابل القديمة.. لم ينزعج الناس في البداية من الإعدامات التي افتتح بها ولايته.. ظنوا أنها ضرورة.. يزيح القائد الأشواك التي تعترض الطريق إلى المستقبل.. لمس الناس إلى جانب وعود كثيرة تحسناً وانفراجاً في الأسواق وسبل الحياة.. فقد سيطر الرجل على النفط وعائداته سريعاً فزادت المداخيل.

لهذا عندما سألتني عدي أن أرسم صورة شخصية لوالده ملائني الفخر. وقفزت إلى رأسي صور الاحتفالات التي عمت بغداد يوم أن تولى صدام الحكم رئيساً للبلاد.. ركضنا جميعاً في الشوارع والطرق نصرخ ونتعانق.. ملايين تصيح بمفرده واحدة.. صدام.. صدام.. حتى والدي كان فرحاً.. قال بفخر: الآن سوف يصبح كل شيء أفضل.. سوف يكون العراق الدولة العربية المتقدمة.. ليس غريباً أن ينخدع والدي.. ذلك المتسم بالحكمة دائماً .. لقد أنخدعنا جميعاً في ذلك الحين.. الصورة الزائفة التي أجيد صنعها عبر التلفاز.. الخطوات المتلاحقة ضللتنا.

كم كنت فخوراً عندما طلب عدي أن أرسم صورة والده.. أن أرسم فخر العراق.. ياله من شرف كبير.. كل فنان في العراق يطمح إلى نول هذا الشرف.. الكل تسارع يرسم.. إمتلأت كل الساحات.. حملت البنايات ومداخل الطراق صوراً ضخمة.. صدام الفلاح.. صدام الجندي.. الرئيس.. العظيم.. القوي.. تطالعك ملامحه مطبوعة في كل مكان. جاهدت كي أظهر أن الأمر عادي.. قلت لعدي.. حسناً، سوف أرسم اللوحة أحضر لي من سيارته عدة صور شخصية لأبيه.. قلت له أحتاج إلى أربعة أيام . هز رأسه موافقاً. أنهيت اللوحة في ثلاثة

أيام.. ووقفت أتاملها.. كانت رائعة.. سر بها عدى.. أمطرني بالديح.. قال كلمات كثيرة.. بطريقته الشائنة التي تكسر الأحرف بعيب خلقي لازمه منذ الولادة.. أسنان بارزة تجعله غير قادر على التلفظ كما يجب.. أيام قلانل.. وجاءت المكافأة التي رتبها عدى تقديراً لموهبتي.. اتصل بصالح الجيوري المسؤول في الحزب وأمره برفع مرتبتي الحزبية.. كنت في ذلك الوقت مؤيداً.. صرت نصيراً.. تكسرت المسافات بيننا.. أراد أن يقربني إليه.. كل يوم يحادثني.. رغب أن نخرج سوياً.. بذل لي وعود كثيرة.. هواجس عديدة كانت تجيش بها نفسي وتوعز عليّ بالانصراف عن صحبتة... الشبه الشديد الذي كان بيننا كان يزعجني.. كان الضيق يلم بي عندما كان الرفاق يشيرون إلى متندرين: أنظر.. هاك عدى.. لم تعجبني طريقتهما في المزاح وكان أهلي ينصحونني بالابتعاد عنه.. يعرفون ككل أهل بغداد ما يتناقل عن سيرته.. عبثه وجنونه.. كان أبي يخاطبني بقوله في هذا الخصوص: كن لطيفاً ومهذباً ولكن عن بعد.. كان يحذرني.

بعد البكالوريا قدمت أوراقى إلى كلية الهندسة.. حلمت دائماً أن أكون مهندساً.. لما علمت أنه أيضاً تقدم إلى نفس الكلية.. سارعت بالانسحاب.. إندرت إلى القانون.. واختفى عدى من حياتي ولم أعد أسمع عنه إلا ما تتناقله الأحاديث المتفرقة هنا وهناك.. في عام 1986 أنهيت دراستي الجامعية بتفوق كبير.



التطوير

3

● ها نحن من جديد.. أنا وهو بعد سنوات طويلة.. لازالت الملامح التي خلفتها في آخر لقاء بيننا كما هي.. عيناه البنيتان الواسعتان.. حاجباه البارزان بشعرهما الكثيف.. أنفه المستقيم... شعر رأسه فقط لم يعد كالسابق مشوشاً.. ووجهه مزين بلحية قصيرة بالغ في تنسيقها.. حرك سيجاره الهافانا الكبير بين أصابع يمينه.. تعالت ضحكته الصاخبة.. دعاني للجلوس.. أشار إلى أريكة خضراء في مواجهة كرسيه الجلدي... جلس فجلست.. خلف مقعده مرآة كبيرة مذهبة الإطار..

بدا لطيفاً وهو يبادلني الحديث.. سألني عن أحوالي.. الطمأنينة تتسلل إلى نفسي المحمومة.. تراجعت هواجسي إلى حين.. «كيف وجدت الجبهة» قال ذلك وهو يظهر الاهتمام.. أضاف بلغة العارف: لقد سمعت أنك أصبحت عسكرياً جيداً.. حاولت أن أجعل إجاباتي شديدة القصر.. حرصت على تنسيقها حتى لا أنزلق إلى إجابة تؤدي بي أنا الآن في حضرة من يملك القدرة والجسارة على تدميري.. قلت بأدب وتواضع، أني مرتاح في وظيفتي.

لحظات من الصمت والترقب... راودتني الخواطر.. سنتان أو ثلاث أعود بعدها إلى عالمي.. تجارة أبي.. على أن أتجنب الحديث عن الحرب الضروس التي تكفل رجالنا.. وتلتهم أعمال الباقين وأحلامهم.. لكن طول الجلسة والود الذي طبع حديث عدي جعلاني أنزلق إلى صراحة كنت

أحسب أنها مهلكة.. قلت له الحقيقة.. أنا لا أهتم بالجيش.. عالمي في دنيا الأعمال.. تقبل ذلك موافقاً: رائع.. رائع، أنا أيضاً رجل أعمال.. أود أن تعرف ذلك.. أنا أحب التجار المستقلين.

مال إلى الخلف.. سحب عدة أنفاس من السيجار وأخذ ينفثها لتحلق في سماء الغرفة الواسعة.. عاود الاعتدال في جلسته.. حلق إلى.. قال بشكل مباغت: لا تحاول أن تجعل الوضع، لا تخفي شيئاً، أنا أعرف كل شيء عنك.. فهمت.. كل شيء.. قال جملة الأخيرة بحدة ظاهرة.. كان قاطعاً كالسكين.. عاودني القلق.. وقفزت الوسائس من جديد إلى مقدم الرأس.. أمر وحدتي.. ضبطها.. نصير بكر وسعد أحمد، حديثهم الدائم عن ملامحنا المتطابقة.. كانوا يتجسسون على.. يراقبون خطوى وكلامي.. كانوا رجال عدى.. زرعهم في طريقي.. هكذا قلت لنفسي عندما حوت جملة القاطعة حول رأسي.

«هل تريد عصير البرتقال؟» أخرجني من لجة أفكاري جاوبته: نعم.. نعم.. من فضلك.. دخل الخادم في سروال حالك السواد تغلوه سترة بيضاء.. ويمائل بياض القفازات التي يرتديها بياض السترة.. جاء يحمل عصير البرتقال في ذات اللحظة التي أجبت فيها بنعم.. ولم ألاحظ أن عدى ضغط بأصبعه جرس أو هاتف يطلب الخادم.. كيف.. لا أعرف.. لكنه أتى لي بعصير طازج.. أعطاني إياه دون أن ينبس.. أو ينظر تجاهي.. هكذا درب خدم السادة.. عليهم أن يتحاشوا النظر إلى مخدومهم أو إلى ضيوفه.

الأوراق التي تغطي حوائط الغرفة تصرخ بالأوان الباستيل.. الأرض مغطاة بسجاد نقوشه غاية في الإتقان.. الأثاث المتناثر متناغم مع الحوائط وسجاد الأرضية.. باقات من الورد النضر يحفل بها المكان..

نخذت رشفة من العصير الطازج.. تلاقت نظراتنا طال الصمت بيننا لحظات.. كان يتأمل ملامحي.. يطالع فيها صورته.. الشعر الأسود الجعد.. العينان البنيتان تكلهما رموش طويلة.. الحاجبان الكثيفان، الرأس البضاوي.

أشعل من جديد سيجار الهافانا.. شاربه الكثيف يغطي شفته العليا.. لم تعد أسنانه البارزة التي عرفناه بها في المدرسة الثانوية واضحة.. حجبها الشارب البالغ الكثافة واللحية الكثية. اللحية والشارب مدخلنا عند السادسة عشرة إلى عالم الرجولة في العراق.. لقد حرمتني العسكرية من لحية مهندمة كنت أنا أيضاً أحرص عليها.. غير مسموح بها.. تعوق قناع الغاز الذي يصاحبنا دائماً.

أردت أن أسأله . كيف كانت دراسته في الهندسة.. بدا لي السؤال في غير موضعه.. لقد تقطعت السبل بينا منذ أن افترقنا بنهاية البكالوريا.. لم أره بعد تخرجنا من المدرسة الثانوية.. لحظات خاطفة كنت أُلح سيارته تتمهل أمام الجامعة لينتقي صاحباته.. يخطف إليهن النظر، ويترك مهمة إحصارهن للحراس.. ياويل من كانت تتجراً على الرفض أو الممانعة.. انحبس السؤال عند سقف الحلق ولم تطاوعني الكلمات فعدت إلى الصمت.. عاد إليّ يخاطبني وابتسامة باهتة تملأ ملامحه: لطيف.. أنا إنسان صريح.. لا أحب المراوغة.. ثم هب واقفياً.. دار في الغرفة بخطوات متمهلة... أسند يسراه على الموقد البارز من الجدار.. قال مباغتاً: أريدك أن تعمل معي.. كان لجملة وقع الصاعقة.. يالعبث الأقدار.. لقد جاهدت كثيراً لأكون بمنأى عنه.. استدرت إلى دراسة القانون عندما أختار

الهندسة.. سنوات طويلة فرقتنا.. الآن يريد أن يقويني إلى قفصه الذهبي.. تسربلت بالصمت علني أهتم المفاجأة.. حاولت أن أتمالك.. أرتب لجواب جملته.. قلت متمهلاً أنني هنا لا أتكلم مع ابن الرئيس.. أتحدث إلى زميل الدراسة.. مع الرجل الذي أبدى إعجابه الواسع بالصورة التي رسمت.. هل تذكر؟.. كنت أحاول أن أنقل بعيداً عن جملته.. قاطعني: نعم.. نعم.. ولكنه عاد إلى السؤال: هل تريد أن تعمل معي؟.

بإمكاننا أن نتكلم بصراحة.. قلت هذا وتوقفت برهة ثم واصلت.. ماذا تريد مني؟..

قال: أريدك أن تكون الفدائي عني.

فدائي؟؟ أي فدائي يريد هذا الرجل.. هوت الكلمة كالطريقة تدق رأسي.. يريدني أن أكون بدلاً يتخفى خلفه.. يريدني عدى آخر..

جاء الجواب أخيراً للسؤالات التي أصابتنني بالحمى.. عرفت الآن معنى المراسم التي استدعيت بها.. الرجل الصامت في مركز الحزب.. المرسيدس التي أقلتني.. سامية القصر التي ولجت إليها.

فدائي.. أي كلمة هذه.. إنها تعني ببساطة أن لطيف أصبح في عداد الموتى.. الآن يوجد عديان.. الأصل والصورة.. الأصل والبديل الذي يدفع إلى مناطق الخطر ليكون كبش فداء.. وكان ذلك معهوداً في عراق صدام.. الناس كلهم يسرفون أن لصدام أكثر من بديل.. أول بديل سقط في عملية قصد بها اغتيال صدام عام 1984.. في منطقة الدجيل خارج بغداد. غامت للصور أمام ناظري.. تداخلت لوحات الغرفة لتصنع لوحة سريالية تصرخ ألوانها المنعكسة على المرأة الكبيرة خلف عدى الأصل فتصيبني بالوار.

تكررت ذلك اليوم الذي فاجأني فيه قائد وحدتي عن فواز العماري.. قال هل تعرفه.. لم أنتبه يومذاك لمعنى السؤال.. من لا يعرف أن فواز العماري هذا هو البديل الأساسي لصدام.. قلت ساعتها أن الرجل لا يعني أكثر من المداعبة.. أو معاودة التلميح للشبه الذي يجمعني وعدي.. جاهدت لأجد جواباً لسؤال عدي.. جواب لا يدفعني إلى التهلكة.. صار جسدي يرجف.. محاولاً كسب الوقت قلت: أنا لا أفهم سؤالك.. هلى على أن أحملك.. أو ماذا تعني؟.

رفع رأسه.. تنفس بعمق.. ألقى سيجاره على المنضدة.. وفتح نراعيه في حركة تمثيلية.. قال: هذا يمثل لك شرفاً.. أن تكون تحت إمرة ابن الرئيس.. قال ذلك بعصبيّة واضحة.. علامات الضيق بتلكوي بانّت واضحة على وجهه.. عاد إلى سيجاره الهافانا.. أخذ عدة أنفاس متلاحقة.. حومت سحببات الدخان حول رأسي.. قلت معلقاً على جملته الأخيرة: ولكننا كلنا أبناء الرئيس.. جملة تعلّمها في دروس السياسة الحزبية.

الآن عليه أن يكون حاسماً.. نحى اللبابة المستنعة جانباً، قال بحدة: هذا لا يفيدك بشيء.. لقد تركناك طويلاً تحت المراقبة.. نحن نعرف كل شيء عنك.. إلى أين تذهب.. مع من تتكلم.. كل شيء عن أهلك نعرفه.. حتى حساباتهم في البنوك نعرف بقائنها.. وبالطبع حسابك أنت.. عليك أن تفهم.. أنا أريدك لأنك المناسب.

سؤال متلعثم تكسر قبل أن يصل إليه: أقدر أن أحملك.. أنا؟!

قاطعني بحدة: ليس المطلوب أن تحميني.. المطلوب أن تعيش دوري، تكون تحت إمرتي.. صورة لي.. حدق في.. نظراته تخرق جسدي.. تصييني بالحمى.. زاده صممتي انفعالاً.. صاح بي: ماذا، أنت لاتريد أن

تكون ابن صدام حسين؟!.. الآن هو يهددني.. لقد صبر على طويلاً..
كانوا في العادة يختارون البديل من العائلة.. ابن العم : ابن العمه..
إلى غير ذلك.. فعلوا هذا لقصى الابن الثاني لصدام.. لكن عدى مختلف..
لم يجدوا له البديل المناسب في العائلة.. وقع اختيارهم على رفيق
دراسته.. على.. أنا لطيف يحيى.. وكان الواجب أن أفرح.. أشعر
بالغبطة لهذا الاختيار.. شرف يطمح الكثيرون أن ينالوه.. لا أن
يدفعهم إلى الهم والكرب.

23 أيلول عام 1987.. يوم المهالك.. هكذا استقر اليقين داخلي..
لامهرب.. دُفِعَ إلى الزاوية.. لا معارضة هكذا أراسوا.. طلباتهم
مقدسة.

في محاولة أخيرة للتملص.. قلت: فخر لي أنك اخترتني لأعمل معك..
لكن لا أستطيع أن أكون غير شخصي.

جرب أن يرتدي قناع الحكمة: خذ وقتك.. ليس عليك أن تقرر على
التو.. صمت للحظات وأضاف: سوف أتركك الآن لتفكر، وعندما أعود أود
أن أسمع الجواب النهائي.. نعم أو لا.

تركني أتمزق وخرج.. القبول يعني التهلكة والرفض أيضاً.. الدقائق
تمر متناقلة.. أقلب الأمر في رأسي علني أجد مخرجاً.. كيف على أن
أحاور هذا العدى الذي لا يعرف غير لغة الأوامر ولا ينتظر غير
الانصياع.. أصاب الشلل رأسي.. تهالكت على المقعد.. حاولت اجتراح
المصاعب التي واجهتها قبلاً.. القرف الذي غرقت في لجته وقت
التدريب في غرفة الصاعقة.. الصراخ والافاعي.. الماء الأسن
والحيوانات النافقة.. غلظة المدرب وفجأته.. تعرضت لمحن
متلاحقة.. لكني الآن أمام المحنة الأعظم.. وبيل الطامة الكبرى..
أتملأ في مجلسي.. التوتر والقلق يدفعاني إلى الجنون.. أردت أن أشعل
سيجارة لكني توقفت.. أقوم وأقعد.. أزرع الغرفة وألتصق بالحائط..

انتبهت بغتة على حارس يمرق إلى الداخل.. يسألني في أدب: هل يريد سيدي شيئاً.. طلبت كوب ماء.. جاء به على التو.. لم ألمسه.. إنصرفت إلى المرأة أطالع صورتني.. الأوساخ تغطي حلتي العسكرية.. وجلدي أيضاً .

قال إنه سيعود بعد عشر دقائق.. مرت ساعة كاملة ولم يأت.. إنها لعبة الانتظار المألوفة.. هكذا يفعلون في غرف التحقيق.. يتركوك تنتظر لتساقط إرادتك.. يحرقك القلق.. يأتون بعد أن تكون قد فقدت القدرة على المقاومة.. نصف ساعة أخرى ثم جاء .. دخل ضاحكاً.. كلماته تسبق خطواته: لماذا أنت قلق يا صديقي.. أبركت أنه كان يراقبني.. من المؤكد أن الغرفة كاميرات خفية جعلتني رهن المراقبة.

قلت متشوقاً للجواب: ماذا لو وافقت؟

قال باسماء: عندها تصبح أخي، تحصل على ما تشاء، كل طلباتك نافذة، سوف تتفتح أمامك حياة واسعة.. كل ممتلكاتي سوف تصبح ممتلكاتك أيضاً.. هل تفهم، سوف تصبح أخي.. قلت: هذا بالتأكيد شيء رائع، ولكني لا أستطيع، أنا ضابط في الجيش، سنوات أعود بعدها إلى حياتي.. كما قلت لك أرغب أن أكون تاجراً.. ما تطلبه أكبر من طاقتي.. أضفت في رجاء: سيدي.. لا أستطيع.. بركان من الغضب يوشك أن يقذف بالحمم.. اندفع تجاه باب الغرفة.. فتحه بقوة ووقف.. استدار إلى.. حاول أن يلجم غضبه.. قال والقرع يطبع ملامحه: هذا ليس بمشكلة.. سنبقى أصدقاء على كل حال.. قال جملته وأغلق خلفه الباب بعنف.. دقائق وعاد الباب للانفتاح.. دخل حارسان.. عزام التكريتي وسلام العوسي.

قبضاً على بقوة أمتني.. مزقاً نجوم رتبتي العسكرية.. دفعاني إلى الخارج معصوب العينين.. إلى سيارة واقفة أدخلاني.. أى سيارة هي

لا أعرف.. لكنني خمنت.. ربما المرسيدس التي أتت بي.. هي بالتأكيد..
أحس نعومة المقعد.. صوت المحرك.. صوت الأبواب وهي تغلق..
وانطلقت السيارة.. لا أعرف كم مر من الوقت أو إلى أين نسير.. حاولت
التوكأ على سمعي بعد أن أفقدتني العصابة نعمة الإبصار.. أحاول أن
أسترجع مشاهد مررنا بها عندما أتينا.. كأن السيارة تدور حول
القصر.. لم أسمع صوت مزلاج البوابة الكبيرة.. لم نعبّر الجدار المكهرب
الذي يحصن مركز صدام.. بالقطع لم نغادر بعد منطقة القصر
الجمهوري.

أخذت في التذكر.. القصر يقع في الجهة الثانية لبغداد جهة الكرخ على
شاطئ دجلة.. كيلومترات عدة تحتلها منطقة القصر.. ويصنع النهر
مانعاً طبيعياً للقصر.. لكن هل قاربنا النهر.. لا أظن.. صوت مياهه
لا تصل مسامعي بعد.. أسمع فقط صوت انسياب السيارة على الطريق..
أسترجع ملامح قصور العائلة الحاكمة التي يمر أمامها الطريق..
أضخمها وأكثرها شموخاً القصر الجمهوري.. قصر صدام.

عندما كنا على الجبهة عرفت أن شركة فرنسية قامت بتجديد
القصر.. زودته بأفخم الأثاث.. زودته بأحدث الأجهزة الأمنية..
حصنته ضد صواريخ الإيرانيين التي كانت تستهدف ساكنه.. للقصر
أربع مداخل رئيسية.. الأول على الجهة الغربية عند الجسر
المعلق.. سموه البوابة العائلية.. يذلف خلالها ركب صدام
والعائلة.. والوزراء وعائلاتهم أيضاً.. لقد دخلت بي المرسيدس في
المرّة الأولى عبر هذه البوابة.. المدخل الثاني عند الجسر الجمهوري
شمال القصر إسمه بوابة بغداد، وكان مخصصاً لأعضاء القيادة القطرية
والقيادة القومية وأعضاء مجلس قيادة الثورة.. وهناك بوابة ثالثة
تصل ما بين الجناحين الشرقي والشمالي.. خصصت لأفراد القصر..
البوابة الرابعة.. إسمها بوابة الأسد.. خصصت لمدير وأعضاء جهاز

الأمن والمخابرات.

المسافة بين البوابات ومبنى القصر 1500 متر على الأقل.. وكانت محكمة إلى درجة تعجز حتى الدبابات على اقتحامها.. الباحة التي حول البوابات وعلى إتساع 900 متر أمام كل بوابة ثبتت قواطع مدببة واسعة القطر.. ترقد في بطونها المسامير الحادة.. تقفز إلى أعلى بلمسة زر يقوم بها حارس المراقبة.. القواطع قادرة على اعتراض أي سيارة ملغومة تحاول الانفلات إلى القصر.. حول القصر ينتشر فضاء واسع يزيد على ثلاثة كيلومترات.. تتعسكر فيه أفواج من الحرس الخاص.. أفضل الفرق وأحسنها تدريباً.. من الفوج الثاني إلى الفوج التاسع.. المباني التي حول القصر أفرغت من شاغليها.. سفارات عدة كانت تحتلها نقلت إلى أماكن أخرى في بغداد.. مستشفى ابن سينا القريب حول إلى مستشفى خاص بأهل القصر.

توقفت السيارة بغتة.. لا أعرف أين.. أمرت بالنزول.. دفعني الحراسان بغلظة أمامهما.. صعدنا بضع درجات.. دلفنا عبر مداخل ضيقة.. في غرف توقفنا.. رفعوا الغطاء عن عيني.. الغرفة بالغة الصغر.. متر ونصف بالكاد.. لا نوافذ فيها.. خاوية تماماً من أي أثاث، حوائطها مدهونة بلون أحمر ناربي.. الأرض أيضاً عليها بساط بلون الحوائط.. السقف بالغ الارتفاع يتدلى منه مصباح مطلي باللون الأحمر.. اصطك باب الزنزانة.. أحكم الحراسان الرتاج من الخارج.. سجين أنا إذن.. أغلقت عياني... ألمني اللون الأحمر.. لون الحوائط والأرض وضوء المصباح.. ألامى تتزايد.. أتكور على البساط.. أقوم وأقعد أنظر إلى السقف البعيد.. رغبت في قضاء الحاجة.. الغرفة خاوية.. ثلاثة أشياء لا رابع لها.. أنا والسجادة ومصباح السقف.. هكذا أرابوا.. ضغطت بيميناي على مثانتني لأمنع الألم..

كم مضى من الوقت وأنا هنا.. لا أعرف.. تعطلت حواسي كلها.. غامت المرائي.. غرقت في اللجة الحمراء التي أغرقوني فيها.. خطوات ثقيلة تروح وتجيء.. الحراس يقطعون الممر.. اسمع صوت المفاتيح تقتحم أقفال الغرفة المجاورة.. عاثر حظ آخر.. ترى هل هو قادم أم مأخوذ إلى الهاوية.. تفوقعت في الزاوية المقابلة للباب الموصد.. تسارعت دقات قلبي.. أسمعها صاحبة تؤلم صدري.. أحكمت إغلاق عيني.. تمنيت أن أحوز في هذه اللحظة مسدساً.. أن أصوبه تجاه الباب.. أضغط باصبعي الزناد.. أفجر القفل الموصد.. أو رأس الحارس إذا جاء.

انفتح الباب وكنت أقبض على الفراغ.. دخل عزام يحمل بيمناه صينية.. تعرفت عليه خلال الضوء الأحمر.. قال في خشونة: كل شيئاً.. ثم استدار عائداً.. أغلق خلفه الباب.. جلست ألتهم الطعام.. كان الطعام شهيراً رغم ردايته.. أكلت بنهم بالغ.. أكلت وأنا مكوم على الأرض.. أكلت في استعجال.. خفت أن يأتي الحارس من جديد ويتنزع مني الصحن قبل أن أنتهي من الطعام.. توالى أيام لا أعرف عندها.. يتمدد الألم داخلي.. يخترق عظام الفخذ والمرفقين.. نار موقدة تتأجج في ظهري.. تصطك أسناني من الألم.. تنسال دموعي من الحرقعة.. اللون الأحمر يعشي بصري.. صوتي يتحشرج حشرجات متقطعة.. جفاني النوم رغم حاجتي له.. تعرفت على رداة الطعام على عكس المرة الأولى.. كل يوم الوجبات ذاتها.. طعام الفداء قطعة خبز وماء.. حبات أرز معجونة في الماء.. الماء قاسم مشترك.. منحوني إياه بأريحية.. أرادوا أن أملاً جوفي وأبول.. أين أيها الضياء.. لوسائتهم لقالوا الغرفة واسعة.. الرغبة والحاجة تقتلاني.. أنساب البول على السجادة اختلط بلونها الأحمر.. رائحته النوشادرية تزكم أنفي.. قلت متأنفاً لن أفعلها ثانية ولو كان في ذلك موتي.. لكنني فعلتها

مرات.. الألم يدفعني إلى الصراخ.. أدق بقبضتي الحوائط الصلدة دقات
مجنونة.. أصرخ برجاء، أتوسل.. بالله عليكم كفى إهانة لشرفي..
أترك أن صرخاتي تقبر في الفضاء الموحش من حولي.. توقفت عن
التوسل فقط صرخات بلا معنى.. دقات تؤلم القبضة والرأس وبطن
القدم.. الرائحة النتنة المنبعثة من فضلاتي تحرق أنفي.. عيناى
الفائمتان المحملقتان إلى الحوائط الحمراء تضبطان خيوط دم قان
مطبوعة.. أصابعي تلامس البقع الجافة.. ربما.. هي لشخص آخر
سبقني إلى هنا يوماً ما.. تنفست الصعداء.. لم أصل إلى هذه الدرجة..
لم أنزف بعد.. لم تتلطح الحوائط بدمي.. أحس رطوبة الأرض بعد أن
فقدت البساط.. صنعت منه غطاءً لفضلاتي التي في الزاوية.

أحاول أن أجمع شتات نفسي.. أحسب الأيام.. استعنت بمرات
الطعام.. 7 قطع من الخبز.. و 7 مرات أرز.. إذن هي سبعة أيام..
سبعة أيام في هذا الجحيم الأحمر المعيق بالنتن.. ثم دق الباب وانفتح..
انتبهت.. ليس وقت قدوم الخبز أو حبات الأرز.. حدثت في المواجهة..
كان عدى.. ضرورته غائمة أمام بصرى.. تعرفت على صوته الأجش
وهو يخاطبني ساخراً: أهلاً لطيف.. كيف حالك هنا.. قالها وانصرف..
عصب الحراس عيني بقوة المقتي وسحبوني إلى الخارج.. عبروا بي
ممرات وغرف متلاحقة.. أحس لسعات شمس أيلول تضرب رأسي..
تنوس قدماتي العاريتان العشب الرطب.. أوقفني الحراس.. نزعوا
العصابة.. الضوء الباهر المنى.. أحرق أهداب عيني.. أحسست النار
في مقلتي.. غطيت بالكفين عيني لأمنع الألم.. من بين فتحات الأصابع
لحتة أمامي.. ينظر إلى في سخريّة.. لا زال اللون الأحمر مطبوعاً
في مقلتي.. العشب أحمر.. كذلك الأشجار وصفحة السماء.. وعدى..
قميصه وسرواله.. وحتى أسنانه البارزة بدت لي حمراء نارية..
انتظر لثوانٍ حتى تعود كفاى إلى موضعهما الأول.. قال وهو يعبث في

شعيرات لحيته: هل فكرت بعرضي؟.. أضاف: من المؤكد أنك غيرت رأيك.. أليس كذلك؟ قال ذلك وهو يعرف ما عانيت.. يثق في وسائل قهر الإرادة التي يستعين بها على تحطيم الآخرين.

قفز الغضب إلى رأسي.. اختلط بالآلم الذي سكن صدقتي تقافزت الكلمات من بين أسناني.. قلت في مواجهته: ضباط الجيش العراقي غير مسموح أن يقبض عليهم نون علم وزير الدفاع.. هذا قانون.. أنا لم أقتل أحداً.. الغضب والانفعال جعلاني أتمادى: لم أُلطخ بالأوساخ عابثك.. يجب على الوزارة.. قاطعني مهتاجاً: يجب ماذا؟ أُلّف ضابط مثلك لا يساوون حدائي.. كلمات التهديد الهادرة تتلاحق: أنا قادر علي أن أطلق كلابي عليك وعلى أخواتك البنات.. إذا أعدت قول ذلك ثانية.. أخواتك البنات هل تفهم.. قال ذلك بصوت صارخ.

أدركت أنني هالك إذا تماييت في المعاندة.. كلابه الشرسة جاهزة للانطلاق سمعت حكايات وحكايات.. كلها شديدة البشاعة.. الكلاب كانت وسيلته للقهر حتى عندما كان لا يزال طالباً في الجامعة.. نهلة ثابت بنت جميلة.. كانت تدرس في أكاديمية الفنون الجميلة.. أرادها فتمنعت.. خطفها حراسه من أمام الجامعة.. قابوها إلى شمال بغداد.. إلى حقل الكلاب المتوحشة.. أول الكلاب كان عدى.. انتبهك عرض نهلة.. مارس عليها ساديته.. ضربها بقسوة بعد كل جماع.. ولما ارتوى.. تركها للكلاب المتوحشة تنهش الجسد البغض بشراسة.



● أشعة الشمس الحادة تلمع.. تخرق زجاج السيارة.. لم يعد الضوء يؤلمني.. عبرت القافلة بوابة العائلات إلى خارج القصر.. لم تتوقف عندها.. اكتفى سائقو السيارات الأربع بتخفيف السرعة ليتعرف الحراس على كنه السيارات.. كانت سيارات عدي.. أدى الحراس التحية للقافلة وأشاروا لها بالمرور.. انحرفت القافلة يساراً.. قطعت بضعة كيلومترات وتوقفت إلى جوار المكتب رقم (7).. واحد من ممتلكات عدي الخاصة، دقت النظر في هيئة سائق السيارة.. متسربل بالصمت.. تحسبه تمثال من الشمع توحد مع عجلة القيادة.. هكذا رأيته عندما أتى بي إلى القصر في المرة الأولى.. وما هو على حاله الآن أيضاً.. نفس السيارة ونفس الحارس.. الجديد هذه المرة أنني جالس بين حارسين.. أحس الخواء داخلي.. جنوة حريق تلسع حناياي.. شعور بالهوان يتمدد داخلي.. الأوساخ العالقة بجسدي والحلة تصيبني بالانكسار، الكابوس الذي عشته طيلة أسبوع كامل لا زال يكتم أنفاسي.. المرائي تتداخل في الرأس.. لم أعد قادراً على الفهم.. هدني التعب والإرهاق.. كل ما أعرفه أنني وافقت على العرض.. بعث نفسي لعدي، الذي تسلفت كراهيته إلى جسدي المنهوك ونفسي المستباحة.. شعور بالانتصار أصابه بالنشوة عندما نطقت بالموافقة.. ضحك بفجاجة سوقية وقال: «انظر.. من الآن أنت لست صديقي فقط.. بل أخي أيضاً»، ياله من شرير.. يعرف أن جملته زائفة.. ويعرف أنني وافقت مرغماً.. ليس بفعل الألم فقط.. وإنما بفعل الخوف أيضاً.. الخوف على عائلتي.. ذلك الوحش قادر على

تدميرها.. يودون بالمئات دون أن تطرف عيونهم.

كراج واسع للسيارات تزحمه السيارات ولا يرى من الشارع.. الخضرة المعتنى بها تتحلق المبني كبساط أخضر.. البوابة الخشبية مزينة بنسر عراقي واضح الضخامة يحمل ألوان العلم العراقي.. الأحمر والأخضر والأسود والأبيض.. تعلو النسر ثلاث نجوم سوداء مصنوعة من السيراميك.. الكاميرات على جانبي البوابة ظاهرة.. البوابة لا تحمل مسمى مالکها.. فقط عتبة زجاجية بداخلها جهاز نداء آلي.

عندما جاورت أقدامنا البوابة أنفتحت إلى الجانبين أوتوماتيكياً، قادت إلى الداخل.. سار بي حارساي في بهو الطابق الأول.. بهو كبير واسع يقود إلى مسبح رخامي.. على يمين المسبح بار حوائطه من الرخام الأسود اللامع، تتخلل سواده بقع بيضاء غير منتظمة.. حول الحمام بضع مقاعد من البامبو عليها وسادات بياضها ناصع.. تحمل زخارف ذهبية.. عدة مفرات تتقاطع على شكل نجمة تصل المسبح بالغرف.. الغرفة التي على اليمين اتخذها عدي مكتباً لإدارة أعماله.. قادني الحارسان إليها.. واسعة ومستطيلة.. حوائطها خلت من الزخرفة وأثاثها بالغ البساطة.. في الزاوية منضدة عليها لوح لامع للكتابة، وإلى جوارها مقعدان لونهما فاتح.

في الخلف إلى جوار المنضدة خزانة محشوة بكتب الأدب العربي.. أجزم داخلي أنه لم يتصفح واحداً من هذه الكتب.. وضعها للزينة.. للمباهاة.. على ظهر المكتب وثائق وقلم حبر كارتييه وقداحة.. وكابل كهربائي أسود.. سميك ومبروم.. يصل طوله إلى ثلاثة أرباع المتر.. أريكة واسعة كافية لجلوس أكثر من عشرين شخصاً، أمامها طاولة جلدية.. على الطاولة إناء زهور من الحجر الأسود.. لفائف تبغ.. قطع من الحلوى.. أطباق لوز وجوز متناثرة على الطاولة.

كان الثلاثة ينتظرون في الغرفة.. يعرفون أنني قادم:

منعم حمد التكريتي مدير المتابعة السرية الخاص.. نحيل.. أطول مني قليلاً.. رمادى الصدغين.. حياني بلطف.. أراه للمرة الأولى.

الثاني أعرفه ككل أهل العراق.. زياد حسن هاشم الناصري صديق صدام، وصهر روكان حارس الرئيس الخاص.. زياد حسن هاشم الناصري، عيون رمادية ووجه حاد.. أنف مقوس مثل أنف النسر.. الرجل قاس في برود.. قاتل بالجملة.. متوحش.. شارك في تنفيذ معظم الإعدامات التي أمر بها صدام.

الرجل الثالث.. سعدي دحام هزاع الناصري.. ابن عم لصدام حسين في مقتبل العمر، تعلم ملامحه علامات الذكاء.. لكنه غير وود..

تولى عزام حارس عدى تقديمي للضباط الثلاثة.. خاطبني منعم.. قال بود: إجلس.. استرح.. لقد كلمنا عدى عنك.. قال إنك محارب شجاع.. إنني مسرور أنك أتيت من تلقاء نفسك.. من تلقاء نفسي؟! أى استهزاء هذا يارجل.. قلت ذلك لنفسى.. مد الرجل خيوط الود.. عباراته المنمقة تسعى لتهدئة خواطري.. عاملني معاملة رفيق رحلة صعبة تلوح في الأفق.. أسرنتني مودته، قلت لنفسى: هذا أول ضابط عراقي لا تلوح عليه علامات الجنون، لا يلزمه الغرور، مبال بالآخرين.. يتكلم بهدوء.. ينطق العربية السليمة.. لاحظ علامات ارتياحي لحديثه.

عليك أن تتعود.. لطيف قال ذلك رابئاً على كتفي في حنو.. حرك الضابطان الآخران رأسيهما علامة الموافقة.. سرنا جميعاً نتبع منعم.. قال موجهاً الخطاب إلى: تعرفان بعضكما منذ وقت الدراسة.. أليس كذلك؟.. أجبته بنعم.. أشار إلى المسبح الأزرق.. قال لي: تستطيع استعماله في أي وقت يحلو لك.. أشار لي إلى غرفة اللباس والمناشف.

وراء البار بعض غرف مفتوحة بها كبائن تحوي سلال تحفل بالمناشف النظيفة السميكة، بوش وتواليت ومغسلة ومراة كبيرة.. إجتاحتني على الفور رغبة عارمة واسعة.. قال إنها لنوم الضيوف.. دخلناها.. سرير

واسع من طراز فرنسي مزيج يفتشه غطاء مطرز متناغم مع الستائر.. إلى جواره خزانة للملابس.. مكتبة ومقعد جلدي وجهاز تليفزيون سوني.. إلى جوار الغرفة درج يؤدي إلى الطابق الأول.. تجاوزناه إلى غرفة واسعة.. قال منعم ضاحكاً: هذه غرفة عدي.. الآن هي لك يا لطيف.. هذا ما أمر به عدي.. قال هي الآن لأخي لطيف.

تبدو الغرفة ممائلة في اتساعها لغرفة نوم الضيوف.. لكن الفراش أكثر اتساعاً.. إلى جواره طاولة مستديرة تتحلقها عدة مقاعد.. جهاز فيديو إلى جوار التليفزيون الكبير.. على الطاولة جهاز تليفون.. ملحق بالغرفة بهو واسع تتناثر فيه أنواع مختلفة الأشكال والأحجام من قطع الأثاث.

صعدنا إلى الطابق الأول.. واجهتنا صالة واسعة للاحتفالات ازدحمت جنباتها بمقاعد للمشاهدة صفت في مواجهة مسرح كبير مجهز بالآلات صوتية.. الحوائط مدهونة بلون أحمر قان.. الأحمر ثانية.. قفزت آلام الزنزانة التي خلفتها ورأني إلى رأسي.. الرغبة في النقيض غشتني.. حاولت المقاومة.. استدرت على عقبي منفلاً من الصالة الحمراء.

لحق بي منعم وقال ملاحظاً: لطيف.. تحتاج الآن إلى قليل من الراحة.. اذهب أولاً لتغتسل.. رافقتني إلى غرفة نوم عدي.. غرفتي.. تركت وحيداً.. بلا رفاق.. بلا حراس.. ألقيت بجسدي على السرير.. انتابني نوبة من ضحك متواصل.. نهضت من رقدي.. مشيت إلى الباب.. جذبت مقود الستائر.. تلفت إلى اليمين وإلى اليسار عبر النافذة.. لأحد قرب المسيح.. لكنني أشعر بأنفاسهم تلفحني.. أدرك أن هناك عيوناً ماثلة في مكان ما بالغرفة.. تراقبني.. تعريني.. وربما عدي ذاته.. جالس هناك في واحدة من الغرف يتسلى برؤيتي عبر شاشة المراقبة.

حدقت إلى الهاتف الرائد على المنضدة.. راودتني رغبة جامحة أن أتناول السماعة.. أدق أرقام منزلنا.. خطفتها.. ألقيتها.. وعدت

لاختطافها ثم ألقيتها من جديد.. مرات عدة قاومت الخوف والحذر.. ضغطت الأزرار.. تسعة، ثلاثة أصفار.. أسمع الأزيز القادم من الجانب الآخر.. الخط مشغول.. محاولات عدة.. لكنها عاثرة.. تيقنت من اللعبة.. الجهاز لا يعمل.. أي حماقة.. وعلى الأذيق أي سذاجة صورت لي أن الأمر طبيعي.. أن يتركوا لي هكذا بسهولة وسيلة اتصال مع العالم الآخر.. لازلت أسيرهم.. محاولات الود ليست سوى قشرة تخفوا وراها لكسر إرادتي.. المناوبة بين العنف والهواة أشهر الوسائل التي يتبعها الطغاة من أمثالهم للترويض.. واجهت المرأة المنصوبة على الجدار.. تأملت ملامحي.. لحيتي التي استطالت.. خاطبت نفسي بصوت مسموع: هذا لطيف يحيي إذن.. ضابط الجيش العراقي..

دلفت إلى الحمام.. أطلقت الماء الساخن على جسدي.. تنفقت الأوساخ الملتصقة بالجلد خيوطاً سوداء تتلامس تحت قدمي.. دوائر من التراب تفرق في البالوعة.. أتمدد في البانيو الواسع.. أسكب الشامبو بغزارة.. أدلك الجلد بالرغوات.. تمنيت أن أبقى غاطساً في الماء سبعة أيام.. في مقابل السبعة التي قضيتها في الأوساخ.

سحبت المنشفة المعطرة.. جففت البلل.. واستنمت أمام المرأة.. غسلت أسناني بالمعجون.. هذبت شعر الرأس واللحية.. دهنت شعري وصففته.. وعدت إلى الفراش منتشياً.. غرقت في نوم عميق حتى صباح اليوم التالي.

نسمات الصباح الباكر جعلتني أستيقظ.. حدثت في التقويم المعلق على الحائط.. اليوم أول تشرين الأول 1987.. أدبرت ناظري في الغرفة.. حلتي القذرة وملابسي الداخلية ألقيتهم بالأمس هناك عند الطاولة.. وكذلك الحذاء العسكري.. كلها اختفت.. جاؤوا وأخذوها.. قمت عارياً إلى الخزانة.. إلى جوارها وفوق مقعد صفوا لي ما أرتيه. ملابس

داخلية.. قميص ناصع البياض وحلة فاتحة ومعطف.. وهذا أسود لامع.. على الطاولة طعام معد للإفطار.. جلست إلى المائدة.. أكلت بنهم.. واحتسيت كوباً من الشاي الساخن.. إرتديت ملابسني وانتظرت.. جاؤوا عند التاسعة، أخذوني إلى مكتب عدى.. أعطاني منعم حمداً مكتوباً من صفحتين وقال: إقرأ بتمعن ثم وقع.. جلست على الأريكة الصفراء وقرأت: عقد بين الحكومة العراقية والملازم أول لطيف يحيى:

— أنا، لطيف يحيى، ملازم أول، أقسم بأنني لن أبوح بأي شيء عن حياة عدى صدام حسين إلى أي أحد.. كل ما أسمعته خلال تعاملني معه، أراه وأعيشه في تلاميذا سوف يكون في طي الكتمان. وأن أحرص على الوثائق والصور وشرائط التسجيل الصوتية والمرئية والمخطوطات، وأتعهد أن لا تصل إلى شخص ثالث وأي نقض لهذا العقد عقابه الإعدام..

لطيف يحيى، بغداد في 2/10/1987

ألقيت القلم جانباً بعد أن وقعت.. جلست صامتاً.. وهم كذلك.. قطع الصمت الطويل لمنعم حمداً.. قال ناصحاً: أنت الآن عدى صدام حسين.. ابن الرئيس، لا تتكلم مع أحد من الخدم، حاول ألا تحتك بهم قدر استطاعتك.

عشرة أيام قضيتها رهن الراحة.. بين الغرفة والحمام.. أنكرت كلمات منعم حمداً في كل لحظة.. أتجنب الخدم.. وهم أيضاً.. الطاهي والخادمت الأربع يوفرون حاجاتي بون طلب.. الطعام.. الملابس.. كل شيء.. أمد يدي وأتناول ما أشتهي.. نظرات الخدم متجهة دائماً إلى

الأرض.. لا ينبسون بكلمة.. كالأشباح يروحون ويجيئون في خفة..
إنها الجنة.. قفص ذهبي أنور فيه.. أحب الشراب وألهم الطعام
وأتمدد.. لا يزعجني سوى الوحدة.

العجز عن الاتصال.. أرغب أن أهاتف أهلي.. الجهاز قطعة ديكور..
أسابيع ثلاثة افتقدت فيها أبي وأخوتي.. أعزى نفسي بأنهم يعتقدون أنني
هناك.. على الجبهة.. الحرب تمنع الاتصال.. لكن ليس الحنين ورمده الذي
يجعلني أرغب في الاتصال.. تجتاحني الرغبة في الحكى.. أود أن أحكي
لهم ما أنا فيه من نعيم.. أصف لهم تفاصيل الجنة.. قصصي الذهبي.

يومي موزع بين المسيح والغرفة.. أغوص في الماء جلة النهار.. وأقضي
من الليل نصفه الأول أتابع التلفاز.. إلى جانب الفراش بضعة كؤوس..
جن وكونياك.. أنقص شخص عدى.. أشير إلى الخدم فيهرولون.. في
البداية كنت أختتم النداء بكلمة «رجاءاً وشكراً» لكن كلما تقصصت الدور أكثر
ملت أكثر إلى العنت مع الخدم.. «لا.. كثيراً من الثلج».. أصرخ في وجه
الخادمة «لقد قلت لك ذلك أكثر من مائة مرة» تعتذر في أدب وتهزل
لتصحح الخطأ..

أحب من النعيم المتاح لي حتى الثمالة.. أتمشى في البهو.. أدلف الى
كل الغرف.. أبدل ملابس في مرات عديدة في اليوم الواحد.. أتألق كئني
ذاهب إلى احتفال.. هذا العطر نفاذ.. هذا الثاني أطيب.. بين الراحتين
وتحت الأبط وعلى صفحة الوجه.. يفوح العطر مني.. يفيض إلى الفراغ
الذي أنور فيه وحيداً.

اليوم 12 تشرين أول، بعد الظهر بقليل، دق الهاتف فجأة وأنا مستلق
على الفراش.. أمسكت السماعة.. ألصقتها على أذني.. جاعى صوت
عدى.. قال أمراً: احضر إلى مكنتي..

إرتديت ملابس على عجل وهرولت إليه.. كان هناك في غرفة المكتب
الواسعة وإلى جواره منعم حمد.. وآخران.. بدت لي ملامحهم غير
عربية.. أولهم أطول مني قليلاً، شعر بني ووجه مستدير.. ملامحه باهته..
الثاني أقصر، عريض المنكبين، لا يميل إلى السمرة.

أقبل إلى عدى.. حيائي في مودة ظاهرة.. قبلني في وجنتي قبله
حارة.. قبله أخوية.. قدمني إليهما.. صافحاني.. قال أنهم أطباء
أخصائيون.. سيفحصونك.

أندهشت قليلاً.. سليم البنية أنا.. هكذا قلت لنفسي.. ولكن لم لا.. أجبت
على الفور: حسناً، أين يريدون ذلك، هنا.. وافقني: أجل .. عقب منعم:
هذا فحص روتيني، لا شيء خاص، بإمكانك أن تكون مرتاحاً تماماً..
قال أحدهما شيئاً ما بلغة لا أعرفها.. ربما الروسية أو البولونية.. نقل
منعم إلى العربية جملة الرجل: إنزع ثيابك رجاء..

أتعري.. لم يكن ذلك مريحاً.. لكن وجب على أن أفعل.. وقفت على
الميزان.. وأمام مقياس الطول.. حقق أحدهم في مقلتي وتطلع الآخر إلى
أسناني وسقف الحلق.. الأذنين ومنابت الشعر.. دقوا الركبتين وتصنتوا
على دقات القلب.. راقبوا الضغط.. طلبوا بولي وأخذوا قليلاً من الدم..
ساعتان خضعت أعضائي جميعها خلالهما للتدقيق.. طلبوا أن أتكلم..
على تودة وعلى عجل.. أصرخ.. أضحك.. أنوح.. طلبوا كل الأصوات..
سجلوها كلها على الكاسيت.. تبادل الطبيبان بعض الكلمات بلفتهم..
إستعنت بمنعم لأفهم لكنه اكتفى بالابتسام.. كان عدى قد غادرنا مبكراً..
قال وهو منصرف بعد الدقائق الأولى من بداية الفحص: سأطلع على
النتائج فيما بعد ياسادة.

في اليوم الثاني جلسنا في مكتب عدى.. منعم حمد يقرأ نتائج الفحص

علينا.. لون الجلد يطابق لون جلد عدى بنسبة 99 ٪، شكل الوجه، الشعر، الأنف، الأذن، الهيكل العام للجسم.. نسبة المطابقة عالية.. الطول أقل ثلاثة سنتيمترات.. الوزن 81 كيلوجرام.. أقل باثنتين.. علق منعم: الطول ليس مشكلة.. يراعى ذلك بأخذية خاصة.. والوزن أيضا له حل.. ملامح عدى منفرجة تعلوها البهجة وعلامات الرضا.

يواصل منعم حمد: الصوت مطابق مائة بالمائة.. يتجاهل منعم شيئا يعرفه ثلاثتنا.. عدى لا ينطق الرء جيدا.. أسنانه البارزة تتاكل بسببها الكلمات.. تساعل عدى: هل الأسنان قابلة للإصلاح.. هز منعم رأسه موافقا.

العينان أضيق قليلا.. أوضح منعم: الماكياج يعوض هذا.. وأضاف وكأنه يعتذر لي: فقط أسنانك.. يجب أن تتغير هيئتها.. هل أنت موافق؟ قلت: طبعا.. طبعا.

المعارضة داخلي انسحقت.. أجبت بالموافقة على التو.. لم أعد أملك خيارات..

أخذت في اليوم التالي إلى مستشفى ابن سينا عند مشارف القصر.. مستشفى صدام حسين والعائلة.. أخنوني إلى مكتب الطبيب أحمد السامرائي الذي تخصص في طب الأسنان في الولايات المتحدة الأمريكية.. عاد ليكون طبيب العائلة الخاص.

تمددت على المقعد المتحرك.. تفحص الطبيب أسناني واحدة واحدة ثم أرسلني إلى قسم الأشعة.. وطلب أن أعاود في اليوم التالي.

في الزيارة الثانية أدخل في فمي كتلة من مادة رخوة.. زهرية اللون.. أخذت تنتنفش.. أخرجها ثم أدخلها ثانية.. ثم أخرجها بعد أن اطمأن أنها شكلت قالباً لهيئة أسناني.. يستعين به ليقارن بينها وبين أسنان عدى.

بعدها بأربعة أيام عدت إليه من جديد.. هذه المرة لإجراء عملية جراحية.. أزال بالة خاصة أسناني الامامية.. صنع قالباً جديداً.. أزعجني الهواء البارد الذي أخذ يدفعه إلى فمي.. يومين حرمت من الطعام فيهما.. سوائل فقط..

جلست من جديد إلى الكرسي المتحرك.. دقائق قليلة ونجح الطبيب في تثبيت الأسنان الأربعة الجديدة.. الطبيبان الأجنيان اللذان غلقت علي لفتهما وقفا من حوله يراقبان النتيجة.. بدا الارتياح على ثلاثتهم.. أمرني الطبيب أحمد أن أعض على أسناني.. طالبني أن أتكلم..

لمست الأسنان الجديدة بلساني.. أحسست بروزها.. غريبة مخارج الألفاظ بدت عند الكلام.. في المرأة لاحظت ارتفاع شفتي العليا.. تغيرت هيئة الفك وحركته.. صرت عدى آخر.. سرُ عدى الأصل من النتيجة.. قال بعصبية: يجب علينا الآن أن نبدأ التمارين فوراً.. كررت قوله بنفس الطريقة التي يكسر بها الألفاظ: «س..س..س.. سنبدأ التمايين».

في الصباح جلست منتصباً على المقعد.. المزين يقص شعر الرأس.. يقصه كقصه عدى.. ويضع لي ذقناً كذقنه.. ولا انتهى.. رافقتهم إلى المبنى الرئيسي للمخابرات.. صعدنا إلى الطابق الثاني.. دخلنا الغرفة التي سيتم فيها التدريب.. كانت واسعة.. عند الحائط على يمين المكتب خزانه خاوية من الكتب.. تشغيل شاشات تلفزيونية أكبر قليلاً من العادية إلى جانبها أجهزة فيديو.. أمام الخزانه طاولة صغيرة تناثرت عليها أشربة.. في وسط الحجرة صفت مقاعد بطريقة منتظمة للمشاهدة.. الستائر تغطي النوافذ.. مكبرات صوت متباينة في الزوايا.. الغرفة مهيئة لتكون استوديو تسجيل.. لوحة هائلة تبرز منها مئات الأزرار.. حمراء، صفراء وبيضاء.. أمسك بمنع يدي وقال موضحاً: هنا سوف نقضي

الأسابيع القادمة.. قال ذلك ثم استدار.. وقف في ركن قصي يتبادل مع أحد الضباط الحديث بصوت غير مسموع لبقائهم ثم خرجا معاً.
مدت يدي وتناولت واحداً من الأشرطة.. الشريط يحمل عنوان المحتوى:
26 أيار 1987 - السيد عدى صدام حسين في التجمع الرئيسي لرابطة
الرياضة العراقية - تسجيلات مصورة عن قرب.. أيد.. وجه.. طريقة
سيره.

عاد منعم يرافقه ضابط قدمه إليّ.. قال اسمه بعجلة فلم يثبت في ذاكرتي.. الضابط واضح الطول.. له بشرة غامقة وشاربان عريضان.. عيناه بنيتان.. بدت لي عينه اليسرى أكبر من اليمنى.. صافحني برقة لا تتناسب هيئته.. بطريقة ناعمة رجاني أن أتبعه.. سرنا معا إلى غرفة أخرى في الطابق الأول مشابهة لغرفة استوديو الطابق الثاني.. قال موضعاً: عليك الآن أن تجلس وتنتبه إلى ما سوف تراه.
أدار جهاز الفيديو.. نقاط سوداء تتراقص على الشاشة لثوان قليلة.. ثم امتلأت الشاشة بصورة رجل في الثلاثين من العمر.. حليق الرأس.. تلمع فروته وكذلك النقن.. الجسم مشدود، موثوق على كرسي خشبي مثبت في الأرض بالمسامير.. يزعم الرجل من الألم.. تطلعت إليه.. حدثت في الوجه الشاحب.. العينين المغمضتين والوجنتين الفائرتين.. ملت برأسي إلى مرافقي محاولاً السؤال فأشار إلى الشاشة.. فهمت الإشارة.. على أن أشاهد.. أشاهد دون أن أسأل.. على الإنتباه للمشاهد المتلاحقة.. يقبض الرجل على الكرسي بكليتي يديه.. تكاد شرايينه أن تقفز من الألم.. عظام القفص الصدري شديدة البروز.. شعر الصدر الطويل متقل بملاقط حديدية.. ملاقط أخرى مفروزة في أماكن متفرقة.. في الحواجب الحليقة.. في الأنين.. وحتى في عضو ذكوره.. الملاقط موصولة بكابلات من

البلاستيك قادمة من بطارية ضخمة.. بطارية كهرباء.. ألمح رجل جالس في الركن إلى جوار البطارية.. يدوس على زر.. تنتفض الكابلات الحمراء والسوداء.. تركز الكاميرا على الرجل.. رجل الكهرباء الضابط على الزر.. يدان كبيرتان يغطيهما شعر كثيف.. تعلوهما القذارة.. تتابع الكاميرا ضغطاته على الزر.. ثم تنفلت إلى الجالس مصلوباً على المقعد الخشبي.. تتوقف وتتابع صعقات الكهرباء.. يتأوه الرجل.. يتلوى.. يحاول أن ينفلت من الوثاق المشدود.. يصرخ الألم في الوجه والصدر وتحت الإبطين.. تصطك الأسنان.. تنفرس الأظافر في خشب الكرسي.. الرغوات البيضاء تنسال خارجة من بين الأسنان.

الوجه يملأ الشاشة.. العينان الغائرتان المطبقتان يزداد انطباقهما.. يمنعان الحنكتين من الانفلات.. والدم من التدفق.. عظام الأنف والوجنتين، ومؤخرة الفك تجسد كلها معاً صورة المفاناة والمكابدة.. يفقد الرجل ما تبقى له من بقايا قدرة على المقاومة.. يهز رأسه إلى اليمين وإلى اليسار.. يفتح فمه ويصرخ.. صرخات تصم أننى.. رغم أن الجهاز ييث صورة بدون صوت.. تنسال ألام الرجل.. تقفز من الشاشة الفضية.. تحوم في فراغ الغرفة.. تصطدم بالجدران.. تتلوى في الفراغ.. تحلق حول رأسي.. تندفع إلى أننى.. تجري داخلي.. أشارك الرجل ألامه.. أصرخ في صوت مكتوم.. وتأتي النهاية.. نقاط سوداء تغطي الشاشة من جديد.. تتراقص لتعلن الختام.. الضابط يتأملني.. يراقب ملامحي.. أنقبه.. أرسم على وجهي علامات اللامبالاة.

يفخر الضابط أنه ورفاقه يتلقون التدريبات على فنون التعذيب على أيدي خبراء من المخابرات السوفياتية والألمانية الشرقية.. نعم.. أعرف أن علاقات وثيقة تشدنا إليهم.. أكثر من عشرة آلاف خبير عسكري سوفيتي

يوجدون في جيش العراق.. يعملون علي أجهزة الكمبيوتر في مراكز الصوايخ والقاذفات.. يشرفون على تدريب جيشنا على السلاح القادم من بلادهم.. الألمان الشرقيون يشاركون في مهام حساسة.. ماهرون في أعمال التجسس اللاسلكي والهاتفي بشكل خاص.. ليس سرا أن بغداد تجلب الخبراء من بلدان كثيرة.. على الأخص البلاد التي تدور في فلك موسكو.. كوبا.. أنجولا.. وبلاد أخرى.

تدور الآلة من جديد:

تعس آخر يملأ الشاشة.. يبدو أكثر تماسكا.. تساعد هيبته الرياضية.. يحاول أن يتجنب الانحناء.. عار حتى الخصر ومقيد أيضا إلى الكرسي.. ينظر إلى الأرض كأنه يتجنب الكاميرا المسلحة تجاهه.. يتدلى من نصفه الأسفل سروال أخضر.. يرفع رأسه فجأة ويحدق.. ربما أمره بذلك.. عيناه الواسعتان تحجرت بقايا دموع على أهدابهما.. قال الضابط:.. كان شرطياً.. لم يطع الأوامر.. أي أوامر؟!.. لا يعرف أو لا يفصح.. عشرات بل مئات يلقون الموت بتهمة عصيان الأوامر.. أصبح الموت مهمة روتينية.. تستدير كاميرا المصور إلى الظهر.. خطوط زرقاء تتشابك ترسم ملامح الألم.. قطرات دم جاف.. جروح متقيحة صفراء.. الصورة تتغير.. رجل كثور هائج.. يلوح بكابل.. يهوي بالضرب على الظهر المتقيح.. أغلق عيني.. أقاوم القىء المتقافز في حلقي.. مثل هذا الكابل كان.. أحاول أن أتذكر.. نعم.. رأيته ممدداً على مكتبه.. على مكتب عدى.. كابل أسود لامع مفتول.. كل كوابلهم متشابهة.. أحكم أغلاق العينين.. أصم الأذنين.. لكن رائحة القيح المتفجر تندفع إلى أنفي.. تنساب إلى رأسي.. تختلط بركام القانورات.. نتن الزنزانة.. بقايا بولي.. فضلاتي.. مئات الامتار من الماء الساخن وأجود أنواع الشامبو فشلت.. غسelt الجلد

فقط.. تسلل القذر إلى الداخل.. تحوصل في رأسي.. عادت القانورات لتفيض مع ضربات الكرياج على الشاشة.. تفجرت كنفط احتبس طويلا في بطن الأرض.. لم أضرب في الزنزانة.. لماذا لا أعرف؟! خافوا.. قطعاً لا.. ربما فعلوا لو كنت تمايت.. رفضت العرض.. أو أن الحاجة لي جعلتهم أكثر حرصاً.

العرض الثالث:

الآن على الشاشة رجلان.. مكبلان بالجنائزير وسط ساحة عسكرية.. معسكر الرشيد على مايبدو.. منصة إعدام منصوبة.. يقاد إليها الرجلان.. تشد الجبال على الرقبة.. يتأرجح الجثمان المشنوق.. وتتوالى العروض..

الشريط الرابع:

رجل عار أوقفوه منفرج الرجلين تحته زجاجة خمر فارغة.. يأمر بالجلوس على رأسها المستطيل.. تتابع الكاميرا إختفاء الزجاجة في دبر الرجل.. يصرخ مستغيثاً.. تتعالى الضحكات من حوله.. والنكات أيضاً.. الشبق يطو ملامحهم عندما تنسال خيوط الدم من دبر الرجل.. تجتاحهم السعادة عندما يفشى عليه.

الشريط الخامس:

رجل عار أوقفوه على مدفأة الغاز.. ثم أججوا اللهب.. الجلد يحترق.. يتقافز الرجل صارخاً.

الشريط السادس:

مروحة مثبتة في زاوية مشدود إليها رجل من القدمين.. رأسه مدلى إلى أسفل.. تدور المروحة بالرجل بورات متعاقبة.. ضربات بمطرقة خشبية تلاحق رأسه.

الشريط السابع:

التعذيب بالحرق.. تمتد النار.. تاكل شعر الرأس.. الحواجب.. النقن والشوارب.

الشريط الثامن:

سجين أحكم وثاق يديه حول سخان كهربائي.. يلتهب الجلد والعروق
وتحترق الأظافر.

الشريط التاسع:

الكي بالنار.. بسبخ متوهج الى درجة الاحمرار.. تكوى به اليدين
والرجلين والظهر.

الشريط العاشر:

الحفر على الايدي والارجل بمثقاب الكهرباء..

الشريط الحادي عشر:

تكسير عظام الأنف بمطرقة.

الشريط الثاني عشر:

كسر الفك.

الشريط الثالث عشر:

رجل موثوق إلى كرسي من الحديد.. تنزع أظافره بالكماشة.

الشريط الرابع عشر:

الشريط الخامس عشر:

بتر الأطراف بالمنشار الكهربائي.. وأحياناً بالفأس.

الشريط السادس عشر:

نفخ الدبر بالمنفاخ.

الشريط السابع عشر:

ربط اليدين من الخلف إلى آلة تتحرك صعوداً وهبوطاً.. لتتكسر عظام
الكتفين.

الشريط الثامن عشر:

رجل يجلس موثقاً والماء يندفع من صنوبر على رأسه.. لساعات حتى
يفقد وعيه.

الشريط الثامن عشر:

الحبس في بئر مملوء بالأوساخ لأيام.

الشريط التاسع عشر:

الضرب بعصى غليظة على الرأس وبين الساقين.

الشريط العشرون:

عصب العينين والتوقيف في غرفة خالية.. وأصوات المكبرات تصرخ في الأذنين..

الشريط الواحد والعشرون:

الوقوف الى الحائط.. الرأس محشور بين لوحين من الخشب ثبتت فيهما الأذنين بالمسامير.. يجاهد السجين ليبقى واقفاً وإلا تمزقت أذنيه لو حل به تعب يدفعه إلى الجلوس..

الشريط رقم 22:

قيد السجناء في غرفة محكمة الإغلاق.. لا يدخلها الهواء.. ترتفع درجة الحرارة فيها الى ما فوق الخمسين درجة.

الشريط 23: حفر الأضراس وخلع الأسنان بلا تخدير.

الشريط 24: إدخال المسامير بين اللحم والأظافر.

الشريط 25: رش المواد الحمضية على الجسد.

الشريط 26: إلقاء جثث القتلى في غرف المسجونين.

الشريط 27: ادخال الكلاب الشرسة على المسجون وإحكام الزنزانة

الشريط 28: سد الأنف لأسابيع والإجبار على التنفس من الفم.

الشريط 29: خدش اللسان بالمسامير..

الشريط 30: صب الزيت المغلي على الأطراف..

الشريط 31: رش العيون بمبيد الحشرات.

الشريط 32: تعليق النساء من شعر الرأس وإجبار الأزواج والأطفال على المشاهدة..

الشريط 33: الاغتصاب أمام الأزواج.

الشريط 34: تعلق المرأة أثناء دورتها الشهرية من رجليها وتبقى معلقة إلى أن تنتهي الدورة..

الشريط 35: أطفال مسجونون عراة في غرفة ونحل ينطلق من خلية يسعهم.. وإجبار الأهل على الفرجة..

ضبط الضابط على الزر وتوقفت العروض.. هل وصلت محاضرة الرعب إلى نهايتها؟! نظراته المتلصصة تنقب ظهري.. تلهب أنفاسه الحارقة قفاي.. استدرت إليه.. إلتقت نظراتنا.. عيناى متحجرتان.. عزمت على التماسك.. إظهار اللامبالاة.. أنا ضابط في الجيش العراقي، ممتاز بلقب ملازم أول، منحت هذه الرتبة لكفاتي، جهودي الخاصة ضد العدو.. لقد تخيلنا العذاب.. تعرضنا لبعضه ونحن على الجبهة.. لكن لم أكن أتخيل أن هناك بشراً بكل هذه الوحشية.. يعذبون بشر مثلهم بكل هذه القسوة..

الضابط يبتسم بسخرية.. أحس بالاشمئزاز تجاهه.. حيوان.. ينفذ الأوامر بطواعية.. يستمتع بقهر الإرادة.. يعشق الدم.. ماذا جال بخاطر عدى عندما أمر لي بمحاضرة الرعب والخسة هذه..؟! لا أعرف.. اختلطت الرؤى أمامي.

الضابط يواصل العروض.. يفصلون العضو التناسلي لرجل بمنشار كهربائي.. يتدفق الدم.. هذا مزج.. خسة بالغة.. يقذفون في العرض التالي برجلين إلى الماء.. تلاحقهما الضربات.. يزق رجل من الألم.. تتدلى ذراعه المقطوعة إلى جانبه.. كماشة حديدية تضغط على الرأس.. تتكسر عظام الجمجمة.. ينسال سائل الدماغ.

يعينني الضابط إلى غرفة الفيديو الأولى.. يسألني منعم حمد إذا كان كل شيء معي يسير على ما يرام.. أكتب.. أهز رأسي: نعم، ولماذا لا يكون كل شيء على ما يرام؟! إني فعلاً بخير.. أود أن أعرف.. ماذا بعد. منعم يشرح بطريقته الهادئة اللبقة كيف ستتابع.. لا يستخدم يديه وهو يشرح.. يقول ما يريد مباشرة.. يقوله بلا مداورة.. منعم حمد.. ليس شرقي الطباع.. هو أقرب إلى الانجليز.. بعضاً من بقاياهم.. خلفها استعمارهم الطويل للعراق.

«مجموعة أشربة عن عدي صدام حسين».. أشار إلى حزمة مصفوفة فوق الطاولة.. أضاف: شاهداً بانتباه.. لاحظ كل صغيرة وكبيرة، وقلد عدي كئلك ببغاء.. بالقذارتهم.. وبالهوانى.. الآن أنا مجرد ببغاء.. يضغط منعم الزر..

ويدور الشريط الأول:

26 أيار 1987، عدي يظهر في تجمع للجنة الرياضية فرع كرة القدم، عدي يجلس الى طاولة المفاوضات وسط ستة أشخاص - أعضاء فريق كرة القدم العراقي.. هو رئيس اللجنة.. لماذا إختار لنفسه ذلك.. وهو غير رياضي بالمرّة.. الشيطان وحده يعرف.. منصب شرفي.. وظيفة للتباهي.. كل العائلة وزع على أفرادها صدام وظانف.. ليسوا أهلاً لها.. مجرد شكليات.. يصنعون هياكل يتخفى خلفها أفراد العصابة.. وشائج واهية للظهور أمام الشعب.. وكرة القدم لعبة شعبية.. عدي يتفضل بحضور مباريات كثيرة.. يجلس في منصة الشرف وحوله المريدون والأتباع..

على طاولة الاجتماع توزعت زجاجات الشراب ومناقض السجائر.. عدي يبدو أصغر المجتمعين.. جالس في استرخاء.. الآخرون مشدودي الظهر إلى كراسيهم.. يتحدث واحد منهم عن تمويل مطلوب لأحد نوادي

كرة القدم.. أراقب الرجل لبعض الوقت، أنصرف عنه إلى مراقبة عدى..
ألاحظ أناقته المفرطة.. حلة قطنية فاتحة، قميص أبيض وربطة عنق
ملونة.. تتناسب معها «محزمة الجيب»، سحابات متقطعة من بخان
سيجاره الهافانا تدور حول المجتمعين.

يأمرني منعم أن أجلس مقلداً جلسة عدى.. أن ألف يسراي على يمناي
كما يفعل.. أفعل هذا بسهولة.. كنا نقلده وهو يمارس هذه العادة عندما
كان معنا في المدرسة.. كنا نفعل ذلك خفية.. الآن أفعل ذلك مأموراً..
العيون تتابعني.. أجلس باسترخاء.. يمناي على ذراع المقعد.. ويسراي
كما لو كانت تقبض على الهافانا.

منعم يضحك: لطيف، السيجار، نحن الحمقى، نسينا السيجار.. يصرخ
منعم حمد: أحضروا لنا علبة سيجار.

يأتي الخادم مهرولاً.. ينحني في أدب.. يضع علبة «مونتي كريستو»
على الطاولة وينصرف.. يقدم منعم لي سيجاراً.. أخذه ولا أشعله.. فقط
أقبض عليه.. أمسكه بين أصابعي بطريقة جامدة.. مستقيمة.. يلتفت منعم
انتباهي: أنتي الأصابع قليلاً.. هكذا.. أستجيب للملاحظة.

أتابع العرض.. وأقلد عدى.. أضم القبضة.. أضحك.. ترقد يمناي على
فخذى.. أتابع عدى.. يأخذ السيجار إلى فمه بمتعة.. يشد الأنفاس
بعمق.. يحرك الدخان في فمه ويميل برأسه الى الوراء بطريقة مسرحية..
يميل بها إلى الجهة اليمنى.. ثم يطبق شفثيه.. أسنانه البارزة تفشل
شفاهه المطبقة في إخفائها.. يبدو لي مضحكاً.. كالشامبانزي.. والآن أنا
أيضاً.. أسناني الجديدة من البورسيلان تجعلني شامبانزي كعدى.. أحس
ألاماً خفيفة والسيجار مضغوط بين أسناني.. أنا لطيف يحيى واست عدي

وأسناني من البورسيلان.. لكنها لحظة.. غفوة.. أعود بعدها إلى تقمص الدور.. أجاهد لتكون حركاتي نفس الحركات.. أن أكون هو.. أروض عقلي ليستجيب أسرع في إعطاء الأوامر لأعضائي..

منعم ينصحنني: لا تقلق.. دائماً هكذا في البداية.. لاحقاً ستوف تفعل دون حاجة للتفكير فيما تفعل.. أنت الآن كمن يتعلم لغة جديدة.. يركز في البداية على مخارج الحروف.. يحاول أن يعتاد اللهجة.

أربع ساعات متواصلة جلست خلالها أتابع العروض.. أتابع عدى.. أرقب بانتباه كل حركة والتفاتة.. حركات الجسد.. تعابير الوجه.. طريقة السير والجلوس.. ضحكاته الصاخبة الخشنة المشوبة بالسخرية.. يهتز معها كل جسمه ويتدلى فكه الأسفل مع كل هاهأة.

وهكذا ثلاثة أيام متعاقبة.. من التاسعة صباحاً وحتى اقتراب موعد صلاة العشاء.. لا عمل لي إلا الجلوس مشدوداً أمام جهاز العرض أتابع وأتابع.. لا يقطع المتابعة إلا برهة من الوقت لتناول الطعام.. وأداء فريضة الصلاة.. كانوا لا يمانعون رغبتني في أداء الصلوات الخمس.. لكن كانت ملامحهم تنطق بالسخرية.. لا إيمان لهم إلا بمعبود واحد.. الجبروت.. وهذا ليس بغريب.. علاقاتهم بالدين مقطوعة.. وضعوا لهم مثل عليا لا تمت للمجتمع المسلم بصلة.. شأته علاقة العراق في عهدهم بالعالم الإسلامي.. إدعوا أنهم بينون مجتمعاً اشتراكياً.. وهو ليس سوى إدعاء.. اشتراكية لهم.. للحزب والعصابة.

ثلاثة أيام متعاقبة.. أتخمت فيها بكل مايجب أن أعرفه عن عدى كيف يفكر.. أحاسيسه ومشاعره.. ردود أفعاله.. لوازمه.. واقفا وعند الجلوس.. مترجلاً وراكباً.

ثم أتت المرحلة الأشيق.. التحدث بطريقته.. براء محطمة أو حتى بدونها..

أفتح فمي على آخره.. زاوية الفك منفرجة.. منعم حمد يرقب طريقي في إخراج الحروف.. ويوجهني.. يكرر دائماً: لطيف.. كن بيغاء..

تدريبات متعاقبة حتى أتقن طريقة عدى في الكلام.. حركاته عندما يشرع في إفتتاح اجتماع، أو يتبادل الحديث مع أصدقائه.. يذكرني منعم حمد بأن أحنو حنو عدى.. في كل حركة.. في كل التفاتة.. يلفت نظري إلى أن عدى لا ينظر تجاه محدثه.. ويتجنب المصافحة.. يكفي بالإيماء في كبرياء.. مقل في الكلام وحتى الابتسام.. تملؤه الخلاء.. ويشعر من حوله دائماً أنه ابن الرئيس.. يعامل حراسه بخشونة وصراف.. يحاول أن يتخفى وراء نظارة «الريبان» الشمسية التي تلازمه.. كان علي أن أنتبه للدرس القادم.. درس تأمين المغادرة.. عدى واحد من العصابة التي تعيث في الأرض فساداً.. وتخشى من جراء مظالمها انتقام من طالهم الظلم.. لهذا تعيش رغم أقنعة القوة التي تتخفى وراءها في هلع دائم من التعرض للاغتيال.. تحرص على تأمين قصورها وتجعل منها قلاع حصينة علها تمنع عنها الحراب المسمومة.

الخبراء في شؤون الأمن يعرفون المفاصل الضعيفة في خطط الأمان.. من هذه المفاصل الضعيفة لحظات المغادرة لمكان ما.. إجتماع أو مقابلة.. أو احتفال.. يدركون أنها لحظة مناسبة كثيراً ما تنتهز من قبل قناص متربص في الظلام.

كيف كان عليهم أن يأمّنوا «عدى» من لحظة كهذه.. على هذا تدريب.. ينتهي الاجتماع أو اللقاء.. يهز عدى رأسه مودعاً.. يحوطه حراسه.. يغادر مسرعاً الخطى إلى سيارته الواقفة إلى قرب.. الباب المجاور لعجلة القيادة مفتوح للقادم.. لعدى.. يجلس إلى المقود.. يقبض عليه بيمناه.. ويشد باليسرى الباب المفتوح ويتركها مستلقية عليه.. ركب عدى يضم إضافة لسيارته أربع سيارات تشابهها ماركة ولون.. إثنان إلى الأمام

وراثتان في الخلف.. ويتلقى حراس السيارات الأربع التعليمات التي يلقيها عدى عبر اللاسلكي.. على الثالثة أن تسبق الثانية، واحدة ترجع إلى الوراء، خذ مكان الثالثة.. وهكذا تتاور سيارات الركب كي يستحيل التعرف على السيارة التي تقل عدي.. نربوني على المرسيدس الرصاصية والبورش الزرقاء الفاتحة.. ولم يكن مستطاعاً أن أرب على كل السيارات التي يضمها كراج.. فهو يملك أكثر من مائة سيارة.. أنواع مختلفة وألوان متباينة.. وكان يختار منها ما يناسب لونها لون الحلة التي يرتديها. أحاول أن أتقن دوري.. فالكاميرات تتابعني.. كل همسة.. كل التفاته يجري تسجيلها.. وتخضع المشاهد للتحليل والمقارنة.. ويتابعها عدى بنفسه.

اليوم 15 من تشرين الأول 1987، يستدعيني منعم حمد الى غرفة مكتب عدى.. ينقل إلي ما عبر عنه عدى.. قال إنه راض عن تقديمي في التمرين.. راض؟!.. يالهم من خبثاء مناورين.. كل ما أبذله من جهد لا يستحق إلا بعض الرضى.. لا يعلو إلى درجة الاطمئنان لنجاحي. على الطاولة التي يجلس إليها منعم رسالة يستقر في رأسها النسر العراقي.. رسالة رسمية هي إذن.. يقول منعم حمد: سوف نُعلم الآن الرئيس.. اللواء الركن فنار الناصري كتبها وقدمها لأوقعها. منعم يطلعني على المکتوب.. يالها من مفاجئة مؤلة.. المجرم.. ابن أمه.. الطفل المدلل.. فعلها وضباط عصابته دون أن يعلموا الرئيس.. خطفوني وعذبوني.. وهام يخضعوني لتدريب قاس.. يذبيون ماضى ويشكلون لي حاضراً مختلفاً دون أن يعلموه.. يعملون لحسابهم.. أو على الأصح لحسابه.. أو ربما أراد أن يسوق الدليل لصدام الوالد أنه قادر على حماية نفسه.. وجدير بخلافته على عرش الطغيان والجبروت. وعدت إلى الرسالة أقرأ الكلمات التي كتبت بعناية:



الجمهورية العراقية
(نخبة ديوان رئاسة الجمهورية)
جهاز الامن الخاص

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد رئيس الجمهورية العراقية حفظك الله ورعاك ..
سياحة الرئيس أود اعلام سيادتكم بأن جهازنا الخاص شعبة المتابعة الامنية برئاسة كل من .
١- المقدم منعم شبيب حمد التكريتي
٢- النقيب زياد حسن هاشم الناصري
٣- النقيب سعدي نعام هزاع الناصري
قد قاموا بكسب (الملازم أول لطيف يحيى لطيف الصالحي) شبويه الاستاذ عدي صدام حسين المحترم
وبعد التحري والمتابعة ولما تلت من قسب شعبة المتابعة السرية الخاصة بالجهاز اتضح ما يلي .
١- اسمه لطيف يحيى لطيف انصاني من قومية كردية تولى ١٤ / ٦ / ١٩٦٤ وسكنه بغداد منذ
اربعين سنة ومن الديانة المسلمة سني .
٢- خريج جامعة بغداد للقانون والسياسة عام ١٩٨٦
٣- دخل القوات المسلحة العراقية بصنف القوات الخاصة برتبة ملازم وبعد ستة اشهر ونظراً
لشجاعته ولستقامته ترقى الى رتبة ملازم أول قوات خاصة .
٤ - لم يحكم عليه بلي جنحة أو تهمة سياسية ..
٥- لديه بعض الاملاك الخاصة به مكتب استيراد وتصدير الاخوان في منطقة المنصور شارع الداودي
ولديه محل للمرمز في منطقة يوب الشام على طريق ميالى ولديه سيارتين نوع مرسيدس
ورصيده في البنك المركزي العراقي .
وبعد حصولنا على هذه المعلومات كنها ولقوة الشبهة بينه وبين الاستاذ عدي صدام حسين المحترم
قررنا وبموافقة الاستاذ عدي صدام حسين المحترم خطياً قررنا استخدام الملازم أول لطيف يحيى
لطيف الصالحي فدائي خاص للاستاذ عدي صدام حسين في المهمات الخاصة والخطرة وباشرفنا
التدريب معه ووجئناه من النوع النكبي جداً لتفهم واجبة الوطني لخدمة عراقنا الحبيب ودمت
سيادتكم لاعلاء كرامة الحق ورفع علم العراق بليانتك العكسية في ربوع عراقنا العزيز .

فـ
الواء المركز

فناز زين الناصري

مدير جهاز الامن الخاص

١٩٨٧/١٠/١٥

يا لهم من أشرار.. لم أكن سوى لعبة.. دمية اختاروها.. وهامهم يشكونها
وفق ما يشتهي المسخ صاحبهم ولي نعمتهم.. نون اعتبار لمشاعري..
يرفعون الأمر الآن للرئيس.. أتسائل قلقاً: ماذا لو لم يوافق الرئيس؟
سيدي ماذا ستفعلوا بي إذا رفضني كفدائي لابنه؟
منعم حمد يغلفه الصمت.. يقطع الغرفة يسرة ويمنة.. يتجنب النظر
إلي.. قلق الرجل وتوتره علامات خطيرة لنهاية مؤكدة.. ميت أنا بالقطع لو
صادفني سوء الطالع.. ورفضني الرئيس.. أتذكر بقع الدم العالقة بطلاء
جدران الزنزانة.. وتقفز إلى رأسي مشاهد عروض الفيديو.. الصرخات
المسحوقة من الألم.. المشائق المنصوبة في ساحة معسكر الرشيد شغلت
عقلي.. شلت تفكيري.



5 | صدام حسين

● منعم حمد التكريتي الذي عهدته دائماً طيلة الأسابيع الماضية واضح التأنق، هاديء، ويفكر بعناية وسلوكه يتسم بالود والملاطفة.. بدا لي اليوم منزعاً على غير عادته.. اليوم 23 تشرين أول 1987 الساعة تقترب من الثامنة صباحاً.. الرياح الحارة تلتفح المكان.

«اليوم حان الوقت».. نطق بالعبارة القصيرة، وهو ينظر إلى.. الأسبوع الماضي انتهت المرحلة الأولى من تدريبي.. قال منعم مفسراً جملته القصيرة: البارحة جاء الجواب من القصر الجمهوري.. الرئيس يريد أن يراك.. يريد أن يتعرف على شخصياً.. قلت هذا لنفسى.. شعور بالفخر تسلل إلى داخلي.. رغم أن الوسواس لازالت تحوم حول رأسي.. ميت أنا إذا رأى الرجل أنني غير مناسب.. وميت أيضاً لو كان الكرون الضيق لازماً الرجل عندما دفعت إليه الرسالة.. كدر مبعثه تجاهل ولده وقبائطه إعلامه بالأمر من بدايته.. الرجل لا يقبل حتى من أقرب مريديه وأتباعه أن يعملوا من وراء ظهره حتى ولو كان ذلك من أجله أو من أجل العائلة.. إنزعاج منعم يدعم قلقي.. مصيره معلق بمصيري.

لكن رغم ذلك أعرف - قلت لنفسى - أعرف المسألة، على خلاف المرة الأولى التي انتزعوني فيها من وحدتي العسكرية دون إشارة إلى المجهول الذي يسبروني إليه.. الفرصة متاحة لي لأثبت نفسي.. أظهر كفايتي. بلهجة أمرة لم أعدها منه قبلاً قال منعم: موعدنا في الرابعة عند القصر، هيىء نفسك لذلك!.

أشعر بالرضا والطمأنينة.. وقفت أمام المرأة أتأمل نفسي.. أطلع عدى داخلي.. تحسست فكي الجديد.. كلمت صورتي في المرأة لأطمئن على مخارج الكلمات.. راقبت خطوي وجلستي.. الآن كل شيء كما دربوني.. أنا الآن عدى.

جاءت سيارة خاصة بعث بها صدام لتأخذني، جاء ثلاثة ضباط ليصحبوني خلال الرحلة الى القصر أرسلهم صدام لهذا الغرض: عبدحميد، أرشد الياسين وروكان التكريتي. ثلاثة من حاشية صدام التي يركن إلى أفرادها ويثق في ولائهم.. حاشية أتبع لي مع الوقت أن أعرف الكثير من أركانها:

- العقيد أرشد ياسين، المسؤول عن حماية صدام حسين، تحت إمرته فرقة خاصة من الحرس.

- العقيد عبد حميد التكريتي، يخدم قريبا من صدام منذ سنوات مسؤول عن إجادة الحرس الخاص وحراس القصر الجمهوري للرماية.

- صدام كامل حسن، ضابط من ضباط مكتب الحراسة الخاصة في القصر الجمهوري وحارس صدام الشخصي وزوج ابنته.

- النقيب جمال سعد الدمام مرافق ثان لصدام، مسؤول عن مكتب استعلامات قصر الاجتماعات.

- الملازم الأول عداي عمر حارس شخصي لصدام.

- الملازم الأول رافد عبد حارس شخصي، ابن أخت العقيد عبد حميد التكريتي.

- الملازم الثاني حكيم كامل حسن حارس شخصي، زوج (حلا) صفري

بنات صدام، وأخ لحسين كامل حسن زوج (رغد) كبرى بنات صدام.

- الملازم الثاني ناظم أحمد التكريتي حارس شخصي.

- الملازم الثاني محمد كمال الدوري حارس شخصي.

- الملازم الثاني سعدى ناهي التكريتي حارس شخصي.

- الملازم الثاني جاسم سلام التكريتي حارس شخصي.

- الملازم الثاني رافع التكريتي حارس شخصي.

- الملازم الثاني رياض محمد التكريتي حارس شخصي.

وكان هؤلاء يؤلفون المجموعة الدائمة المرافقة لصدام.

تحرك ركبنا في تمام الثالثة بعد الظهر.. ركضنا متجهين عبر الممر إلى حيث المرسيدس التي تنتظر عند المدخل.. قفزت الى داخل السيارة وقبعت في مقعدها الخلفي.. تحركت السيارة من أمام «المكتب رقم 7» مقر إقامتي في طريقها إلى القصر الجمهوري.. الركب يضم أربع سيارات مرسيدس أخرى، تسير اثنتان أمامنا واثنتان تتبعنا من الخلف.. المسافة بين المكتب رقم 7 والبوابة العائلية قطعتها السيارات بسرعة فائقة.. لوح لنا حراس البوابة علامة الموافقة على الدخول.. عبرنا البوابة، المستشفى، بيوت الوزاء، توقف الركب في مواجهة بناية الاستعلامات الواقعة ضمن الجناح الشرقي لقصر صدام.

قفز الحراس إلى خارج السيارات لتأمينها.. أخذوا أماكنهم وفق الطريقة التي دربوا عليها.. وأنا أيضا على أن أتصرف كما دربوني.. قفزت من السيارة ركضت مسرعاً - يحوطني رجال صدام - إلى البناية.. صعدنا بخطوات مسرعة الدرجات المؤدية إلى المدخل.. وكان في انتظارنا

ضباط أربعة، واحد منهم روكان، قابونا عبر الممر، دلف روكان وحده إلى غرفة جانبية وهزكتنا ننتظر.

عشر دقائق وقفنا في الانتظار.. لا أحد يتكلم.. لا أحد يدخن.. ثم جاء إلينا ضابط كبير، عريض الكتفين، رأسه محمول على رقبة ثور.. الحلة العسكرية الخضراء تزيد القأ وتضفي عليه مزيداً من العظمة. رغم أنه يلقاني للمرة الأولى تعرف على سريعاً.. خاطبني قائلاً: أنت إذن لطيف.. تعرف قوانين اللعب؟

أجبتة على التوافقاً: أعرفها.

نعم.. قلت لنفسى.. أعرف مخاوف صدام ووساوسه المرضية.. حكوا لي في أثناء التدريب قصصاً كثيرة.. منها قصة وزير الداخلية سمير الشيخلي.. ذاك الرجل الخبير بكل أساليب ومواد القتل.. قبل أن يستقبله صدام.. نزعوا عنه ملابسه.. ألغوه في حوض الماء كي يطهره، بعد الماء غسلوه بالديتول.. أراد صدام أن يلقاه نظيفاً.. أراد أن يطمئن أن سمير الشيخلي لم يتعلق به سموم أو ميكروبات معدية من التي يستخدمها.. يخشى صدام أن تنتقل إليه عند المصافحة.

وهذا الإجراء يجري اتباعه مع كل من يزور صدام.. الكل عليه أن يفحص بدقة قبل أن يسمح له بشرف الدخول على صدام.

وها أنا جاء نوري.. دس الضابط يديه في جيوبي.. فتش ثنيات حُلتي.. جرت أصابعه تحت إبطي.. وتحسس حوضي وفخذى وعظام الساقين.. أمرني بنزع الحذاء والجوربين.. قدم لي جوارب جديدة من الصوف الأبيض.. الأمر الدائمة أن لا يمثل شخص ما في حضرته بجوارب استعملت من قبل.. إنتهى دوره فنادى الطبيب.

جاء مثقلاً بحقيبة بنية اللون.. ألقاها على الطاولة.. وجهه الأحمر النحيل
وبعض علامات سوداء مبعثرة على خديه، عينان ضيقتان ماكرتان.. هيئته
وصمته يدلان على هويته.. بالقطع ليس عربي الأصل.. كرر مثل الطبيين
الذين فحصاني من قبل إجراءات مضحكة ولا مبرر لها.. لكنها
التعليمات.. لقد فحصت مرات متتابة وأنا قيد التدريب.. لكنه الآن يفعل
مالم يفعل من قبل.. يمسح الطبيب بقطعة قطنية بللها بسائل وجهي
وأذنائي ورقبتي.. يبدل القطن ويعيد الأمر أكثر من مرة.. يغمر القطن
المستخدم في سائل أزرق ويراقب ما يحدث له.. لو تغير لونه لدل على أن
جسدي يحمل نوعاً من أنواع السموم.

يفحص عيني.. يحدق في بياضهما.. تؤلني أصابعه.. يطفر الدمع من
عيني ويبلل رموشي.. الضابط الواقف إلى جواره يأمرني أن أفتح فمي
إلى آخره.. يفحص الطبيب لساني والحجرة بمنظار خافت الضوء..
يتخسس أسناني ولثتي.. يدفع تجاهي زجاجة صغيرة مملوءة بالديتول..
قال أن على أن أفرغ السائل على يدي وأفركما بقوة وأترك السائل إلى
أن يجف.

جمع الطبيب أشياء بعد أن أنهى مهمته، ورحل.. خاطبني الضابط
بلهجة أبوية: لطيف، فكر، لا تقبل صدام.

الآن جاهز أنا للقاء.. مغسول ومطهر كحاج متأهب للسعي بين الصفا
والمروءة..

مستعد للقاء صدام.. أتية اللحظة التي طال انتظارها.. بعد قليل سوف
أقاد إلى حضرة القوة والعزة والسلطان.. أساق إلى عرين الأسد.. لحظة
يطمح إليها كثيرون ويخلفها كثيرون أيضاً.. الغريب أن مشاعري المختلطة

غلب عليها الاطمئنان.. وتراجع الخوف..

إنتبهت من خواطري.. إنفتح الباب.. دلف الضابط قبلي وتبعته:

الآن أنا في مكتب الرئيس.. تبدو لي الغرفة مشابهة لغرفة عدى في المكتب رقم ٧.. الألوان ذاتها الغالبة على ورق الحائط.. الأريكة الصفراء الكبيرة.. المكتبة العاشدة بالكتب.. عدى إذن صنع لنفسه غرفة مكتب مشابهة لمكتب صدام الأب.

صدام جالس إلى مكتبه، ممسك بسماعة الهاتف.. وقفت منتظراً انتهاء المحادثة المتعمدة - أعرف هذا - عادة يرجوا عليها لتقف منتظراً.. معروض كبضاعة للمشاهدة.. يفحصونك بعيونهم.. يرقبون ملامحك ويتسمعون على رجفات قلبك.

تأملته.. يرتدي حلة غامقة مقلمة.. رباط عنقه محلى بالزهور.. أصابع يمينه تدق الطاولة دقات رتيبة منتظمة.. يضحك من وقت لآخر، يبنو صوته بالغ الحنو والرقه.. كان الحديث يدور حول خطاب مقرر أن يلقيه الرئيس.. ألمح على سطح يمينه بقايا وشم أزيل بطريقة شائنة.. أصابعه مصبوجة.. شعر الرأس مصفف بعناية.. أسنانه لامعة وبيضاء.. عيناه البنيتان واضحتا الألق.. وجهه صبور نضر.. لا يكره إلا بعض تجعدات تسفلت إلى مجرى الدموع وحول الفم.. وسامته ملحوظة.. يبدو كما لو كان خليط من جان غابان والسلطان صلاح الدين.. في العقد الخمسين.. مملوء بالحيوية.

وصلت المحادثة التليفونية إلى نهايتها.. وقف بخفة.. تحرك خلف المكتب بهدوء.. جلجلت ضحكته وهو ينظر تجاهي.. ضحكة بند لي حقيقية غير مصطنعة.. تقدم خطوتين إلى حيث أقف مشدود الانتباه.. لاحقني

بأسئلة بدت لي بلا معنى.. بل كان يسأل ويجيب، وأهز رأسي موافقاً..
نظراته الحنونة تتفحصني من أعلى إلى أسفل..أخذ يتملى تقاسيم
وجهي.. حركاتي وسكناتي.. حدثت نفسي: أي أفكار تدور الآن برأس
الرجل؟.. أظنه يقول داخله: إنه يشبه ابني بالفعل.. لقد أتموا عملاً
رائعاً.

فجأة فتح نراعيه عن آخرهما.. قال: نعم، أنت هو.. منحني الله ولدين
وأنت الثالث.

آه أخيراً.. مشاعري المضغوطة داخلي.. القلق والهيجان المكبوت في
حنايا صدري.. أن لي الآن أن أطمئن فالرجل نطق بالشهادة.. أقر
بنجاحهم.. ونجاحي في الامتحان.. قبلني فدائي لابنه.. من هذه اللحظة
أصبحت أنتمي إليهم.. أحاول جاهداً أن أطرد أي مشاعر سلبية تزاخم
المشاعر الإيجابية التي تسري داخل رأسي.

صورة الرجل التي حدثت ملامحها داخلي.. الأقاويل والحقائق..
قصاصات الورق وأنهار الدم.. ساحات الاعدام والهمسات المسحوقة خلف
الجدران.. لا يبدو على الرجل الواقف أمامي أي مظهر من مظاهر
الصورة القابعة في حنايا الرأس.. جالت عينا في وجهه أبحث عن
علامات القاتل.. الجبار.. المهيمن.. الدكتاتور.. لا شيء من ذلك.. الوجه
صبوح والملامح هادئة.. صوته القوى المشوب بالحنان.. خطوه المترفق
وابتسامته الرائقة صنعت صورة جَدُّ مختلفة.. صورة ملاك بددت صورة
براكولا.

هذا هو إذن الرجل الذي يمسك بكل مقاليد الحكم.. المرهوب والمحبوب
في الوقت نفسه.. الملايين مشدودة إليه.. الذين يكرهونه والذين على

استعداد للتضحية من أجله.

من أين أتى الرجل بكل هذه القوة.. أي ثقافة صنعته.

ولد الرجل في 28 نيسان 1937 في العوجة، من تكريت، هناك ولد أيضاً صلاح الدين، ينتمي إلى عائلة فلاحية صغيرة، بيت صغير يقع على مسافة 120 كيلومتر شمال بغداد.. قدر له أن يشهد مولد صدام حسين التكريتي، صبحه طلفاح قيل أنها حملت به دون زواج.. وقيل إنها لقبته بصدام لأنها فشلت في التخلص منه جنيناً.. مات أبوه قبل ولادته.. ابراهيم الحسن الذي تزوجت به أمه صبحه بعد موت رجلها لم يرغب بقاء الطفل.. أرسلوه إلى بيت خاله خيرالله الطلفاح، ضابط عراقي كان ضمن الوحدة التي شاركت في انتفاضة عام 1941 ضد الملك الهاشمي فيصل الثاني، وعلى أثر فشل تلك الانتفاضة أقتيد المشاركون فيها إلى السجن ومنهم ذلك الخال.

ترعرع الفتى في جو مشحون بالإثارة.. سنواته الأولى شهدت قلقاً كثيرة.. خمس محاولات انقلاب تمت في المدة ما بين 36 و 1941.. بعد الإفراج عن الخال.. عميد العائلة.. جرت حوادث كثيرة شاركت العائلة في معظمها.. عمليات تجارية، سرقات في الشوارع، تنازعات على المياه.

طرقات القرية ودروبها تحفل بالهمس عن الطفل الذي ولد سفاحاً.. يلاحقه الرفض.. عنيد هو أيضاً ودائم التمرد والعصيان.. يفاقر الحضور في مدرسة تكريت لا تسجل له انتظاماً والناظرة أصابها الضيق من هذا الولد المتعب.. طفل العاشرة المتمرد كالأسماك.. لا تفارقه عصاه الحديدية حتى وهو في مقعد الدرس.. يخبئها تحت الدشداشة.. يبرزها للعراك مع أقرانه.. ويستعين بها لصرف الكلاب المتصعلكة في دروب القرية.. وكانت

أداته للعبث أحياناً.. يعرض طرفها للنار ثم يدفع بالطرف الملتهب إلى دبر كلب أو قطة.. كانت العصا صديق صدوق لذلك الفتى المحكوم عليه بالعزلة.. عزلة فرضتها شائعات مولده المؤثم، أو مصلحه المتسم بالحدة والعنف.

مع مطلع العام 1955 إنتقل الخال إلى بغداد وصحب معه ضمن أفراد أسرته الفتى صدام.. وسكن الوافدون الجدد منطقة تيكرتي حيث تسيطر العصابات على الحواري والطرقاات وتسيل الدماء بفعل الجرائم والمشاجرات العائلية.. والتحق صدام بمدرسة الكرخ.

أول جريمة أقدم على ارتكابها الفتى اليافع قبل عام واحد من بلوغه سن العشرين.. دفعه الخال الذي يعيش في كتفه إلى قتل خاله الآخر سعدي.. الفتى رغم الجموح والعنف المتوقد والمتأجج داخله كان الطموح يلزمه فأنهى دراسته الثانوية بنجاح.. وكان الطموح أيضاً دافعه ليهتم بالفعل السياسي، ويلتحق بصفوف حزب البعث العربي الذي يعمل في الخفاء تقادياً للملاحقة من قبل نظام الزعيم عبد الكريم قاسم.. نال عضوية الحزب عام 1957 ووقع عليه الاختيار في 17 تشرين أول 1959 للمشاركة في عملية اغتيال ضد قاسم الدكتاتور الذي يقف ضد اختياراتهم الحزبية.. ولم تنجح المحاولة وجرح صدام.. أصابته طلقة في قدمه.. وجره الرفاق إلى مكمن لاستخراج الرصاصة.. ثم دبوا خطة لفراره إلى سوريا حيث بقي هناك ستة أشهر أتيح له خلالها ملازمة المحامي ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث، والذي أصبح مرشده السياسي منذ ذلك الحين.

في عام 1962 سافر صدام إلى مصر، والتحق بكلية الحقوق، فضلاً عن ذلك أصبح المسؤول عن الحزب في القاهرة.. وبرغم أن دوره في

المحاولة التي جرت لاغتيال عبدالكريم قاسم كان دوراً صغيراً.. إلا أن ذلك الدور أسهم كثيراً في مسيرته السياسية في المستقبل.

جاءت الأنباء إلى القاهرة تحمل إلى صدام خبر نجاح حزب البعث بقيادة أحمد حسن البكر التكريتي في الإطاحة بعبدالكريم قاسم وإعدامه علناً.. فسارع صدام بالعودة إلى بغداد.. وسرعان ما تزوج ابنة خاله ساجدة.. ابنة الخال الذي رعاه حتى شب عن الطوق.. ولم ينعم الفتى بدفء عش الزوجية طويلاً.. كان عليه أن يخشي ثانية فقد قفز إلى السلطة حاكم جديد.. عارف الذي أطاح بأحمد حسن البكر.. ودارت الدائرة على حزب البعث.. طورد رجاله ولوحقوا.. وامتألت السجون بكوارره النشطة.. هذه المرة لم ينجح صدام في الفرار.. ألقى القبض عليه وسيق إلى غياهب السجن.. الحزب المطارد يللم في الظلام صفوفه.. عُيّن صدام من قبل المجلس الثامن للحزب نائباً لرئيس الحزب.. ولم يمكث طويلاً مقيد الحرية.. نجح في الفرار.. وتخفى إلى أن عاد عام 1968 مع عودة الحزب ثانية إلى السلطة.. خُلع عارف وعاد البكر، وعاد معه صدام حسين التكريتي في موقع الرجل الثاني.. أول مهام صدام رئاسته لما سمي بمجلس الاستقصاء.. إتخذ له مقراً في سجن قصر النهاية.. أسابيع بعد وصوله إلى السلطة قبع هناك يمارس أبشع أنواع التعذيب وهدر الدماء.. مئات ممن وُصموا بأنهم أعداء الحزب.. تساقطوا في باحة السجن وغرفة الضيقة.. ومئات آخرين شنقوا في ساحات بغداد بتهمة التجسس لصالح إسرائيل وأمريكا.

هذه المرة لن تغلت من يده.. أحكم وثاقها.. إنها السلطة التي يعشقها.. ذاق في سبيل الوصول إليها مرارة المطاردة والتخفي.. هجر بسببها عش الزوجية.. لكنه الآن يعود إليها منتصراً.. ممسكاً بالجام.. جمع في

قبضته القوية كل الخيوط ولم يترك للرجل الأول الجالس على كرسي الحكم إلا مهمة المراسيم.. صدام بصفته نائب السكرتير العام للحزب يقوم بكل الأعمال الرئيسية.. أقدم في عام 1972 على خطوة شديدة الجراءة.. أمر بتأميم شركات البترول فاستشاط الغرب غضباً.. وكانت الخطوة القادمة الاتجاه شرقاً.. عقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي.. الرئيس البكر راوبته الرغبة في معارضة هذه المعاهدة.. لكن صدام ما عاد يحتمل مزاحماً.. أصابت طلقة مكتومة من مسدسه نراخ الرجل فأنسكت معارضته.. بعدها قبع الرجل في القصر صورة للثينة والماراسيم إلى أن رحل في 16 أيار 1979.. أصابته سكتة قلبية.. هكذا قالت الروايات الرسمية.. أما الرواية التي تناقلتها الهمسات أكت أن الرجل مات مسموماً.

الآن لا حاجة للأقنعة.. أصبح المسرح له وحده.. الآن عليه أن يحكم القبضة أكثر.. كل المناصب الهامة والرئيسية تولها أهله وعشيرته.. تكريت أوثقت بغداد إلى معصمها.. لا فرصة للنجاة ولا مخرج منه.. إلا إليه.. وداست أقدام العسكر الثقيلة أعناق الرجال.. وأخرست الألسنة في الحلق.. خمسة عشر رجلاً «مجلس قيادة الثورة».. مجلس قيادة العصابة التي التفت حول الرجل القابض على السلطة.

في رحاب هذه السلطة الفاشمة ترعرع عدى.. شرب من كأس البطش حتى أترع.. الآن أنا لطيف يحيى.. قدر على أن أكون واحداً من هذه العصابة.. هكذا خططوا.. واستهوى ذلك رأسهم.. حلق إلى.. ضمنى إلى صدره.. قال الآن لصدام ولد ثالث.

وأضاف بعطف زائد: أريد منك أن تقوم بواجبك على أحسن وجه.

أجبتة موافقاً: نعم ياسيدي.

واصل: عندما تقوم بواجبك جيداً، تنال رضاي، وعندما تؤدي مهامك على الوجه الأمثل تجدني إلى جانبك ألبني ما ترغب وتتمنى.. لكن حاذر أن تغضبني.

سحابة قلق حومت حول رأسي.. سارعت بالتخلص منها.. أجبتة على الفور: أمل أن أفعل كل شيء بصورة جيدة.

إستدار دون أن ينطق.. عاد إلى مكتبه دون أن يضافحني مودعاً.. وتشاغل بالهاتف.. داست أصابعه رأس الجرس فجاء من يصطحبني إلى خارج الغرفة.



6 | الظهور الأول

● على السرير الواسع في غرفة نوم عدى.. غرفة نومي.. تمددت، نسيمات الخريف تتسلل عبر النافذة المفتوحة.. أتنفسها بعمق علها تبدد هدة كياني بعد أن أرهقتني التمارين التي تضاعفت على أثر الزيارة التي أخونني إليها.. البرنامج قبل الزيارة وبعدها هو هو لم يتغير.. تضاعف فقط الوقت المخصص للتدريب.. على أن أعاود مشاهدة أفلام عدى.. أكرر المشاهد كالبيغاء.. الكلام.. الحركات والسكنات.

منعم حمد مدربي الدائم يلعب دوره بمهارة.. هادئ وودود، لا يعكر صفوه إلا ذلك الجالس على عقيبه يحوطنا بنظراته الماكرة.. زياد حسن هاشم الناصري، الكلب المسعور الذي نهشت أنيابه القائلة أعداء سيده القابع في القصر.. الكل يحذره حتى عدى.. ضراوته لاتخفى على أحد.. والعلاقة الخاصة التي تربطه بسيد القصر تقوي شوكته.

يوم أتدرب على دوري كرئيس للنادي الرياضي.. ويوم آخر أتدرب على تفقد إحدى وحدات القوات الخاصة.. على أن أذهب متأنقاً.. أحكم رباط العنق.. على وجهي النظارة الريبان الخضراء المحلاة بإطار ذهبي.. أحيي المستقبلين بإهمال وتعالٍ كما يفعل عدى.. على أن أظهار بالعجرفة.. هكذا تقضي التعليمات.. تلازمي النظارة حتى في الأماكن المغلقة.. أحس تجاهها بالعرفان، أراحتني من عناء الماكياج.

لطيف يحيى ذلك الكامن داخلي يحن إلى التملص من قيد قالب الجص الذي يطبق على أنفاسي.. أهفو إلى أن أتكلم كما كان يتكلم، أضحك كما كان يضحك.. أمشي وأقعد كما كان يفعل، حتى طريقتي في الرقاد على

الفراش ماعادت مستطاعة.. الفراش الوثير هو فراش عدى.. الغرفة والطرق والمسيح.. حتى الهواء المتسلل عبر النافذة يحمل إلى أنفاسه.. تحوم حولي.. تطبق على أنفاس لطيف يحيى الكامن داخلي.. عدى الأصل الذي كان لا يكثر من الحضور إلى المكتب رقم 7 قبل أن أزور الوالد، أصبح الآن يأتي بانتظام، يحرص على متابعة تدريبي، كان يتحاشاني لكنني أحس وجوده.. أنفاسه تلفح ظهري.. انفجارات غضبه المفاجيء تزداد عنفاً كلما طالت مدة التدريب.

اليوم الثلاثاء أول تشرين الثاني عام 1987.. التلفاز يبث خبر تنصيب صدام لولده عدى رئيساً للجنة الأولمبية العراقية، صورته تنصدر صفحات الصحف الصباحية، الأوبزفر البغدادية التي تصدر بالإنجليزية تشارك في الزفة الإعلامية.. في اليوم التالي جلست في مواجهة منعم أصفي لتعليماته، يلقتني تفاصيل الدور الجديد الذي علي أن أعبه.. علي أن أتدرب على الوقوف في باحة المطار لاستقبال بعثة أولمبية تحط طائرتها على أرض المطار.. عدى جالس هناك في ركن الغرفة التي هيأت على شاكلة المطار.. بساط أحمر، باقات زهور، أصوات الطائرات التي تغلو أو تحط تنطلق عبر مكبرات الصوت المثبتة في أركان الغرفة.. أقف مشهود القامة.. بوجه منعم الحراس ليصلحوا من هيتهم.. أنامله تهندم رباط عنقي.. أغلقت عيناى.. وتمثلت الرحلة التي أخذوني فيها الى المطار هذا الصباح.. إقتابوني إليه لآتهياً لأداء الدور.. عشرة كيلومترات قطعتها السيارة في طريق المطار الخاص، على جانبي الطريق اصطف رجال الشرطة الخاصة.. مفروسين كأشجار البلوط لا تحرك رياح الخريف جنوعهم المستقيمة. يبدلونهم كل أربع ساعات بآخرين.. المهمة المعلقة حراسة الطريق المؤدي إلى المطار.. صدام لا يغادر العراق!!.. إنن أى مطار يحرسون.. يحرسون في الواقع طريقه إلى المسكن الآخر.. القصر البديل الواقع غرب المطار، القصر الذي يسميه صدام المجمع الرئاسي.. أصبح للطريق الواقع ما بين القصرين أهمية فائقة لذا يوليه رجال

المخابرات جُلّ عنايتهم.. الرئيس أصبح يستخدمه بشكل يومي للتنقل بين القصرين.. مبنى المطار ليس كبيراً، عند المدخل موقف واسع للسيارات، بهو واسع داخل المبنى اصطففت فيه الأرائك والمقاعد الوفيرة.. على الحائط المواجه للمدخل صورة بالغة الكبر للرئيس القائد، أسفلها صورة النسر العراقي وفي محاذاة صورة الرئيس العلم بالألوان والنجوم الثلاثة الخضراء.. عند الحائط المعلقة عليه صورة الرئيس منصة خطابة مجهزة.. البسط السمكة تفرش أرض البهو الواسع.. في باحة المطار تقف متأهبة خمس طائرات مروحية، وطائرتا بوينج، وأخرتان ميج عسكريتان.. وجميعها جاهزة للإقلاع في أى وقت.. أعلمني بهذا واحد من أطعم الطيارين العاملين في خدمة الرئيس.. كابتن مزهر التكريتي صديقي.. يعمل على إحدى الطائرات المروحية الرابضة في أرض مطار صدام الخاص.

إنتبهت على صوت منعم حمد.. البعثة وصلت الآن.. عليك أن تخطو إلى رئيس البعثة لتصافحه.. تستعرضاً معاً حرس الشرف.. حاولت أن أصافح الخيال الذي يأمرني بمصافحته.. غالبت الضحكات فغلقتني.. تعالت قهقهتي.. واعتذرت على التو.. لكنه قفز مشتاطاً من الغضب نحوي.. هجم عدى على وجهه متحجر ويمناه تلوح بالكابل الكهربائي.. يصرخ.. يأمرني أن أستدير.. يوسعني بالكابل بضربات متلاحقة على الظهر.. يلهث.. تلو خفقاته.. يهذي بكلمات متلاحقة متدافقة.. الألم يحتويني.. الواقفون أخرستهم المفاجأة.. لم يملك أحدهم جرأة مساعدتي ولو بكلمة.. ثلاثة وثلاثون ضربة من الكابل تركت علامات على ظهري.. تلاخقت أنفاسه المهتاجة فتوقف، تهالك على المقعد وهو يلهث.. فجأة أخذ يضحك في هيسيريا.. انفجرت أسنانيه بعد أن تحرر من ثورة الغضب.. إرتخت أعضائه بعد أن روى شبقه للتعذيب.

الأم نفسي وجراح كرامتي أشد وطأة على من ضربات الكابل.. لماذا تعرضت للهوان هكذا بلا جريرة!!.. أى نذب اقترفت لألقى مالمقيت!!.. ليس

غير أن سوء طالعي أوقعني في شباكهم.. قُدر على أن أصادف من يتلهون بعذاب البشر.. يفرغون رغباتهم الجنسية المكبوتة في أجساد الضحايا.. يتوارثون البغضاء.. لازمت العصا الحديدية الأب عندما كان يتسكع في دروب تكريت.. ألهب بضرباتها ظهور كلاب القرية الضالة ورفاق صفه كذلك.. ولده أيضاً يلزمه كبراج.. أوسعني به الآن ضرباً كما لو كنت كلباً ضالاً تعثرت فيه قدماه.

هَبْ واقفاً.. قال بخشونة: تابعوا.. قالها وولى.. تركنا نكمل المسرحية العابثة.

تتوالى الأيام والأسابيع.. التدريب الطويل تقتلني رتابته.. يصيبيني بالملل.. في الصباح أتدرب.. في المساء أراجع الأنوار.. أصوب الأخطاء.. حاولت مرات أن أسجل التفاصيل كتابة لكنني تراجعت خوفاً من الحراس.

الآن نوع جديد من التدريب.. المران على الاشتباك والرماية.. لازال الملل يرافقني.. التمرين رغم جدته لاشيء فيه لا أعرفه.. خبرته وأنا في مركز تدريب الضباط.. الجديد فقط طريقة استخدام عدى لسلاحه.. كيف كان يخطف مسدسه من الجراب المثبت على وسطه في خفة ورشاقة.. يلهو به كزراعة البقر الذين نشاهدهم في أفلام الويسترن الأمريكية.. على أن ألهو بالطريقة نفسها.

أحاول أن لا أفكر طويلاً في معنى ما يحدث لي.. كل الأشياء عابثة لا علاقة لها بالواقع.. حُشرت في جوقة تعزف في جنبات سيرك كبير.. حيوانات تروض.. فقط لمتعة المروضين.. السيرك بلا جمهور آخر سوى أهل السيرك.. الجمهور الآخر يقف بعيداً خلف الأسوار، إما خائف أو مبعد.

على أن أتنفس الصعداء.. 28 شباط 1988، إنتهى التدريب أخيراً. وفي أول آذار 1988 كتب منعم حمد التكريتي إلى مدير المخابرات يعلمه بنجاح مهمته:



الجمهورية العراقية
رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية
جهاز الامن الخاص
شعبة المتابعة السرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سري وشخصي للغاية

الى / السيد مدير جهاز الامن الخاص المحترم
سيدي أود اعلام سيادتكم بانني ومجموعتي من الضباط المشرفين على الدورة السرية الخاصة
(بالملزم اول لطيف يحيي لطيف الصالحي) والخاصة بتدريبه على السلاح بأنواعه وتهيأته
ليكون ممثل الاستاذ عدي صدام حسين المحترم وبذلك قد انتهت الدورة وبنتجاء الملزم الاول
لطيف يحيي لطيف الصالحي في تاذية الواجبات كلها على اتم وجه وبدقة متناهية فلو
اعلام سيادتكم بهذا الخصوص
ولكم الامر سيدي .

المقدم
منعم شبيب التكريتي
مدير شعبة المتابعة السرية

١٩٨٨ / ٣ / ١

ولك الأمر سيدي.. هكذا ختم الرسالة منعماً.. الآن أنا في عهدة الآخرين.. الخادم أتى لي بحل جديد: حلة حارس شخصي، حلة طيار.. ثلاثة سوداء مكتوب عليها عدى صدام حسين.. سلموني أوراق جديدة.. عدة هويات تحمل أسماء مختلفة إلى جوار صورتي.

- النقيب أهيب الحديثي، ضابط مخابرات، محمد سامي أحمد موظف بوزارة التربية، سرحان متعب الكمالي موظف بوزارة الصناعة، أسماء مختلفة كان علي أن أتسمى بها.. الآن لوقدر لي الاشتراك في عملية ما وأنت نهايتي فلن أكون إلا الرسم المثبت في البطاقة.. لا عدى ولا لطيف.. يالها من مصيدة محكمة تلك التي أقاد إليها.. وما أبأس المصير الذي ألح طيفه يحوم من حولي.

على أي شيء يزف الفجر هؤلاء التهاني إلى .. التفوا حولي، عاملوني بود زائد.. حتى عدى بالغ اليوم في إظهار مودته، جالسنني نشرب نخب نجاحي في التدريب.. شربنا معاً شراب الكونياك.. قال علي أن أستريح في الأيام القادمة.. علي أن أستجم.. لا فيديو.. لا تمارين كلامية.. خمسة أيام علي أن أقضيها في راحة.. أستلقي على حافة المسبح.. أتمدد على العشب تدغدغي شمس الربيع.. الأطعمة المعدة على الطريقة الغربية تأتيني طازجة وشهية.. أشتاغل بترتيب الحل الجديدة في الخزانة.. والملابس الحريرية التي جلبوها لي من عواصم الموضة.. باريس.. روما.. حتى الجوارب والأحذية أتوا بها من الخارج.

وكان علي أن أعب من كأس الأحلام التي بين أصابعي قبل أن تنتهي.. أشربها حتى الثمالة ولا أفكر فيما هوأت.

تمددت في مساء الرابع من آذار 1987 على الأريكة أتلهى بمشاهدة شريط على الفيديو.. طريقة العراك الياباني.. الساموراي، والقتال

بالسيف، مصارعو الكونغ فو والملاكمة الذاتية.. عدى يعجبه هذا الفيلم وأنا أيضاً.. تسلل عدى ومعه عزام عبر الباب المفتوح، لم أسمع خطواتهما، حياني عدى وجلس بينما ظل مرافقه واقفاً.

قال بطريقة هستيرية: لطيف، لقد أخذت وقتاً كافياً، نريد أن نمتحنك.. سألته: متى؟ أجاب: بعد غد. في وقت متأخر بعد الظهر.. في ملعب الشعب الرياضي. هناك سوف يتبارى فريقان عراقيان من فرق كرة القدم.

من المنتظر أن يحضر المباراة جمهور كبير، ربما أكثر من خمسين ألف متفرج.. المقصورة التي أخونني إليها معزولة عن الجماهير.. المسافة بينها وبين مدرجات المتفرجين بعيدة.. المسافة بيني وبين الجمهور سوف لاتجعله ينتبه لو تعثرت في أداء دوري أو ارتكبت بعض الأخطاء..

قال محذراً: لطيف، هذا سيكون الحدث الأول الكبير لك، ركز عليه، كل شيء يحدث في هذا اليوم سوف يقرر الباقي.

القلق يحوم حول رأسي.. أفشل؟.. ليس عسيراً عليهم أن يودوا بي.. سوف يفعلون ذلك دون عراقيل.

ذهب عدى بعد أن اطمأن على أن تحذيراته اخترقت رأسي وكمنت في تجاوبها.. ذهب ولم أره إلا يوم المباراة.. جاء إلى غرفتي ليشرف على إعدادي.. جاسم الحلو مستشاره الشخصي لأمر الملبس أحضر لي طاقم ملابس فاتح، وقف يتأملني في خنوته.. رائحة عطره النفاذة تحرق أنفي، وحركاته النسائية تستفزني.. جرأته في الحديث عن عدى في حضرته شدت انتباهي.. أبدى رأيه في نوق سيده: عدى لم يكن له أبداً نوق جيد في مسألة الملابس.. كان دائماً يستعمل ألواناً لاتناسب بعضها.. هذا الجاسم المخنث شديد الطرافة.. محاولته التعالي في نعومة غير

قادرة على إخفاء منبته.. الرجل الأنثى لم يكن غير خياط متواضع نشأ في أسرة غير ميسورة الحال.. إلى أن اختاره عدى ليكون رفيقه.. مستشاره للتأنيق.. دائماً في صحبته ليبدل له ملابسه.. يسافران معاً إلى العواصم الأوروبية لندن وباريس وروما للتسوق والمتعة.. الرجل الأنثى يدور في الغرفة.. يذهب إلى الخزانة.. يفتحها.. يمس شفتيه في اشمزاز وهو يطالع الحل المكسدة في الخزانة.. يحركها بيمنه.. يقول: ماذا على أن ألبس السيد الشاب الآن.. يختار لي جاسم بدلة فاتحة وقميص مقلم وربطة عنق لونها أحمر نبيذي.. يتلفت حوله ويقول مبدئاً انزعاجه: لماذا إسماعيل ليس هنا.

إسماعيل الأعظمي هو حلاق عدى الخاص. ينسق له شعره كل يوم ويقصه كل عشرة أيام.. كافأه عدى على إخلاصه.. أهداه ثلاث محلات جعلته المزين الأشهر في بغداد.. عندما هيأت لزيارة الرئيس جاء وقص شعر رأسي وذقتني.

إرتديت ملابسني، ساعدني جاسم في إحكام ربطة العنق، نظفت النظارة بمحرمة الفراش قبل أن ألبسها..

التوتر الذي بدا في التسلسل إلى أخذ في التصاعد.. كان قد بلغ الذروة في اللحظة التي جاء فيها عزام ومنعم والحراس لاصطحابي.

أقود سيارتي المرسيدس وسط كوكبة من السيارات المماثلة.. عبرت السيارات العشرة شوارع بغداد.. حتى وصلت شارع فلسطين أرقى شوارع العاصمة.. طريق مستقيم تتراقص على إسفلته الراق الأضواء.. طالما عبرت مواكب الحزب خلال الاحتفالات المتكررة ذلك الطريق.

السيارات المارة على الطريق تلتزم الجانب الأيسر لتفسح لقافلتنا.. الأولوية دائماً لقوافل القصر.. منعم حمد الجالس إلى جوار ي يسألني بين

حين وآخر عن حالي.. يحاول أنه يبعث في تلميذه الطمأنينة.. يخاف أن تبدد مخاوفي كل الجهد الذي بذله.. يخاف الفشل.. يداغبني ليبعد عني علامات التوتر.. ونحن على خطوات من الملعب الكبير قال مؤكداً: إهدأ.. لن يحدث شيء.. منعم يقول ضاحكاً: عدى السيجار. ضحكت أنا أيضاً، تناولت منه لعبة المونتي كريستو الفضية ووضعتها في جيب السترة قبل أن نغادر السيارة.

أسير وسط الحراس، أصلح من هندامي ونحن في الطريق إلى السلم، أتأكد من إحكام وضع النظارة، نتجه بخطوات مسرعة إلى المدخل.. نبضاتي تتسارع، العرق يبلل ملابسني الداخلية، أجاهد لأخفي ارتباكي يقودني الحراس إلى منصة الشرف.. مقصورة في القسم الأوسط من الملعب، صفت فيها المقاعد الوثيرة، وزينت بأصص زهور نضرة.. تتوسطها صورة كبيرة لصدام حسين.. وعلى مسافات متقاربة علقت الاعلام.. أجلسوني في الصف الأول، يحوطني الحراس من كل جانب.. الخمسون ألف الممتلئة بهم المدرجات يصفقون في حرارة مصطنعة.. يرسلون إلى التحية.. يرسلون التحية باكفهم إلى أنا عدى صدام حسين .. يؤنون واجبههم لأن واحداً من العائلة أخذ مكانه في مقصورة الشرف. الآن على أن أبدأ اللعبة.. أشعل السيجار وأنفث الدخان تماماً كما علموني.. ألوح بيمنى كما يفعل عدى .. أصطنع حركاته.. يالها من مسرحية عابثة لا ينتبه لها جمهور يجلس بعيداً ولا قدرة له على ملاحظة وقائعها لطول المسافة التي بينه وخشبة المسرح.. أقصد مقصورة الشرف.

إنصرفت عن متابعة المباراة إلى إحكام دوري.. كاميرات التلفاز العراقي تلاحقني بين حين وآخر.. أعرف أن المصورين تلقوا تعليمات

بقيقة.. كان عليهم أن يحاثلوا أن تتضح معالي.. عليهم أن لا يركزوا على الوجه.. لاصور قريبة.. لذلك ليس على أن أهتم.. هذا ما قاله لي عدى.

فاز فريق نادي الطيران في المباراة.. رجحت كفته في نصفها الثاني.. أكتب لو قلت أنني أعرف من أحرز الأهداف.. على المنضدة التي أمامي رص منعم حمد إحدى عشر كأساً في علب مخملية حمراء.. على أن أتعطف بها على الفريق الفائز.. أقف ملوحاً للجماهير التي تصرخ بالهتاف لي.. يأتي الحراس ليقودوني إلى أرض الملعب.. منعم حمد يهمس لي: لطيف تشجع.. أبذل كل جهدي، فكر بعون الله.. كلماته المشجعة ساعدتني على التماسك.. أسير وسط كوكبة الحراس متجهاً إلى حيث اصطفت اللاعبين من النادي الفائز في انتظاري.. لا كلمة.. لا حرف.. مجرد إيماء وأنا أتناول العُصا من الحارس وأوزعها على أعضاء الفريق.. أحد عشر لاعباً كان على أن أشد على أياديهم.. أصافحهم الواحد تلو الآخر.. يأخذون الهدايا وكلمات شكر متعائلة يخرج من أفواههم كما لقنوا.. هم أيضاً ممثلون، دربوا على أداء أنوارهم مثلي.. استبوت عائدُ إلى المقصورة.. لم أنس أن ألوح للجمهور.. سارع بي الحراس إلى السيارات المنتظرة.. عدنا كما أتينا بسلام.. الفرحة تنطق بها ملامح وقسمات منعم.. قال: كنت رائعاً يا لطيف.. تمليت ملامحه.. أردت أن أقرأ في عينيه صدق عبارته.. أردت أن أعرف هل يعني ذلك حقاً أم أنها مجرد مجاملة.. أو هي أيضاً جزء من اللعبة.. لم أنجح في سبر غوره.. فشلت كما يفشل محبوب أغشى بصره من طول التحديق في وجه محبوبته.. أفقدته الصبابة القدرية على معرفة حقيقة الألق الذي يشع من عينيها.. هل هو حب، أم مجرد عطف.

الطمأنينة لازالت مفتقدة حتى بعد أن قيل لي إنك نجحت في أداء

النور.. كان عليّ أن أقاتل شعوري بالقلق.. أردت داخلي: المهم أن تكون عدي.. أن تكون متعالياً وفضاً غليظ القلب والملاح.. أن تنتفخ أوداجك كبرياء، تذكر كل لحظة ومع كل التفاتة أنك عدي صدام حسين.

وجدت عدي هناك عند البركة.. لازال ماء الحمام يبلىه.. إتجه إلى مرحباً.. قبلني في فمي.. قال: لقد كنت رائعاً.. كنت أتابعك على شاشة التلفاز.. لقد قمت بواجبك على أكمل وجه.. لم يلاحظ أحد اختلافاً.. حتى اللاعبين الذين صافحتهم عن قرب اعتقدوا أنك أنا .. إشرب. ومد لي كأس الكونياك.. وشربنا معاً نخب نجاحي.

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي للمباراة أوقظوني.. إحتسيت فنجان قهوة بدون جليب.. استدعاني منعم لغرفة عدي.. كان علينا أن نشاهد تسجيل المباراة - لم نذهب الى غرفة الفيديو - شاهدناها في مكتب عدي.. جلست أتابع أدائي مسجلاً على الشريط، عدي الجالس بالقرب مني ظل يكرر كلمة رائع.. رائع، إنه فخور بي.. أشعر الآن بارتياح.. التعب والوساوس وساعات التمرين الطويلة.. طفرات غضب عدي.. كل ذلك ذهب.. إغتسلت نفسي وأصبحت رائقة.. الآن تأكد لي أن لطيف يحيى لم يعد موجوداً.. طويت صفحته.. إستقرت هناك في حوصلة داخل فؤادي.. أفكر في الأهل - إنقطعت عنهم منذ ستة أشهر.. لا يعرفون أين أنا .. حتى أم ميت.. عندما كنت هناك في الجبهة، كنت أكتب لهم عندما تطول إقامتي.. أو أخبرهم بالهاتف.. الآن لا شيء من ذلك.. ترى كيف حال أمي؟. أحبها كثيراً، وهي أيضاً، أفقد حنانها وحنوها عليّ .. أعرف كم هي ملتاعة الآن على ولدها.. قلزة كبدها، وأبي.. الشيخ الوقور الذي أحاطني بشمائله.. نهلت من نبع حكمتي، وتدرجت في كتفه.. أي أفكار عني تدور الآن في رأسه.

أود لو أفاتح عدى بما يمور في داخلي.. لكني غير قادر.. فضلت أن لا أعكر عليه فرحته، وأنا أيضاً أريد أن أعيش لحظة فرح بنجاحي الأول. جُلسْتُ أتأملهُ وهو يتابعني على الشاشة.. أتابع ذلك المدلل الذي نعمل كلنا من أجله.. أنا أشقى لأكون فداء له.. ينام كل يوم ساعات طويلة ولايستيقظ إلا في العاشرة والنصف.. يبقى حراسه ساهرون على حمايته طيلة ساعات الليل.. يجلسون إلى جوار المسيح أحياناً، يتشاغلون بتنظيف سلاحهم أو احتساء الخمر.. يتكلمون بلا معنى.. تعرفت عليهم جميعاً.

- رئيس الحرس، عزام التكريتي، أكبر من عدى بسنتين فقط، أعرفه من أيام الدراسة، كان تلميذاً سيئاً.. جالسته حول البار المنصوب على حافة المسبح مرات.. أفرط في الشراب في واحدة من تلك المرات التي جالسته فيها .. إنسألت خبايا نفسه إلى طرف لسانه.. قال لي أنه تجرأ وزور شهادته المدرسية.. إكتشف مدير المدرسة الأمر فأحاله إلى مجلس المعلمين، وكانت العاقبة الوخيمة.. أقتيد وهو ابن السادسة عشرة إلى السجن فلم يُقَدَّر له أن يتم دراسته.. تعثر في مسيرته إلى أن جاءت الفرصة المواتية.. تعرف في نادي العلوية على دابي المسيحي الذي كان قنطوته إلى عدى.. دابي حلو المعشر، كلما جاء إلى النادي أشاع البهجة فيمن حوله.. مثقف ولطيف، قادر على اجتذاب الآخرين إليه.. بشرته الشديدة البياض تزيده ألقاً.

دابي كان صديقاً لعدي ويعرف عزام أيضاً، مد بينهما خيوط التعارف.. أصبح عزام واحداً من زمرة عدى.. واختفى دابي فجأة.. حاول أن يتوود لواحدة من فتيات عدى فكان عقابه الطرد، ليس من النادي فقط .. بل من المجتمع البغدادي كله.

حاولت أن أعرف من عزام ماذا حدث للرجل فتهرب من الإجابة.. قال فقط إنه رأى دابي منذ فترة، وإن منظره كان قظيماً.. قال إنه لا يعرف ماذا فعلوا به.

- أحمد سليمان المرافق الثاني لعدى، القوي البنية، يجيد لعبة الكراتيه، لم يزد تحصيله الدراسي عن دروس الإعدادية الصناعية التي أنهارها بصعوبة. لا يأخذ الخجل إلى نفسه طريفاً.. عندما يرغب عدى فتاة يرسل إليها أحمد، مسؤول هو عن تأمين البنات لسيدة عدى.. مجرم (ومغتصب..) متوحش، لم أعرف هذا إلا مؤخراً.

- سلام العوسي، مخبر خاص، يدون الملاحظات، يتجسس على أصدقاء عدى ويطلع على تحركاتهم، خسيس إلى أبعد حد رغم قناع التأذب الذي يتخفى خلفه.

- مؤيد فاضل، حيوان يعامل ضحاياه بلا رحمة، يرأمره سيده بالاعتصاب فيفعل بالتردد..»

- سعدون التكريتي، بارد الأحاسيس، أخصائي في التعذيب.

- نعيم التكريتي، واحد من أقارب عدى، مسؤول عن تنظيم الاحتفالات، له خبرة عالية في إجراء المراسم.. وله نوق كبير في إعداد الديكورات واختيار الموسيقى.

- مقصود التكريتي، مسؤول عن تليفونات عدى، ينظم المواعيد ويقرر لأي البنات يعطي التليفون الخاص لسيدة.

- محمد النوري، سائق خاص، صامت دائماً، يصطحب رفيقات عدى، مستعد دائماً رهن إشارة السيد الداعر.

هؤلاء بعض خلاء عدى.. جزء من لائحة طويلة تضم الأصدقاء والمعارف.. أشخاص يلفهم الغموض الذي يعشقه عدى.. يحدون عالم

الرنيلة، عالمه السفلي الذي يخوض في وحله.. بعد أشهر إلى جانبه تجرأت على نصحه.. تمنيت عليه أن يحاول أن يعيش حياة مختلفة .. أن يعيش سَوياً بلا مجون.. حياة تؤمن له الابتعاد عن خطر الاغتيال.. قلت أن الحياة العاقلة تقلل عدد المصطفيين في دائرة الانتقام المنتظر في الظلام.. لكن عبثاً كنت أحاول.. كل عظامي عاجزة، لا حيلة للوعاظ في إصلاح شأن ضال يدمن عوجه ويتلذذ به.. يعرف أنه عرضة للاغتيال لكنه لا يبالي.. يركن إلى الأسوار التي يشيدها النظام لحماية العصابة..

ملاح المهمة التي من أجلها انتزعوني من عالمي الودع إلى عالمهم الصاخب أخذة في الاتصاح رويداً رويداً.. معالم الخطر الآت تعرفه العصابة.. كانوا يخططون لجرم كبير مع بداية عام 1988، يعرفون مدى النعمة التي سيجلبها عليهم هذا الحدث.. سوف يفعلون الجريمة الكبرى.. سوف يطلقون غاز الخردل على بقعة من أرض العراق ليحصد الموت الناس.. ناس العراق.. يالها من عصابة سنادرة في غيها.



7 | الخوف من الافتيال

● علي حسن المجيد هو ابن عم صدام حسين.. ولد وتربى في تكريت أيضاً.. لولا قليلاً من الاختلافات لكان نسخة من صدام.. الشبه بينهما كبير.. والاختلافات قليلة: متماثلان في طول القامة، ولون شعر الرأس وهيبته والذقن كذلك.. ربما أكثر ما يلاحظ من فروق ذلك «الكرش» المتضخم الذي يحوزه علي حسن المجيد.

علي حسن المجيد خدم في السبعينات كنائب ضابط في جيش الرئيس أحمد حسن البكر.. واتصف كغيره من نواب الضباط بالضراوة والوحشية خاصة مع الثوار الأكراد.

أكراد العراق يحملون السلاح دفاعاً عن هويتهم.. يناضلون في سبيل حق تقرير المصير كبقية أبناء جلدتهم الموزعون في سوريا وتركيا وإيران وماكان يسمى بالاتحاد السوفييتي.

(البشماركا) مقاتلون أشداء خاضوا قتالاً عنيفاً ضد النظام بعد وصول أحمد حسن البكر إلى رأس السلطة.. والبشماركا ترجمة لكلمة كردية تعني (الذين ينظرون إلى الموت بأعينهم).

وكان هؤلاء المقاتلون الأكراد يشنون الهجمات المتوالية متسلقين من مخابئهم في مرتفعات شمال العراق، منطقة كردستان العراقية الغنية بالبترول كانت هدفاً دائماً لهم.. وكانت إيران في تنافسها مع العراق تقدم للثوار الأكراد العتاد والمؤن..

حكومة العراق تحاول بكل الوحشية والضرارة التي يتصف بها جيشها القضاء على الثوار.. تنطلق طائرات الميج والمروحيات لتدك مواقعهم.. تمشط ألوية المشاة المدججة بالسلاح المرتفعات.. تتعقبهم في كل مكان.. لكنهم يحسنون الاختباء ويعاونون قض مضاجعها..

علي حسن المجيد شارك في واحدة من الهجمات التي شنتها قوات المشاة.. ووقع أسيراً في يد قوات البشماركا.. وكان يجب أن يقدم على الفور، لولا أن القيادة الكردية ترددت في ذلك لأسباب قدرتها.. واستطاع أن يرشو أحد حراس سجنه .. مناه بمستقبل باهر في بغداد إذا ما ساعده على الفرار.. كشف له صلته وقرابته بنائب الرئيس في ذلك الوقت صدام حسين .. وبالفعل هرب ومعه الحارس.. إلى بغداد.. ولقى الحارس بدلاً من المكافأة جزاء سنمار.. قتل على الفور بعد الوصول إلى بغداد.

عاد الأسير إلى بغداد التي احتقت سلطتها به.. رقى إلى رتبة ضابط.. وساعده ابن العم في الترقى في سلم الحزب أيضاً.. وحفلت صحف بغداد بالإشادة ببطولته وضرارته في القتال ضد الثوار الأكراد، وعظمت من قدره، نسجت من قصة فراره خيوط ملحمة زائفة.

وهكذا استمرت الحرب الضروس بين الثوار الأكراد وحكومة العراق منذ بداية العام 1972.. إلى أن نجح صدام نائب الرئيس والقابض على مقاليد السلطة عام 1975 في عقد معاهدة مع الشاه رضا بهلوي بشأن شط العرب.. تخلت بغداد بموجب المعاهدة عن الضفة الشمالية للشط في مقابل تعهد الجانب الإيراني التخلي عن دعم الثوار الأكراد.. وهكذا أطلقت يد السلطة وقوى جانبها في مواجهة الأكراد الذين كانوا يمثلون

20٪ من جملة الشعب العراقي.. وبرزت مواهب المجيد الدموية.. سعى
ومعه عساكره يكرون ويفرون في كردستان، يشيعون فيها الخراب..
يحصنون الرؤوس بلا رحمة.. لا يفرقون بين ثائر يحمل السلاح وامرأة
تحمل صغارها.. الكل عندهم أكراد جزاؤهم القتل.. ولم ينبج أحد من
بطش ذلك السفاح إما مقتول وإما هارب يبحث عن غار يتوّه.. مئات
الآلاف شربوا من مناطقهم.. وهدأت العاصفة الى حين.

وكان أمام ذلك الدموي مهمة جديدة.. أرسله صدام إلى الجنوب حيث
ازدادت المعارضة لحكم حزب البعث.. الشيعة المتمركزون هناك ويتزعمهم
إمامهم آية الله باقر الصدر يصمون نظام بغداد بالكفر، ويجاهرون بشق
عصا طاعته.. واستضاف الجنوب الشيعي المعارضون لحكم الشاه في
إيران.. ومن أبرز المعارضين في ذلك الوقت الإمام آية الله الخميني..
أربعة عشر عاماً قضاها الإمام الهارب من إيران لاجئاً في العراق..
وكانت النجف المقدسة مستقره إلى أن مدت خيوط المصالحة بين بغداد
وطهران.. وتعهد صدام في معاهدة جديدة وقعها مع نظام الشاه
بالتضيق على اللاجئين الإيرانيين.. وكان نصيب الخميني الطرد من
العراق عام 1978.. إنتزع من النجف مهاناً فكانت باريس الوجهة التي
سعى إليها ليواصل تصديه لشاه ايران. شيعة الجنوب تزداد القلاقل في
صفوفهم ويزدادون نقمة على نظام بغداد السني.

عساكر النظام يدقون بأحذيتهم الثقيلة أرض النجف المقدسة، يقودهم
المجيد لاستئصال المعارضة الشيعية.. يقتلون قائد منظماتهم المسماة
(الدعوة) إلى السجن ومعه أخته.. وكان مصير الثلاثة الموت شنقاً..
وادعى النظام أنهم دبروا لمحاولة اغتيال صدام حسين.

آية الله باقر الصدر كان أول الضحايا، ورافقته أخته إلى النهاية، سحقت الآلة الدموية لصدام ثلاثتهم.. وأصدر النظام مرسوماً بتجريم حزب الدعوة.. وطورد المنتمين إليه.. وأمر المجيد بقتل المئات ليرجع الشيعة.. أكثر من عشرين ألف شيعي فروا هاربين إلى إيران في جنح الظلام يبحثون عن الأمان بعيداً عن بطش حاكم بغداد.. قد لا يرحب بهم نظام الشاه المتحالف مع نظام صدام، لكنهم كانوا يأملون في سقوطه، كما يأملون في سقوط صدام.. وقد تحقق ظنهم.. الإمام الذي عاش بينهم ورحل مطروداً إلى باريس، قويت شوكته هناك وازداد أتباعه، وحميت معارضته للشاه.. عاد عام 1979 منتصراً إلى إيران، سقط الشاه وقامت دولة الخميني الإسلامية على أنقاض إمبراطورية الشاه.. نظام صدام يناصب النظام الإيراني الجديد العداء.. ويبدأ في تحريض الأنظمة العربية عليه.. ويؤلب عليه في المجتمعات الدولية.

وانطلقت الحرب في 22 أيلول 1980.. حشد صدام على خطوط التماس ستة فرق مؤلفة من أربعمائة ألف رجل.. خطط العراق لتكون حرباً خاطفة.. لكن تقديراته لم تصب، واستمرت المواجهة الدامية ثمانين سنوات، ولا زالت النيران تكلل الأخضر واليابس على الجانبين.. ويكرر صدام دائماً أنه سوف يربح الحرب، لكن لأحد هنا في العراق يصدق أن نهاية قريبة لهذه الحرب المجنونة آتية.. متاعب النظام تتزايد والاكرد هناك في الشمال يواصلون شن هجماتهم على قواته.

في 16 آذار 1988 بعد أسبوعين من قياسي بئول نور لي كبديل لعدى في مباراة كرة القدم أرسل صدام وزير داخلية الجديد علي حسن المجيد إلى كردستان ليواجه هجمات الثوار الاكرد..

كانت خطة المجيد بالغة الإجرام، تفوق مثيلاتها من خطط النازي، عرض خطوطها على قائده صدام فوافقه عليها.. كان أساس الخطة - التي يعول عليها النظام للقضاء المبرم على المقاومة الكردية - هو استخدام الغاز السام. حُلقت المروحيات في سماء منطقة حلبجا.. أخذت تنشر الغاز السام وهي على ارتفاع لا يزيد عن عشرة أمتار.. أكثر من خمسة آلاف خنقوا على الفور.. لأحد استطاع من أهل حلبجا النجاة، الغاز القاتل يحاصرهم من كل اتجاه.. النساء، الأطفال والعجائز.. تكسست جثثهم على قوارع الطرق، وتحت أنقاض البيوت التي سوّيت بالأرض، احترقت الأشجار والحقول، ونفقت الحيوانات.. أي جنون هذا.. وأي بشر هؤلاء الذين خلت قلوبهم من الرحمة!!

وأطلق الناس على ذلك المجيد الأثم الذي قاد تلك المنبحة لقب (الكيمائي). كانوا يهمسون بالإسم وهم يتلفتون يمنة ويسرة والخوف يجتاحهم.

لا أحد في المكتب رقم سبعة يذكر ما جرى في شمال العراق، الكل يعرف لكن لأحد يتكلم.. وأنا أيضاً رغم المشاعر التي تجتاحني تجاه ما حدث بقيت صامتاً.. نظرات عدى تحاول سبر غوري.. يعرف أن جدي وجدتي أتيا من هناك .. من كردستان.. قال إنه يكره البشماركا.. قال أنهم شعب جبلي متوحش قاتل.. تعرضه إيران وإسرائيل.. مجرمون وعميان.. وقال مؤكداً وفاضحاً نية نظام أبيه: يجب القضاء عليهم كلهم.

أنا له رغم منبت جذاي كردي بغدادي، لا أنتمي لهؤلاء الاكراد المطلوب القضاء عليهم.. وهكذا.. يصنف النظام الناس وفق هواه.. هذا كردي شمالي، وهذا كردي بغدادي، له حق المواطنة لأنه وفي للنظام.

البشاعة التي اتصفت بها عملية المجيد قوبلت باستنكار لم يقتصر على الرأي العام العالمي، وإنما امتد ذلك حتى إلى الجدار الذي يتحصن خلفه النظام.. فسأل برات مدير الشرطة اعترض علناً على الخطة، كان موقف المجيد وزير داخلية النظام منه وثمانية وعشرين من مساعديه حاسماً، لقوا جميعهم المسمى المحتوم لمن يقول لا .. وزير الصحة رياض إبراهيم هو أيضاً اعترض على استخدام الغاز القاتل.. كان الرجل شديد الجراءة، وقف في جلسة لمجلس الوزراء في مواجهة صدام، طالبه بتقديم استقالته.. وجاء رد صدام على الفور.. سحب مسدسه من الجراب المعلق على خاصرته، أمسك بالرجل من شعر رأسه، لامس بقوة المسدس الفم وأطلق طلقة القاتلة.

خرست الأفواه المعارضة في العلن.. لكن محاولات الثورة على جرائم النظام لم تتوقف. المعارضة في الشمال الكردي والجنوب الشيعي تزداد ضراوة.. محاولات متعاقبة جرت لاصطياد الطاغية صدام لكنها فشلت.. وتعرض من قاموا بها لأبشع أنواع التعذيب ثم امتزت أجسادهم على أعواد المشانق.. ولم تنجح تلك المحاولات المسرحية التي كان يقوم بها للتقرب إلى الشعب.. توقفت جولاته في القرى ومحاولات التبسط مع الناس.

توقفت الجولات رغم أن النظام كان يحوطها بسياج أمني بالغ الإحكام.. مئات الحراس ينهبون إلى مكان الزيارة ليؤمنوه قبل وصول القائد، وزيادة في الحيطة لم يكن صدام ينهب دائماً.. كان يرسل واحداً من بدائله.. لقي أحدهم مصرعه فداءً لصدام في إحدى محاولات الاغتيال التي خطط لها حزب الدعوة الشيعي.. لهذا اختاروني.. الأمر إذن ليس

مجرد لعبة يتلهى بها عدى.. حياة ابن الرئيس غالية.. ومحاولات الإغتيال لا تتوقف.. يجب أن يكون هناك من يُعد ليكون الفداء حين يأتي الخطر. كان على بعد أحداث حلبجا أن أكون رهن أمرهم .. لا وقت للهو أو للراحة. البديل الثاني لصدام.. فواز العماري أصبح يظهر كثيراً.. أرى صورته تطل من شاشة التلفاز.. يشبه الرئيس كثيراً.. لكن العين الخبيرة تعرفه على التو. منعم حمد يتذمر كثيراً عندما يراه على الشاشة.. حسبه الأمني يقول إن اللعبة غير متقنة، وأن ثمة فروقاً يجب الالتفات إليها.. ليس منعم وحده.. المقربون من الرئيس كانوا أيضاً يلحظون أن البديل لا يتقن التشبه بالأصل الى حد المطابقة.

أعد لمهمة جديدة.. مهمة ليست على شاكلة ظهوري الأول.. على أن أزور الجبهة في يوم الاحتفال بمولد صدام.. في 28 نيسان سوف تعم الاحتفالات العراق.. الجماهير المغلوبة على أمرها عليها أن ترقص وتغني ابتهاجاً في يوم مولد الزعيم القائد.

وجهتي كانت إلى هناك.. إلى البصرة في الجنوب حيث معقل الحركة الثورية الشيعية.. على أن أزور اللواء الرابع المتواجد هناك.. على أن أستقل مروحية لتأخذني إلى هناك.

جاسم أحضر من الخزانة حلة عسكرية سوداء.. إرتديتها ولم أنس إحكام رباط جراب المسدس حول خاصرتي.. من المقرر أن نظير في العاشرة صباحاً.. في الموعد المحدد كنا في مطار صدام الخاص.. أقلعت الطائرة قاصدة اللواء الرابع، حطت في باحة مقره الرئيسي.. عند ميدان التدريب اصطفت الفرق لإستقبالنا.. قائد اللواء وضباطه واقفون في انتباه.. هبط أولاً منعم حمد، تبعه على التوالي: زياد حسن هاشم

الناصرى وسعدى دمام هزغ الناصري.. ثم الحراس، وهبطت أنا بعد الجميع.

خطا القائد نحوي وأدى التحية العسكرية.. تولى منعم مهمة تقديم الضابط الكبير لي.. استعرضنا حرس الشرف.. تدافع المصورون يلتقطون صور المشهد.. تابعوا بعدساتهم الحنيث أنذي يدور بيني وبين القائد.. أسأل عن حال الجبهة.. ويشرح هو الوضع العسكري.. ويعبر عن افتخاره بالدور الذي يؤديه، والشرف الذي ناله في ظل الرئيس القائد.. إسطوانة مكررة وبلا معنى تلك التي يريدها هؤلاء القادة.. يريدونها بطريقة تلاميذ المدرسة الأولية الذين يصيحون بنشيد الصباح مع كل مطلع يوم دراسي.. هذا القائد الذي يلهج بعبارات الثناء على القائد الأعظم صدام.. ربما لم تتح له الفرصة ليلقاه، ولا قابل قبل الآن عدى الذي جنته في صورته وملبسه.. وأجتهد في خداعه بطريقة كلامي، والأسئلة التي أطرحها، أما مايطرحه هو فكان سعدى دمام هزغ الناصري يتولى الرد على نيابة عني.. بقينا هناك أكثر من ساعتين في ضيافة قائد اللواء وضباطه.. عدنا بعد ذلك إلى بغداد.. قابلني عدى هناك بترحيب زائد.. غمرني بالثناء بعد أن شاهد تسجيلاً للقاء.. قال أنني رائع.. لقد وثقوا الآن بقدراتي وماهي المهمات سوف تأتي متوالية.

في السابع من أيار تأتي إلى بغداد وفود من عدة نواد عربية، وسيبقون لأيام.. وكان عدى قد نوى في نفس الوقت أن يزور أوروبا، ولا يريد أن يؤجل رحلته.. وقد أعد عدى ومستشاروه خطة خطيرة على أن أستقبل البعثة في المطار وأصحبهم إلى الفندق الذي سوف تجري فيه المحادثات.. سوف يحضر عدى الاجتماع الثاني ويدير الاجتماعات ليومين.. ثم يرحل

ويترك لي مهمة توديع الضيوف كما استقبلتهم.

وقفت في موعد وصول الطائرة محاط بالحراس في صالة الاستقبال أنتظر هبوط طائرة الضيوف.. كلهم رؤساء نواد رياضية قادمون من دول عربية.. كان على أن أستقبلهم باعتباري عدى.. صافحتهم ولم ألمح انتباهاً من أحدهم أنه يقبض على كف البديل وايس عدى.. وحده المدير الكويتي فاجئني بما أريكني.. قال أنه ينقل لي تحيات صديقي فهد، ويسألني إن كنت أود أن أنقل له عبره شيئاً ما.. أي فهد هذا!!!. لأعرف أن لعدى صديقاً كويتياً يدعى فهد.. إكتفيت بإيماءة وابتسامة، ثم التفت إلى منعم أطلب عونه.. في السيارة أوضح لي الأمر.. قال أن المعني بالحديث هو فهد الأحمد الصباح شقيق أمير الكويت ويشغل منصب نائب رئيس اتحاد كرة القدم الدولي (FIFA).. ورئيس اللجنة الأولمبية الكويتية، عدى يعرفه من سنوات..

صحبت الضيوف إلى مقر النادي الأولمبي ثم تسلمت عبر باب خلفي وتركت عدى يتابع المهمة.. لم يلاحظ أحد أي شيء.. بعد أن تناول معهم طعام الغداء التقاني في غرفة جانبية.. قال إن هؤلاء الأشخاص معلون وإنه على أن أصحابهم بدلاً منه إلى فندق عشتار شيراتون الذي سوف تجري فيه المحادثات.. وعاد إليهم في المساء للتباحث.. في صباح اليوم التالي قرر أن يطير إلى أوروبا قبل مواعده المقرر.. حاول منعم حمد أن يقنع عدى بالبقاء.. قال أن المسألة خطيرة.. لكن عدى كان قد اتخذ قراره بالرحيل.. إكتفى بالقول: يجب على لطيف أن يتابع المحادثات.. وأضاف متوعداً. قال لعزام: إذا فشل في المهمة عليك أن تلقي به فريسة للكلاب.. قالها بحدة وانصرف.. لم تكن المحادثات وحدها.. كان على عدى أن

يحضر مباراة ودية يوم التاسع من أيار.. من المقرر أن يقابل فيها الفريق الدولي العراقي فرقة أوروبية.. سوف يأتي الفريق الأوروبي يوم الثامن من أيار إلى بغداد.. أرسل عدى اعتذاراً للوفود العربية عن مواصلة المحادثات لسبب لم يشرحه لي أحد.. وذهبت أنا إلى المطار أستقبل الفرقة الأوروبية.. أخذتهم من هناك إلى الشيراتون حيث تقيم الوفود العربية.. مر الأمر بسلام.. رغم الفوضى التي أحدثها السفر المفاجيء لعدى.. صحف الصباح حفلت بأخبار وصور اللقاءات.. وامتلت بالثناء على عدى وجهوده الرياضية.. كانت أكثرها توسعاً في ذلك صحيفتا البعث الرياضي وبابل.. الصحيفتان لاتخضعان لإشراف وزارة الاعلام كبقية الصحف العراقية، يملكهما عدى ويدير تحريرهما نيابة عنه عباس الجنابي، منحه شرف هذا المنصب على سبيل الترضية.. فقد تعدى عدى على ابنة أخيه الطالبة في كلية التربية الرياضية واغتصبها..

بعد الظهر بقليل امتلأت مدرجات ملعب الشعب.. جلست في المقصورة الرئيسية ومعى الضيوف العرب.. بدأت المباراة بين فريقنا والفريق الأوروبي.. خسر فريقنا المباراة وضاعت سدى ضيحات الجمهور الذي أخذ يهتف له في المدرجات مشجعاً.. عار كبير.. لا يتحملة النظام الذي يؤكد على مسامع المشرفين على الفرق الرياضية، أنه يجب على الفرق الرياضية العراقية ألا تخسر أبداً.. لايعرف معنى للروح الرياضية التي تسلم بأن الخسارة والمكسب في الرياضة متداولان.. وكان على أن أنزل إلى أرض الملعب لأوزع الهدايا على أفراد الفريقين، وأن أدعوهما للعشاء في الشيراتون.. تصرفت طبقاً لما هو مرسوم. العشاء تم وفقاً للبروتوكول المعد سلفاً.. الأمور لازالت تجري بسلام.. في صباح اليوم التالي للمباراة

صافحت أفراد الفريق الزائر وودعتهم حتى باب الطائرة التي أقلتهم ليعودوا إلى بلدهم.. تنفست الصعداء.. عدى سوف يكون راضياً عني عندما يرجع من عطلته.. أدائي اتسم بالجودة، هكذا قلت لنفسني.

أعيش هنا لحظات الخطر.. وهو هناك في العاصمة السويسرية.. يستمتع بنعيم جنيف.. جنيف التي تسحره، ويطير إليها مرات عديدة في كل عام.. يعيش ضخبها وهدوؤها.. ينزل ضيفاً على عمه برزان.. برزان التكريتي الأخ غير الشقيق لوالده.. يعيش هناك في جنيف ممثلاً للعراق في الأمم المتحدة.. ذهب إلى هناك بعد أن أقصى من المنصب الذي كان يشغله.. رئيس المخابرات.. الناس تعرف في العراق عنه أن له إلى جانب وظائفه المعلقة وظيفة أهم.. كان يدير ثروة الأسرة العصابة، كان الناس يسمونه في همساتهم وزير المالية السري .. يعرفون أن وجوده في جنيف كسفير مجرد غطاء للمهمة الأعظم.. مهمة تحويل أموال صدام من العراق إلى سويسرا.. التعامل مع تجار السلاح الدوليين، الدخول إلى عالم المتاجرين في أسرار الأسلحة الذرية التي يسعى العراق لامتلakها.

وعاد عدى في 18 أيار تصحبه مضيضة طيران اسمها ميلاد.. لم يكن رائق المزاج.. دخل إلى غرفته ومعه الفتاة.. عرفت من حراسه أن الكدر البادي عليه يرجع إلى خسارة كبيرة ألت به.. خسر على طاولة اللعب الخضراء في واحد من كازينوهات القمار التي يرتادها كلما ذهب إلى أوروبا.. عاد مهموماً وكذلك من كانوا في صحبته: مؤيد، زيد كمونة، أحمد كولا، دريد غناوي وطاقم طائرته الخاصة، وكذلك ميلاد المضيضة الجميلة التي ضاجعها لمرات فأعجبتة وعينها رئيسة للمضيفات لتكون في صحبته دائماً.. كانت الفتاة أنموذجاً للجمال الكامل.. مشوقة القد، طويلة القامة،

شعرها البني ينسال في رقة على الكتفين.. شفاهها كحبتى كرز..
شرايينها تكاد تبين من خلف بشرتها الشديدة البياض .. كل هذه العلاوة
لم تكن قادرة على تبديد الكآبة التي أحاطت الفتى من جراء الخسارة
الفاحشة.. كم بلغت.. الله أعلم.. لكنها ربما اقتربت من المليون دولار.. فهو
يحب المجازفة.. والذين يديرون الكازينوهات التي يرتادها كانوا يزينون له
الأمر.. يحجزون له في كل مرة طاولة خاصة.. ينحنون في تائب
ويستجيبون لرغباته الحقا.. فهو صيد ثمين.. من أجله يفضون الطرف
عن قوانين اللعب وتقاليده يسمحون له بالمراهنة بمبالغ تفوق ماتحده
لوائح الكازينو.. يلعب هو كالمثوم .. تعلق الصرة وجهه ويتطاير الشرر من
عينيه.. لا يحتمل أن تخرج مقاليد الأمور من بين يديه.. تعود أن يكون
مسيطرأ.. لكن على حافة المائدة الخضراء الأمر مختلف. الفتى خارج
عرينه بغداد.. والذين حول مائدة الروايت ليسوا حملة مباحر أو خدماً في
قصر السلطان.. رجال من جنس آخر لم يآلفه.. متأذبون في برود..
متهذبون في أنفة.. يزيحون «فيشات» اللعب جانبا بلباقة.. يوقع الشيك تلو
الآخر بعد أن خلت جيوبه من المال السائل.

حاول عمه برزان والذي رافقه هذه المرة الى الكازينو أن يمنعه ليقفل من
حجم الخسارة.. لكن الفتى المعاند أبى.. أصر أن يلعب ويخسر إلى أن
بلغت الخسارة أربعة ملايين دولار.. هذا ما أكده من كانوا هناك.. وكان
يمكن أن تتضاعف الخسارة لولا العم برزان الذي قرر أن يضع حداً
للمأساة.. قام مغادراً وخلف الفتى إلى جوار الطاولة.. ولم ينس أن يأخذ
دفتر الشيكات معه.. استشاط عدى غضبا فقد حيل بينه واللعب عنوة.. لا
مال سائل ولا شيكات.. وكانت الفرصة مواتية.. كان هناك من ينتظر

الصيد في الماء العكر.. لاعب آخر من أصول عراقية يعيش حياة الفسق والفجور.. قال للفتى إنه مستعد أن يقرضه مليون أخرى مقابل أن تكون ميلاد له هذه الليلة.. إلتفت عدى إلى ميلاد وهز رأسه موافقاً.. عرفت ميلاد ماذا عليها أن تفعل.. عليها أن تذهب إلى فراش الرجل وفقاً لرغبة فتاها الذي أصبح قوياً في مقابل مال يواصل به اللعب على المائدة الخضراء.. المائدة التي حولت ابن الرئيس ورئيس اللجنة الأولمبية العراقية إلى مجرد قواد.. ياله من عار.. حتى هذه المليون الجديدة خسرتها أيضاً.. عاد مهموماً وثائراً.. دلف إلى مكتبه والفتاة برفقته مهاضمة مكسورة.. صرخاته المجنونة تأتينا عبر الباب المفتوح.. رسمعها عالية ونحن هناك عند المسبح. كأن يصرخ في الفتاة: ماذا فعل بك الرجل.. قل لي ماذا فعل؟.. الفتاة لا تنطق رغم حدة الصراخ، وقسوة اللكمات التي يكيلها لها عدى في غمار احتياجه.. لكن قدرتها على الاحتمال توهنها الضربات فتنتطق وهي تنوح: قال لي إن عدى متعجرف ومتعصب.. إشتري لي ليعلمك درساً.. نعم لقد قال لي ذلك.. ها أنت عرفت لماذا؟ وازداد نحيبها حتى غطى على صراخه.. سكت الصراخ والنحيب وخرجت الفتاة.. أخذها الحراس إلى المجهول. وخرج عدى ولا زالت النار المتأججة داخله لم تخبو.. وقف في مواجهتي وسأل عن مباراة الفريق العراقي.. فزاد هياجه لما عرف أن الفريق منى بالخسارة.. كال لي الضربات.. حاولت أن أقول أن اللعب مكسب وخسارة.. ضاعت كلماتي في الهواء.. الثور الهائج غير عابئ لا يتوقف.. أمر عزام أن يأخذني.. قادني إلى سجن في المقر الرئاسي.. أبقوني هناك قرابة أسبوعين.. السجن مختلف هذه المرة.. الغرفة واسعة والطعام جيد.. الحراس عاملوني بطريقة حسنة.

أعادوني إلى النور ثانية.. أخذت هذه المرة إلى بناية جديدة مؤلفة من تسع طوابق، عمارة «الحياة»، المخصصة لأعضاء جهاز الأمن الخاص.. منحوني شقة في البناية.. الشقة كانت كافية.. غرفة إستقبال، وغرفة مكتب.. وثالثة للنوم.. وكانت مؤثثة بطريقة فاخرة.. وجاء عدى لزيارتي.. كان ووداً وهادئاً على غير عادته.. وتكررت زيارته لي في شقة «الحياة».. مرات يكون وادعاً وبالغ اللطف ومرات أخرى تعاوده الحدة.. ينظر إليّ بإمعان.. يقول بصوت جهوري متوعد: لا تتدخل في أموري الخاصة، عليك بإطاعتي وليس مناقشتي.. يقول هذا بون مقدمات وبلاأسباب مفهومة.. وكان على أن أتحمّل وده وهيجانه معاً.. فهذا قدرى.



8 | الامتداء

● 18 حزيران، بعد الظهر بقليل، جاعني من على الطرف الآخر للهاتف صوت عدى.. قال لي أنه سوف يرسل من يصطحبني في المساء.. وطلب أيضاً أن أحلق لحيتي وأترك شاربتي، وأرتدي حلة حارس عادي .. كان رقيقاً فني محادثته، بعد أن أنهى تعليماته حول المهمة سأل عن أحوالي .. بقي المدة الأخيرة داوم على ملاطفتي.. جاهد ليخفي آثار ما صنع بي في ثورته الأخيرة.. وعرض على الانتقال إلى شقة جديدة في مجمع القادسية، شقة أكثر اتساعاً.. مجمع القادسية مخصص أيضاً لجهاز الأمن الخاص.. زرت الشقة.. فاخرة حقاً ومتعددة الغرف، غرفة استقبال كبيرة، غرفة مكتب تجاورها غرفة إستقبال أخرى، وعدة غرف للنوم والمعيشة.. يقوم على خدمة الشقة مجموعة من الخدم.. على أن أهنأ بما يتحونه الي من أسباب السعادة.. لكن كيف!!.. قبل أربعة أيام، في 14 حزيران، أتممت السنة الرابعة والعشرين من عمري.. في مثل هذا اليوم كانت أسرتي تحتفل بعيد ميلادي، جلست وحيداً في الشقة.. يملؤني الملل وتفشائي الكتابة.. أخذتني الأفكار بعيداً.. ماذا لو كنت اليوم بين أسرتي.. ترى كيف كانوا سيحتفلون بهذه المناسبة.. هذا يوم عظيم القدر لهم.. فيه ولد ابنهم الأكبر الذي يعزونه.. كانوا سيستأجرون صالة في أحد الفنادق ويأتين بفرقة موسيقية ومغنين وراقصات.. اليوم يوم خميس.. وكان ذلك سوف يجعل الأمر أكثر بهجة.. أيام الخميس في العراق لها ألق خاص.. نهاية أسبوع من الكد والعمل الدؤوب.. من حق الناس أن يغتسلوا

من عنائهم.. يرتادون الفنادق.. ويذهب بعضهم إلى البارات ونوادي اللهو التي تسهر حتى صباح الجمعة.. يوم الراحة الأسبوعي.

كل فنادق العراق تحرص على أن توفر لروادها أسباب المتعة.. بارات ونوادٍ ليلية.. مغنون وراقصات.. في هذا اليوم.. لو لم أكن هنا وحيداً أعب من كأس الوحدة لكنت هناك محاطاً بالأهل والأصدقاء.. الأصدقاء.. أهة تخرج من صدري.. أين هم الآن.. هل لا يزالون ينكرون بعد فتى يدعى لطيف.. أحاضرة لديهم أيام لهونا وجدنا.. أم بهتت الذكرى بفعل شهور الانقطاع.. أعب الكأس تلو الكأس.. أعالج آلام نفسي.. حرارة الويسكي تسري في خلاياي.. تحررني من الألم والوساوس.. وتهالكت مهوداً على الفراش، رحت في نوم عميق، قضيت أياماً ثلاثة فاتر الهمة معلولاً.. إلى أن دعاني على الهاتف.. كنت أتوقع المكالمة.. اليوم هو الثامن عشر من حزيران.. في مثل هذا اليوم ولد عدى.. أعرف شغفه وعشقه للبهجة.. كنت أعرف أن يوماً كهذا لن يمر دون احتفال.. وأي احتفال.

هناك في المكتب رقم سبعة .. خلية نحل تتبارى ليكون الحفل لاثقاً بالسيد.. نمير التكريتي يضع اللمسات الأخيرة؛ طلاء جديد، فراش أكثر بهاءً.. بإقاعات زهور نضرة تحفل بها الأركان.. صناديق الشمبانزا مكدسة إلى جوار المسيح.. هذه هي المرة الأولى التي يحتفل فيها بعيد مولد عدى في هذا المكان.. جرت العادة أن يجري ذلك في أحد نوادي بغداد الواسعة، وكان الناس يحشدون برغمهم أو برضاهم للمشاركة.. وتشيد الصحف والإذاعة والتلفاز بمولد الفتى ابن القائد.

الفتى حياته كلها وليس يوم مولده حافلة .. وفر له نظام الوالد كل أسباب العزة والافتخار.. وضعت تحت تصرفه أموال طائلة، وتوفر على خدمته مرتزقة النظام.. يزينون له كل أنواع المبادل والفحشاء.. يعيشون

به ومعه في مستنقع الرنيلة والإثم.. حاز القوة والجاه مسنود الظهر إلى جدار أبيه الصلد، وتحرسه يد أمه الواسعة النفوذ.. ولد مدلاً، ونرعرج محاطاً بكل الاهتمام رغم افتقاره لأي امتياز.. العقوق والتمرد لازماه منذ أن كان صبيّاً.. أرق الملعين طوال سنوات الدراسة.. إنصرف عن تحصيل العلم إلى المشاغبة وإظهار التفرد.

كان فظاً ومقززاً حتى أنه وهو في سن الرابعة عشرة دأب على التبول في ساحة المدرسة على مرأى من الأساتذة والتلاميذ.. وبلغت قحته حدّاً جعله وهو في سن الخامسة عشرة يعيّن من يحضر له البنات ليلهو معهن.. دأب على المباهاة بالقدرة على استخدام السلاح، ووقف وهو في سن السادسة عشرة في ساحة نادي العلوية يطلق في الهواء النار من كلاشنكوفه وسط تصفيق حاد من المتلقين للنظام وسدنته.. هذا هو الفتى الذي مقدر علينا أن نرسم على وجوهنا علامات الفرحة اليوم إحتفاءً بمولده.

وقفت أمام المرأة وشرعت في حلقة لحيثي كما طلب.. حدثت في وجهي وأسنانني الصناعية.. الأفكار حول صاحب الحفل تلاحقني وتبني الانصراف.. أسأل نفسي مجدداً لماذا يعشق الفتى هذه الحياة الصاخبة.. نمط لا يتغير.. ينهض من فراشه قبل الظهر بقليل.. يتناول وجبة الغداء غالباً في المكتب رقم سبعة وأحياناً في أحد النوادي.. بعدها ينطلق بزمريته.. يقتحمون مقاهي بغداد ليعبثوا.. ثم يخرجون إلى مدارس البنات وجامعات المدينة لينتقوا له الفريسة.. أحياناً يجولون الشوارع لاصطياد فتاة شاء حظها العاثر أن تتواجد لحظة تسكعهم.. ينزل الفتى ويسير إلى جانبها.. يحاول إغرائها وإن لم تستجب يرسل واحداً من أتباعه ليعيد المحاولة، وإن تعادت في الرفض يأمر بخطفها، شبيه للجنس

كان يدفعه إلى سلوك مشين.. يأتونه بزمرة من الفتيات دفعة واحدة لينتقي فريسته، أو ليجبرهن على ممارسة الجنس الجماعي.. يبدأ ليلته بالخمور وينهيها بها.

يبدأ يومه بطقوس معتادة .. يدير قرص الهاتف ليتلهى مع الفتيات.. يقوم بعدها إلى خزانته لينتقي حلة اليوم، يقف إلى جانبه جاسم ذلك المخنث، مستشاره في شؤون الملبس.. يتناقشا بحدة حول أشياء تافهة.. رباط العنق هذا لا يناسب القميص، هذا القميص نقوشه لا تتناغم مع خطوط الحلة.. وهكذا يمضيان وقتاً طويلاً حتى يقررا مايجب أن تكون عليه هيئة السيد المبجل في هذا اليوم.. الساعة هذه أم تلك .. الخاتم المحلى بالفص الأزرق أو المائل إلى الحمرة.. السلسلة الذهبية المدلاة أم المحبوكة على العنق.. يتناقشان بحدة وكثهما سوف يقرران أمور الحرب والسلام.

كان الفتى يملك أكثر من حاجته.. لكنه رغم ذلك كان فارغ العين كما يقول المثل.. لا يطيق أن يرى مخلوق آخر أكثر أناقة، أو يحوز ما يشد الأنظار إليه.. كان فتانا على الفور يأمر حراسه بإزاحة المنافس.. يفقد السيطرة على امتلاك زمام نفسه إذا ما رأى أن واحداً آخر يملك سيارة لا يملك هو ما يماثلها.

واعتاد الآخرون سلوكه.. قبلوا به راضين أو مكروهين.. فتية النوادي التي يرتادها كانوا يحاولون أن يتجنبوا ما يجعلهم وقوداً لناره المتأججة على الدوام.. تكية الدراويش، الصيد، الزوارق والعلوية.. ليس رواد النوادي وحدهم بل وأيضا نزلاء فنادق بغداد وحاناتها ونوادي المجون.. كلهم يعرفون طباع عدى، ويعرفون أكثر كيف يتصرفون في حضرته.. يقفون إجلالاً لحظة تشريفه المكان.. لا يرقصون إلا إذا أمر .. وتنزاح كؤوسهم

جانبا انتظاراً لارتفاع كأسه.. غالبا مايأتي مصحوباً بكوكبة من النساء.. ثمان أو عشر.. يأتي بهن إلى صالات الرقص في فنادقه المفضلة بابل أو بروي، الرشيد والمريديان.. تخلق ساحة الرقص له ولفتياته.. يشهد الرواد سلوكه المشين مع حريمه.. تضرب آذانهم كلماته الساقطة.. يهتز منتشياً فتتلاحق طلقات مسدسه على إيقاع الموسيقى، تحفر العلامات على الحائط والسقف.. أحياناً يتمادى في غيه فيصوب المسدس إلى أقدام الخدم والسقا.. خاصة إذا كانوا مصريين.. هو يكره المصريين.. ويصفهم بأنهم طاعون.

عدى يشعر خلال سهرات مجونه أنه قوي وقادر.. هو ابن صدام مالك هذا البلد.. يقتفي أثره في المباهاة بالقوة وبما يحوز.. يسبح في بحيرة غروره ويفاخر بسلطانه، يراه في كل زاوية وعند كل ناصية، صوره وتماثله منصوبة في كل ميدان وعلى ناصية كل شارع.. يسمع الثناء عليه عبر المذياع والتلفاز كل ساعات النهار.. المذيع الشاب يفتح برنامجاً بقصيدة مديح يعدد فيها ألقاب القائد، صدام الرئيس، القائد الأعلى، بطل القادسية، فارس الأمة العربية، الفارس المغوار، البطل المهاجم، خليفة رسول الله، المقاتل الشريف، المنحدر من سلالة الإمام الحسين بن الإمام على بن أبي طالب.. فكيف لا يباهي عدى بهذا الأب وهو غارق في بحر تلهج أمواجه وتتدافع للثناء على ذلك الوالد.

ولد الفتى وبين أصابعه ملعقة من ذهب.. تدرج في سنوات طفولته محاطاً بكل أسباب الرعاية.. قطاره المسرع لم يتوقف عند محطات المعاناة كبقية الأطفال.. لم يحفل بدرس.. رأسه الصغير مشغول بما هو أكثر إمتاعاً وأقل مشقة.. رغم ذلك كان يحوز المركز الأول دائماً في المدرسة، وحتى عند تخرجه من الهندسة حاز لقب المهندس رغم أنه لا

يعرف كيف تُستخدم لوحة الرسم .. أنكر ذلك اليوم المشهود.. أقامت الجامعة حفلاً حضره أساتذة جامعات بغداد.. ولم يكن مسموحاً للطلاب بحضور الحفل.. إلا طالباً واحداً بالطبع عدى .. لم يكن مجرد طالب.. لقد منحوه ويا للسخرية لقب المدير الفخري للجامعة.. تقديراً - هكذا تقول الرواية الرسمية - لتمويله بناء جامعة صدام للهندسة.. وتمانوا في تملق النظام فعينوا الفتى ابن الثالثة والعشرين أستاذاً في الجامعة.. وتقدم مازن عبد الحميد باقتراح انتخاب عدى صدام رئيساً للجامعة فتم إجازة ذلك دون أن يعترض أحد .. عدى الذي لا يجيد كتابة جملة مفيدة عين رئيساً للجامعة.. أي عبث هذا!! .. لكن لا أحد ممن صدمتهم وقاحة النظام قادر على التبرم فضلاً عن الاعتراض فيد النظام ثقيلة وعقابه حاضريحوم حول الرؤوس.

وينفس الطريقة العابثة انتخب على رأس الاتحاد الأولي العراقي.. أنتخب وهو لايعرف الفارق بين كرة القدم وكرة السلة.. ياله من واقع مؤلم.. شريط بالغ الطول وحافل بالكوميديا السوداء مر أمام ناظري وأنا واقف أعد نفسي لاحتفال مولد الفتى.. أنهيت تصفيف شعري.. خطوت إلى خزانة الشراب وأعددت لنفسني كأساً.. تهالكت على الأريكة.. حان موعد الغداء لكن لا رغبة لي في تناوله.. للمرة الأولى ألحت علي رغبة مفاجئة في تسجيل بعض ملاحظات عن الفتى.. أخذت في الكتابة على قصاصات كانت على المنضدة.. أجترت علاقتي بالأشياء والأشخاص الذين أعاشهم في هذا العالم العابث إلى حد المساة.. منعم حمد وحده الذي باستطاعة المرء أن يركن إلى الثقة به.. الضابط الوحيد الذي لاحظت أنه رغم معرفته بكل خفايا اللعبة ومشاركته فيها.. لاحظت أنه يعاني المأ مكتوما تموج به جوانحه من جراء تلك المشاركة.. يحرص على موبتي

وكأنه يعتزلي أول نفسه..

- أسجل أول ملاحظاتي عن ذلك المدعو عباس الجنابي مدير صحف عدى.. قهقهت طويلاً وأنا أكتب اسم الرجل .. قابلت ذلك المغفل مرة في النادي الأولمبي.. كان يرى خزيه في عيون الآخرين فيتظاهر بالقوة.. كان يعرف أن الكل يعرف أن عدى لم يعينه في منصبه هذا إلا جبراً لخاطره المكسور بعد أن اغتصب ابنة أخيه.. عينه مديراً لصحيفتي بابل والرشيد اللتان يرأسهما عدى.. عدى الذي تصور أنه كاتب كبير، وشبه نفسه في أحد اجتماعات الكتاب بالشاعر الكبير الجواهري.. لقد أوهمه المتعلقون بذلك، كتبوا له عروضاً لبعض الكتب وجعلوه يقدمها باسمه.. وكان من بينها كتاب جده العظيم خير الله الطلفاح، الكتاب الذي يحمل عنوان «ثلاثة أشياء لم يكن عليها أن توجد.. الفرس، اليهود والذباب الأزرق». هذا الجد يمثل للأسرة أهمية بالغة.. صاغ ملامحهم وانطبع تأثيره على سلوكهم.

- أكتب على ورقة جديدة اسم هذا الجد.. خير الله الطلفاح.. ترى من هو هذا الرجل الذي يكره الفرس واليهود والذباب الأزرق كراهية البشر للطاعون؟! نشأ الرجل في تكريت وشارك وهو ضابط في الانتفاضة التي قامت في وجه الملك الهاشمي فيصل الثاني عام 1941.. جُرد من رتبته وطرده من الجيش.. وشهدت الشوارع نشاطه الإجرامي كسارق يسعى لسلب الأموال، في كنفه تربي صدام.. تربي في بيت الخال السارق فانطبع السلوك المنحرف في رأسه الصغير، وكان البداية لمسيرته ولسلوك ابنه عدى فيما بعد. أكتب في الورقة مايدور في ذاكرتي.. تحضرني وقائع كثيرة رواها لي عدى عندما تآلفنا في سنوات الدراسة، رأيت ألا أتوقف عندها كلها حتى لا تأخذني بعيداً عن الخطوط التي أردت

تسجيلها.. خير الله كان لديه ابن، عدنان خير الله، جمعت بينه وبين صدام
الصداقة إلى جانب صلة الدم.. في بغداد التي انتقلت إليها أسرة الخال
ازداد صدام صلة ببيت خاله.. البنت الكبرى ستكون زوجة المستقبل..
العائلة تيسر حالها وامتلكت أسباب القوة.. تزوج صدام ساجدة عام
1963 ورزق منها بطفله الأول عدى بعد عام واحد من الزواج، ثم بعد آخر
جاء شقيقه قصي. تقفز إلى ذاكرتي العلاقة بين عدى وقصي، جدّ
مختلفان.. قصي هادئ في البيت وفي المدرسة، متوقد الذهن، محبوب
ومفضل عند الأب صدام، مما كان يثير عليه حفيظة عدى.

عدى العدوانى كانت الإقامة في بيت الجد خير الله تروقه، يفضل أن
يتدرج في كنف الجد المفعم بالعوانية والقسوة.. وكان يفاخر بهذا الجد..
كان يقول لنا في المدرسة وهو منتفخ الأوداج: جدي علم أبي أن يقتل كل
أعدائه.. ويضيف: إنظروا فقط حتى أصبح أنا رئيساً، سوف أكون
أقسى من والدي، سوف تفكرون في هذا الكلام كثيراً، ساعتها سوف
تتمنون عودة صدام حسين.

تتماوج المشاعر داخلي.. تضرب بعضها بعضاً.. لماذا قدر على أن
أعوم في بحرهم المتلاطم.. أقفز من جلستي قاصداً المرأة.. أحديق فيها..
أفتش عن ذلك الغائب.. عن لطيف يحيى.. لكن المرأة تأبى أن تمنحني
غير صورته.. صورة عدى.. ماذا لو صدق ماحدث به ذلك الفتى المغرور..
ماذا لو فعلاً تربع على العرش الذي يشغله أبيه!!.. بالقطع ستكون
نهايتي.. الناس في العراق يكرهونه كما لو كان طاعوناً.. كيف ستكون
مشاعرهم عندما يأتيهم ليكون الطاغوت الأكبر.. والده أحكم قبضته على
البلد.. وهو كذلك سيفعل.. بعد أن انفرد الأب بالسلطة عين ابن الخال
والصديق عدنان خير الله وزيرا للدفاع.. وأصبح الخال طلفاح محافظاً

لبغداد.. وهكذا زرع في بقية المناصب الأهل والأتباع.. وكذلك سيفعل
الفتى.. يعاودني الألم.. أستعين بكأس من الشراب.. أترك أوراقى جانبا..
أحتاج إلى ما يصرف الأفكار عني .. ذهبت إلى الحمام لأغتسل قليلاً..
عدت للتذكر والكتابة.

«من أين يأتي هذا الجنون؟ لماذا عدى هكذا؟»

سارت حياته على وتيرة واحدة.. شغله الشاغل النساء والسيارات، مرهق
لنفسه وللآخرين.. القسوة التي تسلك من الجد إلى الأب أخذت بتلاييب
الحفيد.. رأس المعاصي هو الجد خير الله.. مثله الأعلى الذي فاخر به
وهو بعد صبي في سن الثالثة عشر، كان يحدثنا عن بطولاته المزعومة..
كيف كان يتعامل مع الإنجليز دون تفاهم.. كيف أنشأ في بغداد عصاة
مافيا تكريت، يفاخر به وهو مجرد لص يفرض سيطرته على شوارع
بغداد .. هذا اللص المثل الأعلى لصدام ولعدى.. علمهما قانون القتل..
وأجاد صدام التعلم حتى قبض على مقاليد السلطة.. وعدى تشرب
الدرس.. بإرادته حيناً.. وبإرادة الأب الحديدية في غالب الوقت.. لا يتهاون
الأب حتى مع أخطاء الصبي الصغيرة، كان يوسعه بضربات متلاحقة
بالعصا الحديدية، لولمح في عينيه نرة خوف أجبره على الجلوس مشنوداً
أمام شاشة عرض أشرطة الفيديو ليشاهد أفلام القتل والتعذيب.. وكان
الصبي كلما ضاق عليه الخناق سارع بالفرار إلى بيت الجد خير الله.. إنه
يفهمني.. يستمع إليّ .. يهتم بي .. ذلك ما كان يقوله عدى.

الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر.. ساعتان ويتأون لأذهب في
صحبتهم إلى المكتب رقم سبعة.. أرتب أوراقى.. أراجع مابوثته.. أه لقد
خانتني الذاكرة.. كيف نسيت الأم.. كان الفتى يتكلم يوماً عنها ويمدحها
كما لو كانت تمثالاً من العاج.

أم عدى، ساجدة، لم تظهر برفقة صدام في العلن أبداً.. تمارس دورها محجوبة خلف الستار، الزوجة والأم.. ولم يكن الزوج وفيّاً كذلك.. كان كولده يعشق النساء لكن من وراء حُجب.. كامل حنا خادمه الوفي المعين ليتنوق الطعام أولاً كان يأتي لسيدته بالنساء سراً.. وتكتم سيد القصر وخادمه السر طويلاً.. إلا أن واحدة من النساء تدلّه في حبها رفعت الغطاء عن بئر الأسرار.. كان يعشق زوجة وزير الثقافة والإعلام حامد يوسف، لاعبة التنس.. كان عدى يشعر بالمرارة ويعلم كراهيته للخادم كامل حنا.. كان يقول متوجعاً: إنه يأتي بالنساء لوالدي.. ويدمر والدتي.. كأن يصرخ بذلك وهو ممدد قرب المسيح في الثالثة صباحاً.. وكان يقول أيضاً أن جده لن يترك الخادم.. سوف يقتله.

أفكر طويلاً.. ترى من سيأتي ليشارك في الاحتفال.. الوالد والوالدة بالقطع لن يأتوا وأخوه أيضاً.. ظهور العائلة مجتمعة خارج القصر خطر.. المكتب رقم سبعة ليس كالقصر مهما بلغت درجة تأمينه وحمايته.. بالتأكيد أقاموا حفلهم الخاص.. هناك في القصر.. قبل أيام اجتمعت الأسرة واحتفلات بعدى لتعوض تخلفها عن الحفل الكبير.

سياسيون كثيرون لن يأتوا أيضاً.. سمعته السيئة وأفعاله المشينة جعلت أقطاب المجتمع الراقي في بغداد يحرسون على تجنب مجالسه.. مخافة أن يطولهم الرزّان.

قلت لنفسى: لو كانت لائحة الضيوف حافلة لما دعاني أنا.. مثيله.. أو أنه واثق من نفسه لدرجة أنه لا يهتم أن يعرف الآخرون أن لديه بديلاً.

على كل.. هكذا قلت لنفسى.. المسألة أصبحت معتادة.. لم تعد سراً، فكل أفراد عائلة الرئيس لهم بدائل.. والحفلات التي يقيمها أفراد العصابة يحضرها من يعرفون الأصول والبدائل ولا يحفلوا.. لا أحد يركز

على الأشخاص.. الحدث هو الأهم.. فضلاً عن ذلك .. كل أصدقاء عدى والمقربون منه تعرفوا على هناك.. في المكتب رقم سبعة .. ويعرفون اللعبة .. ويعرفون قانونها الذي ينتهي بموت من يسعى إلى كشف الغطاء..

جاءوا في موعدهم.. في الثامنة تماماً.. صحبوني إلى الحفل.. المكان أعد بشكل رائع.. الورد النضرة موزعة في كل مكان.. إلى جانب الحوض نصبت منصة إلى جوارها أجهزة الصوت وكشافات.

.. صالة الاحتفال في الطابق الأول تضيء.. الخدم يتحركون بخفة، حلهم الناصعة البياض المحلاة بالأزهار الذهبية تضفي بهجة على المكان.. صافحني الفتى بطريقة خاطفة، قال كلمة واحدة وانصرف يتابع الضيوف.. قال: تسلى.. حدثت أنه يريدني أن أكون محانراً.. حرصت على الوقوف في ركن قصي، بعيداً عنه قبر المستطاع، وعلى أن أتجنب الحديث مع ضيوف الحفل.. وقلت كما قال أتسلى.. أتسلى بمراقبة من يفدون تباعاً:

ضافر عارف، مدير النادي الأولي.. الرجل يحب دائماً التقرب إلى عدى.. وعدى يحاول الالتفاف على زوجته المنيعة حنان عبد اللطيف.. كان يأمر حراسه باصطحابها إلى مزرعته.. وكانت المرأة رغم نفورها من الفتى تذهب مرغمة.. تخاف انتقامه.. قصة إنتقامه من طالبة الفنون الجميلة نهلة ثابت كانت ماثلة في الأذهان.. حنان عبد اللطيف تحيي عدى بود ظاهر، وعدى لا يلتفت إليها، لا قبالي، تسير الى حيث يقف عادل العكلة.

- عادل العكلة، ذلك الصغير القامة، معوج الكتفين، واضح الضعف، لكنه نجم في العراق، المغني المفضل لدى عدى، له اسطوانات ويغني عبر التلفاز والرايو.. وموجود دائماً في حفلات عدى.. فرقته الموسيقية تعزف

خلف الستار.. يجلس الثلاثة، حنان وزوجها والمغني عادل العكلة حول طاولة واحدة.. يتحدثون بحديث ضاحك إلى حد الصخب..

- يدخل من الباب واحد من أصدقاء عدي، محمد البغدادي، قواد كبير تعرفه حانات بغداد، قديم أخته لعدي تعبيراً عن الود والصداقة.

- ودخل بصحبة البغدادي، نريد غناوي، تاجر السيارات الذي توفر على تلبية خدمات زبونه الأول عدي.. كل سيارات عدي جاءت من صالة سيارات هذا التاجر: المراتي، الفراري، البورش، الجاكوار، المرسيدس.. إلى آخر القائمة من سيارات متعددة الماركات والأشكال.. يحفل بها كراجان يقعان قريباً من عمارة الحياة في ساحة القصر.. ذهبت إلى هناك خلال تمرينات إعدادي كبديل.. لم أصدق في البداية مارأيت:

حشد من عمال الصيانة على رأسهم ثامر التكريتي لاعمل لهم إلا الاهتمام بهذه السيارات المصفوفة داخل الكراج.. الصف الأول سيارات المرسيدس بألوانها المختلفة .. من آخر الموديلات.. مرسيدس 500 SEL لا يقل ثمن الواحدة منها عن مائة ألف دولار. الصف الثاني للفراري: مجموعة منها من الـ Testa Rossa حمراء وموديل قديم، أربع قطع موديل 348 نظيفة ولامعة.. لا أثر لغبار سواء على السيارات أو على الأرض والحوائط.. في الخلف رصت سيارات اللامبورغيني التي تتعدى سرعتها الثلاثمائة كيلومتر في الساعة.. عدي كان ينهب بها شوارع بغداد بسرعة تزيد عن 240 كلم في الساعة.. إمتلك هذه السيارات المجنونة ولم يزل بعد طالب.. حبه للسيارات ورثه عن الأب صدام.. صدام أيضاً يملك مجموعة كبيرة من السيارات تشغل صفوفها المتتابعة عدة كراجات.. يعيش القيادة بنفسه ولا يميل إلى استخدام سائق، وكذلك عدي.. قيادة السيارات شيء مقدس، ولها قيمة كبيرة، فكر بذلك دائماً..

هكذا كان يقول لي منعم حمد خلال التدريب.

سيارات أسبور تليها المازاراتي، وسيارات السباق الكلاسيك.. في قلب الكراج اصطفت مجموعة الفتى من سيارات الجاكوار والبورش.. كل موديلات البورش حرص عدى على اقتنائها.. كابريوليت، تارغس، توربو بورش.. وكذلك الجاكوار: أربع سيارات جاكوار A، سيارات كلاسيكية، اثنتان من موبيل كابريو مقاعدهما من جلد الخنزير، لونها أحمر كلون النبيذ، ناعمة وملساء كلفخذ امرأة.. حديد الإطارات مذهب.. يشابه صوتها عند بدء الإقلاع صوت صواريخ الإسكود.. ثم صف طويل من أنواع أخرى من ماركات الجاكوار الأخرى، يجب أن تكون السيارات نظيفة تماما.. عدى يدقق النظر إلى كل شيء، يثور لو ضبط آثار أصابع واحد من العمال تركت مطبوعة على جسم السيارة.. إذا تعطلت سيارة غير مسموح بإصلاحها.. يجري تكسيرها على الفور.. يختبر عدى السيارات الجديدة بنفسه.. يأمر حراسه بإغلاق مسافة طويلة من خط القادسية السريع الموصل مابين بغداد وحدود الكويت.. وينظم سباق يشارك فيه حراسه.. السيارة الجديدة التي ستخضع للاختبار.. يأمر بأن تجرد من المقاعد ولايبقى إلا مقعده، مقعد عدى.. يأخذ المتسابقون أماكنهم على الطريق المقفل.. كل سيارتان تقفان في توازن استعدادا لسماع الإشارة.. يجلس عدى في السيارة الجديدة وتحازيها سيارة أخرى يجلس إلى مقودها أحد الحراس.. يعد أمر السباق خمسة.. أربعة.. ثلاثة.. إثنان.. واحد، قبل أن يفلق فمه على الإذ تكون السيارات قد انطلقت.. والنتيجة معروفة سلفاً.. عدى سيفوز في السباق.. غير مسموح لأحد أن يتجاوز ابن الرئيس.. بعد إنتهاء السباق تدور الأحاديث عن السيارات.. عن أنواع المحركات.. تفاصيل تقنية كثيرة يشارك عدى في الحديث عنها

رغم أن معلوماته في هذا المجال .. متواضعة.

خلف الكراج بنى عدى ورشة للدهان.. هوايته المفضلة هي أن يناسب لون السيارة لون الحلة ورباط العنق.. ربما لا تكون هناك سيارة جاهزة لونها مناسب، يأمر فوراً بطلاء السيارة باللون المطلوب.. ليست السيارات وحدها، أيضاً طائرات المروحية الأربع تطلّى دائماً بألوان متغيرة حسب الحالة التي يبغيها الفتى.. دائماً مايفضل اللون الابيض المشوب بالزرقه.. ودره سياراته كانت تلك المرسيدس 500 المزودة بمحرك رولزرويس.. جاء مصمم سيارات إيطالي خصيصاً إلى بغداد ليصممها ويشرف على إنتاجها.. شهران حتى تم إعداد السيارة طبقاً لرغبات عدى.. عشرات التجارب على السرعة أجريت على الـ LUXUS حتى نالت الرضى.

عدى يشتري سياراته من التجار الأوروبيين مباشرة.. نور دريد لا يتعدى الإشراف على نقل السيارة، ورغم ذلك يستفيد مع كل شراء جديد.. المال عند عدى لا قيمة له.. لأحد من زمرة عدى يتقاضى أجراً ثابتاً .. ولا حتى أنا.. مرة فاتحت منعم في الأمر فقال لي ناصحاً: عندما تحتاج مالاً تكلم مع عدى شخصياً، سوف يأمر المسؤول عن الخزانة ليعطيك المبلغ الذي تحتاج إليه.. لم ألجأ حتى الآن إلى اقتراح منعم.. لاحاجة بي إلى المال.. ماأرغبه يأتي نون أن أطلب.. الخدم يدبرون كل شيء، الملابس والطعام وشؤون المنزل.

عدى يستقبل دريد تاجر السيارات بحرارة، يعانقه ويقبله.. يبتسم دريد شاكراً.

يدخل من الباب علي أسود، ويعقبه زيد كمونة، خلفهما مؤيد العاني وعامر الأعظمي.. مجموعة من خلصاء عدى:

- علي أسود، يعمل في خدمة عدى، مهمته أن يأتي لسيدة بالبنات البكر، طالبات المدارس والجامعات.. زوجه عدى واحدة ممن تعرضن للإغتصاب

منه.

- زيد كمونة، واحد من القوادين المعروفين في بغداد، له هيئة غريبة، يحكم قبضته على كثير من نوادي العهر والدعارة في بغداد، يتخفى خلف مكتب للاستيراد والتصدير.. الفتيات سلعته الوحيدة التي ينشط في جلبها من بلدان آسيا يوفر لحانات بغداد ومواخيرها حاجاتها منهن.. ويشاركه عدى في هذه التجارة الرباحة.. يقال أن زيدا يجني أرباحاً طائلة من هذه التجارة.

- مؤيد العاني أيضا يمارس التجارة في النساء.

امتلات القاعة بالوافدات من النساء الشابات.. تبرز مفاتهن تلك الفساتين الضيقة الشفافة والتنانير القصيرة بشكل لافت.. عدى لايجفل بالأخلاق كثيرا.. ولا علاقة له بالتدين.. يقول دائما بلا مبالاة: لماذا أبالي بالدين، هو لايجلب لي المال.. المرة الوحيدة التي رأيته فيها يصلي عندما زار التكية الصوفية.. زيارة رسمية تابعتها الكاميرات.. ولتكتب الصحف أن الأستاذ عدى صدام حسين، ابن الرئيس الكبير زار المنطقة المقدسة.

أخذ عادل العلكة مكانه على منصة الغناء.. افتتح الحفل بأغنية عدى المفضلة: صدام يا صدام، يا قوي يا كبير.. كلمات تمجيد فجة كانت تذاق في كل مناسبة.. يجبر الناس على ترديدها من باب الواجب .. حضور الحفل أيضاً ردوا خلف المغني الكلمات بحماسة ظاهرة.. عدى الجالس قرب المنصة محاط بنساء ثلاث.. يرفع كأسه ويغني في نشوة.. ينتهي اللحن الحماسي ويتبعه المغني بأغنية ماجنة.. يحتوي عدى بذراعيه واحدة من الفتيات.. تلك التي ترتدي الفستان الحريري الأزرق الشفاف.. الفتاة أطول قليلا من عدى .. حذائها بكعبه العالي يزيدا طولاً.. تلمع أضواء المنصة على شعرها الأصفر المتماوج.. وجهها مصبوغ بالماكياج بالطريقة

التي يفضلها عدى.. شفتاها مكتنزتان كحبتى فراولة تامتى النضج.. وجنتاها أيضا مشويتان بالحمرة، صدرها الكبير يبرز من فتحة الفستان ويترجج مع خطواتها الراقصة.. يضحك عدى في خلعة.. يقول في صوت مرتفع وهو يضم الفتاة إلى صدره: الرقص مثل الجماع.. هاهـا.. تغمض الجميلة عينيها وتسلم نفسها للفتى.. يدوران معا على إيقاع اللحن الصاخب.. تعبت أصابعه في مفاتها وهي تتأوه في دلال ظاهر.. يتركها وسط الحلبة مبللة بعرقيهما المختلط ليأخذ الأخرى إلى صدره ويدور بها في رقص محموم، تنوس أقدامه المتعثرة أطراف الواقفين.. الفتى لا يجيد الرقص، يدور كالثور متهدج الأنفاس.. يقبل مراقصته في قسوة.. تنفوس أسنانه العلوية في شفتها الغضة الطرية.. تتعالى الضحكات التي تتابع غزله الفج للفتاة: أحب شعرك، أنفك، أحبك.. أنا لم أر مثلك قبل الآن.

أعلن عن الدعوة إلى الطعام.. خفت اللحن الصاخب وتوجه الضيوف جماعات إلى الطابق الأول.. مأدبة حاشدة طولها يزيد عن 20 متراً.. يتوسطها قالب زبدة كبير على هيئة نسر عراقي.. صفت حوله سلال الفاكهة: بطيخ، تفاح، برتقال، جريب فروت، أناناس.. وأنواع أخرى أعرف بعضها ولا أعرف البعض الآخر.. على يسار المائدة وقف الطباخون أمام طناجر الطعام الفضية.. طناجر تحوي أنواع متعددة من الطعام.. الأوروبي والعربي والصيني.. صدور بط مشوي مع الفلفل الأحمر، وأخرى بالصلصة.. كلاوي بجاج ورقاب أرانب مع صلصة حارة.. مقبلات متعددة.. طعام بارد متنوع: أسماك كافيار تشوبه الحمرة، فواكه بحرية مختلطة بقطع الثلج الذي يلمع على الأطباق الفضية.. كبدة أوز فرنسي، لحم خنزير إيطالي.. شرائح لحم بقر إيطالي وروستو زهري..

بط مع الكيوي والخبوخ.. لحم بالصلصة والكافيار الروسي.. أفخر أنواع
السلطات.. سلطات سمك وهليون وقريدس.. مكعبات خضر، جزر وقطل ..
وماكولات عربية.. يمر الضيوف بأطباقهم.. يختارون من الطالجر
مايشتهون.

بقيت في المؤخرة كطلب عدى.. جلست في ركن قصى.. لا أحداث أهدأ
ولا يحادثني أحد.. أتناول كأسى من الساقى في هدوء.. أشرب وحيداً..
يعاود عادل العكة غناؤه الممل.. عدى أترع بالخمير، أخذ يتطوح وهو
يسير بين جموع المحتفلين.. ينتقل من حضن فتاة إلى الأخرى.. يخطف
من ضيوفه الفتيات وهو يقول في وقاحة هذه لي .. وهذه أيضاً.. كان
نشواناً إلى درجة مثيرة للتعزز.

أخذت أنلهى بالنظر إلى الحضور.. أرقب حركاتهم وسكناتهم.. أتناغل
بهم عن وحدتي.

- هذا أحمد فاضل، ملازم أول من فريق عدى، رجل خطر، لا يتردد في
إطلاق مسدسه إذا جرى شيء على غير إرادته، لا يرى النساء إلا مجرد
عاهرات ويعاملهن مثل النفايات.

- وهذا غسان سبتي، واقف إلى جوار أحمد فاضل.. يتبادلان على ما
يبدو حديثاً يبدو على درجة من الأهمية.. هكذا أفضت ملامحهما
وإشارتهما.. غسان سبتي صانع حلوى، عدى زيونه الأهم.. وقفت في
محاذاة الرجل امرأة طويلة ونحيلة، ترتدي «بلوزة» سهرة لونها زهري
مرصعة باللؤلؤ.. وتنورة من حرير زهري.. المرأة واضحة الجمال.

عقارب الساعة للعلقة في صدر المكان تشير عقاربها إلى انتصاف
الليل.. الحفل في قمته.. عدى جالس وسط حشد من الفتيات الجميلات..
والى جانبه عامر العظمي.. عامر مخنث له صدر امرأة.. ملابسه تشاكل

ملابس النساء.. يتلوى في ميوعة.. عدى يتلذذ من وجود ذلك المخنث إلى جواره.. سعى إلى إعفائه من الخدمة العسكرية.. يلامسه في فجور وبدون خجل.. مخنث آخر مقرب من عدى .. عصام الملا.. إلى جانب علاقته الخاصة مع عدى يرتبط عصام بعلاقة شائنة مع رجل المخابرات سبعاوي.

يصرخ عدى فجأة أمراً: مزقوا ملابس العاهرات.

يتدافع أصدقاء عدى.. يركضون خلف النساء المغمورات.. تمتد الأصابع لتكشف الصدور الفاترة.. تتناثر قطع الملابس الداخلية في الأركان.. تملو ضحكات الفاجرات مع ضغطات الأصابع على أعضائهن الجنسية.. تتقافزن إلى الحوض.. يسير عدى بصحبة اثنتين اختارهما للفراش.. يأخذهما إلى الغرفة التي كنت أعيش فيها.. الباب مفتوح على اتساعه.. يلاحق عدى الفتاتين، يسير الثلاثة عراة وسط النظرات الشبية.. يلهبهما بكرياحه بعد مجامعة شائنة تصاحبها مشاهد الجنس التي تأتي متلاحقة على شاشة الفيديو.. صوت الشريط الذي يدور في الجهاز يغطي على تلوّات الفتيات وغنجهم.. يسيل الجنس على الشاشة.. مشاهد مخزية لحشد من النساء والرجال يمارسون الجنس في شبق وحشي.. يسري هذا الشبق ليعم هالة الاحتفال.. تعري الضيوف جميعهم.. لم يبق إلا أنا والسقاة بكامل ملابسنا.. المرايا في الأركان احتشدت بالصنوبر والأفخاذ.. تشابكت على صفحاتها الصور الفاضحة.



٩

بداية الجرائم

● لمدة أيام بعد انتهاء الحفل لم أسمع أى شيء عن عدى .. لامهام ولا تمارين .. لاشيء غير انتظار ممل .. لا أعرف حتى أين هو .. في العراق أو خارجه .. يأتيني أحياناً عبر الهاتف صوت منعم .. يطلب مني تمضية بعض الوقت مع أعضاء جهاز الأمن الخاس في لعب البوكر .. لأعرف لماذا يطلب هذا لكني أفعل .. أريح النقود على المائدة الخضراء .. وإلى جانب النقود تتكشف لي من خلال ثمرات الطاولة أشياء جديدة عن نظام حماية صدام حسين؛ النظام ثلاثة فرق، لكل منها واجباتها، الفرق الثلاث تراقب بعضها بعضاً .. الأولى للحماية وتتألف من ضباط يعرفهم صدام منذ سنوات .. أو ممن خضعوا للمراقبة الدقيقة من قبل أتباعه .. هؤلاء الضباط يرافقون صدام في كل مكان .. يتواجدون دائماً إلى جواره .. حتى بوابة المرحاض يحرسونها عند دخوله لقضاء الحاجة .. وغالباً هم من تكريت، أو من المناطق المحيطة بها .. وتتألف هذه الفرقة من قرابة مايزيد على الألف ضابط .. يتقنون جميعهم القتال الأعزل .. يتسلحون بشكل جيد .. منهم ضباط نوو مراتب عليا تحلى خواصرهم بالمسدسات .. يغمهم صدام بالامتيازات .. سيارة جديدة كل ستة أشهر .. أراض وبيوت .. مكافآت تقوم عليها إدارة كاملة خصصت لهذا الغرض .. وتوزع عليهم وعلى عوائلهم النعم لتلهج ألسنتهم بشكر النظام، وتتفانى للحفاظ على استمراره .. الضباط الأقل رتبة يحملون مسدسات كبيرة العيار، ورشاش مع مخزنين للطلقات .. ثلاث أو أربع قنابل يدوية مخبوءة في حزام

الوسط.. يرتدون تحت الحلة العسكرية سترة واقية من الرصاص صنعت من البورسلان الخفيف حتى لاتعوق حركتهم النشطة.. ويحملون دائماً جهاز لاسلكي يعمل على موجة خاصة.. يسمح لهم بدخول كل الأماكن وحتى مراكز المخابرات.

الذي يطمح ليكون واحداً من رجال هذه الفرقة يجب أن يكون قد أعد إعداداً جيداً بواسطة جهاز الأمن الخاص.. تخضع فرقة الحماية الأولى هذه للإشراف المباشر لصدام.

الفرقة الثانية للحماية تماثل الأولى تقريباً في هيكلها وإعدادها ويفضل أن يكون رجالها أيضاً من تكريت أو ضواحيها.. تسليحها كما الفرقة الأولى .. هي فرقة طوارئ .. إذا جرح أو قتل رجل من الأولى خلال مهمة ما يصعد بديله من الفرقة الثانية على الفور ليحل محله.. فرصة ينتظرها رجال الفرقة الثانية للصعود إلى الفرقة الأولى.. ينتظرون سنوحها كالصقور.. وأحياناً يسعون لتدبير تلك الفرصة.. يتصيدون أخطاء رفاقهم في الفرقة الأولى .. يتجسس الصديق على صديقه بغية أن يصعد ليحتل موقعه.. يراقبون سلوكهم اليومي.. يتتبعون ملذاتهم.. يسجلون كل ما بإمكانه أن يأتيهم بالفرصة المبتغاة.. هكذا أراد صدام.. خطط ليضمن أن رجاله جميعاً يراقبون بعضهم بعضاً، ليكون الجميع في النهاية تحت قبضته.. يقرب هذا ويبعد ذاك.. يمدح هذا في حضرة ذلك، ليس بقصد المدح وإنما لإيغار الصدر.. وهكذا.. يغتال رجاله في الظلام ويشيد بهم في العلن.. فعل ذلك مع الكثيرين.. العميد صلاح القاضي كان قد أمر رجاله في البصرة عام 1982 بالتراجع ولم يرق هذا لصدام.. لذا أمر في اليوم التالي بقتل ذلك العميد خفية.. أعطاه بعدها لقب شهيد، وذهب بنفسه إلى عائلته يقدم لها العزاء، وقدم لها الحقوق التي تمنح

للشهداء، سيارة جديدة، قطعة أرض، وقرض بدون فائدة.

في واحدة من المرات.. أمر الرئيس بإعدام واحد وعشرين عضواً من أعضاء الحزب، وأكثر من مائة ضابط.. حكى لي محدثي أمر هذه المجزرة.. قال إن صدام شك أنهم يتآمرون ضده.. الحارس شاكر ياسين صور المجزرة على شرائط الفيديو.. أضيفت الشرائط لمكتبة التدريب النفسي لفرق الحماية.. أخذ يصف لي محدثي مشاهداً من تلك الشرائط.. قال إن مئات الأعضاء جلسوا في قاعة إدارة الحزب.. ودخل صدام القاعة متأثراً كالعادة، يقبض بأصابع يمينه سيجاره الضخم، نادي سكرتير مجلس الرئاسة ليقف أمام الميكرفون.. وقف الرجل مشدوداً.. صرخ فيه صدام: تكلم.. إكشف الفضائح.. السكرتير ينطق بالأسماء متتابعة.. مع كل اسم ينطق به الرجل يأمر صدام حراسه بإخراج المتهم.. يجمع الحراس الرجال المتهمين ويسوقونهم إلى حديقة القصر الجمهوري.. تعصب أعينهم.. يأمرهم بالوقوف أمام الحائط.. تستعد الكاميرات لتسجل لحظات السقوط الدامي.. ترتفع يد برزان التكريتي، لتنتقل الحمم، تحصد الرجال.. المتهمون يلبسون ملابس الرياضة الحمراء اللون.. ومن سيطلق الرصاص ليس الحراس وإنما رجال من العائلة - هكذا تقضي الطريقة العثمانية - وقف إلى جانب برزان التكريتي طفلان.. ابنه محمد، ثماني سنوات.. والآخر عدى، وكان في ذلك الوقت في سن الخامسة عشرة.. برزان يقول لولده: خذ المسدس واختار من يروق لك.. الولد يفعل ذلك.. غير واضح إن كان عدى قد فعل ذلك أيضاً أو تقاعس.. الجالسون إلى طاولة البوكر يروون لي كل ما صور على شريط الفيديو.. كأنهم أرادوا أن يبلغوني رسالة: «لا تستطيع المزاح مع العصابة.. إنهم قادرون على إنهاءك على الفور».

الفرقة الثالثة من فرق الحماية، هي الحرس الجمهوري الخاص، جاؤوا بأفرادهم من مناطق تكريت، بغداد وبنزير.. يخضع اختيارهم لمشورة جهاز الأمن الخاص ومشورة رجال حزب البعث.. يختارونهم من عائلات معروفة بوفائها للنظام، ولم تُسجل على أفراد عائلاتهم أي مخالفة لقانون النظام.

يتألف الحرس الجمهوري الخاص من أكثر من عشرة كتائب.. تجيد جميعها استخدام مختلف أنواع الأسلحة.. إنه رأس حربة النظام.. ومهمة الحرس الجمهوري الخاص هي تأمين الأماكن التي يزورها صدام.. يتفقدونها رجاله قبل الزيارة بأربع وعشرين ساعة.. وتعلن في الغالب ثلاثة أماكن مستهدفة بالزيارة.. تعلم بها في البداية إدارة الفرقة الأولى للحماية، والتي تعلنها بدورها لرئيس الحرس الجمهوري.. وتتجه فرق المراقبة على الفور إلى الأماكن المحددة.. مقاطع كاملة من المدينة التي حددت للفرق يتم إغلاقها ويجري تفتيشها.. يقف الحراس عند كل الزوايا.. في اللحظة الأخيرة يقرر صدام أي من الأهداف الثلاثة المعلنة يزور.. إذا كان الهدف قريباً من بغداد يسافر الرئيس بالسيارة، تتألف قافلته من أكثر من ثلاثين سيارة مرسيدس ليموزين، عشر سيارات سوداء متشابهة تماماً.. أيها يقودها الرئيس؟.. هذا ما يقرره بنفسه في آخر لحظة.. وراء القافلة تسير بضعة سيارات إسعاف مجهزة بكل شيء.. وقادرة إلى حد إجراء العمليات الجراحية الفورية.. وإذا كانت الزيارة للجبهة يختار الرئيس طائرة مروحية أو بوينج.. وهذا أيضاً يجري عليه ما يجري على السيارات.. ويخضع لقرار اللحظة الأخيرة.. كما يخضع صدام لطبائري ورفاق رحلته لامتحانات ثقة.. يمارس معهم أنواع شتى من أصناف الخداع.. في مرة من المرات أمرهم جميعاً بالحضور إلى المطار

بلباسهم الشتوي.. إرتدوا جميعهم المعاطف وقبعات الفراء والأحذية المبطنة بالصوف.. وجاء وحده مرتدياً حلة صيفية.. سألوه في دهشة: لماذا؟!.. ألسنا ذاهبين إلى موسكو؟!.. أجاب مبتسماً: لا.. سوف نذهب إلى الجنوب.

عند زيارته للجبهة يقوم الحرس الجمهوري الخاص بزيارة الموقع.. يأمر الضباط والجنود بإخلاء خزانات سلاحهم من الذخيرة.

الحرس الجمهوري الخاص مزود بكل أنواع الأسلحة التي تماثل ماتحوزه أقوى فرق الجيش العراقي.. ويتقاضى أفرادهِ رواتب تفوق بخمسة أضعاف رواتب أقرانهم في الجيش.. كما يغمرهم النظام بالهدايا في المناسبات. ولهذا الحرس معسكرات خاصة.. أما الفرقتان الأولى والثانية فتعسكران في باحة القصر الجمهوري.. ولهما هناك صالات للتدريب، ونوادٍ للرماية.. ومطاعم وغرف للراحة والترويح تضم صالات للبيارد وكرة الطاولة وسينمات وأماكن لعروض الفيديو.

لمح رفاقي في لعب البوكر إلى أن بإمكانني أنا أيضاً أن أستمتع بما تضمه أماكن الترويح المنتشرة في باحة القصر.. شرط أن يعرف حراس عدى بالمكان الذي أتواجد فيه.. راقني ذلك - ربما يخفف هذا من شعوري بالوحدة، وربما أيضاً تطرق مسامعي هناك قصص جديدة - وفي واحدة من المرات التي قصدت فيها واحد من تلك الأماكن عرفت أين ذهب عدى بعد حفل عيد ميلاده.. قال لي واحد من الحراس أنه سافر إلى جنيف ليزور عمه برزان التكريتي وأضاف الحارس أن عدى جاء وهو يحمل خبراً جديداً إلى بغداد؛ استطاع برزان أن يصل إلى قرار بوقف لإطلاق النار مع إيران، جاهد في اتصالاته النولية داخل المقر الأوربي للأمم المتحدة في جنيف ليصل إلى ذلك القرار في مرحلة حرجة.

على شاشة التلفاز نرى دائماً بعض لقطات من عمليات جيشنا العظيم على الجبهة.. نرى نجاحات زائفة تصور الأمر على غير حقيقته.. الناس جميعهم في العراق يعرفون أن نظام صدام رغم استخدامه لكل الوسائل لم ينجح في تحقيق ماخطط له.. استخدم كل أسلحة الردع التي يملكها، حتى الغاز السام المحرم دولياً.. استطاعت قواتنا في بداية تلك الحرب التوغل لمسافات طويلة داخل الأرض الإيرانية.. لكنها سرعان ما تراجعت ولم تقدر على المحافظة على الأرض التي استولت عليها.. لكن جيشنا استطاع ببطولة فائقة وقف زحف الجنود الإيرانيين وآلياتهم إلى داخل حدود عراقنا.

ماذا يعني ذلك القرار؟.. أخذت أفكر، هل انتهت الحرب؟.. لا أعتقد.. توقف إطلاق النار.. لكن شبح الحرب لا يزال يحوم في الأفق.

18 تموز 1988، استدعيت في وقت مبكر إلى المكتب رقم سبعة، لم يحدث أن استدعيت قبلاً في وقت مبكر هكذا.

على عجل أعددت نفسي، أخذتني السيارة إلى هناك.. كان في انتظاري عدى وبكر الناصري المسؤول عن البيت.. الكل مضطرب حتى عدى.. قال والبشر يعلو ملامحه: لقد ربحتنا الحرب، لقد مضوا.. ماذا يعني عدى بذلك - سمعنا بعد ذلك تفاصيل ما تم التوصل إليه هناك في جنيف.. لقد وقع برزان باسم العراق على القرار رقم 598، قرار وقف إطلاق النار.. توقف قتال دام أنهك البلدين لسنوات طويلة، عدى يدير الكاسيت لتطو الأغنية التي يشو بها عادل العكلة، والتي يمجّد فيها صدام القائد البطل.. البطل المنتصر.. يتقافز عدى.. يعانقنا ويقبلنا جميعاً.. الفرحة تعم الجميع، وتأكيدات عدى أن صدام جاء للعراق بالنصر المبين تنتقل عدواها إلى الحضور جميعهم.. الكل يصرخ فرحاً: العراق

سحق المتطرقين في طهران.. الرؤوس المنتشية تعامت في غمرة فرحتها عن حقيقة الموقف العسكري.. تناست أن الحرب انتهت بالتعادل.. قواتنا الآن تقف على نفس الأرض التي انطلقت منها في أيلول 1980، لقد أراد صدام عندما بدأ الحرب أن يسيطر على شط العرب وييسط نفوذه على المنطقة.. رأى أن سقوط الشاه ووصول الخميني إلى سدة الحكم في طهران عام 1979 فرصته المواتية لجعل من العراق قوة عظمى في منطقة الخليج يشار إليها بالبنان.

وكان علي أن أخافت من صوت أفكاري وأنا وسط هذا الحشد المتراقص فرحاً، أن أحاول أن أتجنب أية ملاحظة من شأنها أن تخدش اللوحة المصيوغة بألوان البهجة.. أمر عدى بإحضار الشمبانيا، ارتفعت الكؤوس تتعاقب، نشرب جميعنا نخب الانتصار المزعوم.

يتوافد محتفلون جدد، أصدقاء كثر لعدى، وكان من هؤلاء الدكتور محمود سامرائي، المسؤول عن إعداد المقابلات، ومقالات عدى الصحفية، ويتابع اجتماعات عدى، دقائق وانصرف الإثنان، عدى ومحمود غابرا المكتب، ثم عادا معاً بعد ساعات ثلاث، ربما لفقا حواراً أو مقابلة حول انتصار النظام.

عمت الاحتفالات العاصمة بغداد.. الملايين ولأيام طوال خرجت تزحم الشوارع الواسعة والدروب الضيقة، خلت البيوت من ساكنيها.. كلهم خرجوا إلى الباحات والميادين.. يتعانقون.. ويرددون أهازيج النصر.

الساعة الآن عند منتصف الليل تماماً، الثامن من آب.. أعلن رسمياً عن وقف القتال.. ويعلن في الصباح عن وقف العمل بالشركات والمصالح - يوم عطلة رسمية - الناس في عطلة نون انتظار لقرار رسمي.. الكل يحتفل.

مئات الصور ينشط الرسامون في إبداعها عن القائد المنتصر، رجال الإعلام يتسابقون للإشادة بقائد السيرة جالب النصر.. صخب الميكروفونات يغطي على الفصائح، ويستمر إلى حين بعض سموات النظام.. كان دائماً جهاز دعاية النظام نشطاً خلال سنوات الحرب.. اصطف كتائب لترسم صورة صدام القائد العسكري المغوار.. وظل هو على رأس كتائب الاعلام يمجّد نفسه.. حرص دائماً على التزيي باللباس العسكري، وبالطبع جاره في ذلك قيادات الحزب وكبار رجال الدولة.. على ناصية كل شارع وعند كل ميدان تطالعك صورته.. صورة صدام.. في أوضاع متعددة .. مرة كمقاتل في خندق.. وطيار في صورة أخرى.. لوحة في ميدان واسع تصوره في هيئة صلاح الدين.. إلحاح إعلامي فج لنفخ أوداج الرجل ونظامه.. ولما طال أمد الحرب وتحول الهجوم إلى دفاع.. كأن لا بد وأن يتزع في خجل ولبيل صور صدام العسكرية لتحل مكانها صوراً عادية.. تصوره في أوضاع متعددة .. يمسح دموع الأطفال.. يصلي وعلامات التقوى بادية على محياه .. وفي صورة أراد أن يفازل بها الأكراد وقف وهو يرتدي زيهم الشعبي.

الآن عادت من جديد صور القائد باللباس العسكري تزحف على الميادين.. تصدرت صورة العبقري رأس صحف الصباح.. التلفاز لا يخلو برنامج من برامجه من ذكر للقائد المقدم.. أصبح صدام حاضراً في كل وقت ويزحم كل الأماكن.. لأوقت أو مكان لغيره.

عدى أمرني أن أسافر إلى البصرة.. أن أزور هناك الوجدتين الثالثة والسابعة لأشارك الجنود فرحتهم بالنصر المزعوم.. عند الساعات الأولى من صباح يوم الثامن من آب صعدت والمرافقون إلى طائرة مروحية، ارتدي بدلة سوداء بخطوط مذهبة.. سبقنا الحراس إلى هناك قبل الزيارة

بأيام، اصطحبوا معهم عدة شاحنات تحمل الهدايا.. كان في استقبالنا قائد الوحدة والضباط.. حرس الشرف وقفوا في باحة المعسكر شاكي السلاح للترحيب.. صافحت مستقبلي وأبلغتهم تحيات أبي.. تحيات الرئيس القائد.. وبعدها ودعنا المعسكر.. قصدنا المدينة لنشارك شعبها الاحتفال، إصطف الآلاف على طول الطريق يهتفون بحماس: عاش صدام حسين.. عاش صدام حسين.. النساء تتغنى بالعبارات الحماسية.. نَزَحَ الجماهير لتحيط موكبنا.. الكل يسعى لمصافحة ابن الرئيس القائد، محاماً أنا بحراس من كل جانب.. نتجه إلى حيث اصطف الأطفال وهم يلوحون بالأعلام.. فض الحراس الهدايا المحزومة وناولوني إياها.. أوزعها على الأطفال.. أسألهم عن حالهم.. أخذ الجنود يجلبون المزيد من لفافات الهدايا ويقذفونها إلى الجموع المتزاحمة.. فجأة تنوي طلبة.. لأحد يعرف من أين جاءت، ولا من أطلقها، ومن كان المستهدف بها.. في طرفة عين كنت مكوماً على الأرض، رمى الحراس أجسادهم علي، أحاطوني، صنعوا بأجسامهم درعاً يمنع عني الأذى، وحملوني على الفور إلى السيارة التي انطلقت في عجلة إلى الوحدة السابعة.. كانت الطائرة المروحية متأهبة لحظة وصولنا، طرنا مسرعين إلى بغداد.

والطائرة في السماء، عبر اللاسلكي تكشفت لنا خيوط الحكاية المروعة.. قالوا لنا إن محاولة اغتيال استهدفتني.. أتنفس بعمق.. العرق يبللني.. الخطر كان على مقربة من رأسي.. أغوص في مقعدي.. ظهري ألصقته بالمقعد.. أخذت أحرق في ظهر قائد الطائرة.. أتلهى بمتابعة صوت المروحة في دورانها الرتيب.. رسالة أخرى أتت عبر اللاسلكي.. مساعد الطيار يخبرني بمضمونها: لقد أصيب عبد الله الدليمي في صدره.. إصابته خطيرة.. عبدالله واحد من حراسي.. عمره لم يتجاوز العشرين

بعد.. كان يقف بجانبى لحظة إنطلاق الرصاصة الفادرة.. الرصاصة التي كانت تقصدني.. هل سوف ينجو؟.. هز مساعد الطيار كتفيه.. قال إنه لايعرف.. أزيز اللاسلكي يأتينا بخبر جديد.. نجحوا في ضبط الفاعل.. شاب في الثالثة والعشرين .. هارب من الجندية.. إثنان من إخوته قتلا في الحرب.

عند الوصول قدمت تقريراً بالحادث لعدى.. أزاحه جانباً.. لا يبدو أنه مهتم.. قدمت التقرير لمنعم حمد.. عرفت لاحقاً أن المتهم سوف يقدم على الفور وبدون محاكمة.. لا أحد سوف يستمع إلى دفاعه. سوف تنتهي المسألة في الغد.. منعم يرجوني ألا أتحدث عن الأمر.. على أن أنسى قصة الاغتيال.. على أن أستجيب لإرادتهم. وعدى هو الآخر.. تعامل مع الأمر وكأن شيئاً لم يحدث.. كل اهتمامه منصرف إلى احتفالات النصر.. يريد أن يكون على مقربة من مظاهرها الصاخبة في شوارع بغداد.. أسرته طقوس الاحتفال بنصر أبيه الزائف.

خرجنا في قافلة .. عبر موكبنا منطقة المنصور.. شارع فلسطين يغص بالمحتقلين.. عدى الجالس في المرسيدس المصفحة ينظر عبر السقف المتحرك إلى السماء.. يتابع أقواس النصر النارية التي تمرق إلى السماء.. لأول مرة لايسوق السيارة بنفسه.. جلس وفي يمناه كلاشنكوف وفي اليسرى المسدس.. فجأة يقف عدى.. يبرز نصفه الأعلى عبر السقف المتحرك.. يرفع الكلاشنكوف ويصوب طلقاته إلى السماء.. الحراس أيضاً يطلقون طلقات متتابعة عبر نوافذ السيارات.. أي جنون هذا!!! فرصة مواتية لأصطياد عدى.. نصفه المكشوف عبر السقف هدف سهل.. لكن الفرحة الفائرة غطت على الحذر الواجب.. يلعبون بالنار ابتهاجاً.. وأنا أيضاً أشارك في مهرجان النار هذا.. أواصل الإطلاق وأبدل مخزن

الكلاشنكوف عدة مرات.. عرفت في وقت لاحق أن صدام ذاته خرج في غبشة المساء.. خرج في قافلة دارت في شوارع بغداد.. أخذ القائد يطلق النار كما فعلنا جميعاً.. لأيام متوالية كنا نفعل ذلك.. قوافل تزحف وسط الجماهير.. تمرق رصاصاتها عبر النوافذ.. التلفاز يحذر الناس من الطلقات الخاطئة.. كثيرون أصابتهم طلقات انحرفت عن المسار.. سقط في موكب النصر قتلى وجرحى .. لا أحد يحفل.

قافلتنا عبرت الشارع الذي فيه بيتنا.. إنصرفت عن الجميع.. تابعت عبر زجاج السيارة المحكم الإغلاق مدخل بيتنا.. سيارة أبي الفوفو رابضة الى جواره، وكذلك سيارات إخوتي.. بضعة أمتار ليس إلا تفصلني عن الأحبة.. أه.. لم أرهم منذ أيلول.. أيلول العام الماضي.. تمنيت أن يكون أحدهم الآن قرب البوابة الواسعة.. شوقي إليهم يحرقني.. وقفت أمانى عند حد التلويح لهم من بعيد.. لكن أمانى ذهبت أدراج الرياح.. لم يستجب القبر لي فزادت النار داخلي اضطراباً.. عزمت على مفاتحة عدى.. عزمت أن أسأله إن كان بإمكانه زيارة أهلي..

14 أب، قبل الظهر بقليل، تشجعت وفاتحته.. نظرت إلى وجهه أنتظر الجواب.. كانت ردة فعله على غير ماتوقعت.. قال لي بمودة زائدة: لطيف.. لقد أتممت بيننا أكثر من أحد عشر شهراً.. أدبت واجباتك على أحسن وجه.. أنت رجل جيد، ثم أضاف: لقد كنت خلال هذه الفترة مراقباً، لم تأت بأي خطأ.. تابعت حديثه بانتباه.. قالها أخيراً: ولذلك يُسمع لك برؤية أهلك.. قلت على الفور: متى؟ قال: اليوم مساءً، إذا أحببت.. ولكن تحدث أولاً مع منعم حمد في الأمر.

جلست إلى منعم.. أحاطني بتوجيهاته حول الزيارة: لا كلام عن مهمتك، ولا حرف عن عدى، ولا حتى تلميحات.. لاشيء.. وأضاف في الختام: هل

هذا واضح، لطيف؟.. أهز رأسي علامة الموافقة.

أخيراً قرروا أن يسمحوا لي، بالذهاب إلى أهلي.. على أن أذهب دون اتصال بمنزلنا.. رجال جهاز الأمر، الخاص قالوا لي: أنت ذاهب على التو.. في البيت الآن ستجد إخوتك، جلاله، جوان، جوني، روبي وأميد.. لم أسأل كيف عرفوا.. لم يغب عني أن يبتقا مراقب أيضاً.

الحادية عشرة تماماً.. غبشة المساء تلف المكان.. نبضاتي تتسارع، أخطو نحو البوابة.. أضغط الجرس.. لحظات وأجدها واقفة أمامي.. أمي.. أجدق فيها.. أنتظر لتأخذني في حضنها الدافئ.. لم تتعرف على في اللحظة الأولى.. جسوء الحارة الخافت، ولباسي الذي لم تعتده قبلاً.. أتيت للزيارة وأنا أرتمي جلباباً.. قلت لها: أمي أنا لطيف.. عانقتها في شوق عارم.. كانت ترتجف وهي تضميني إليها.. أخذت رأسي بين يديها.. بكت.. سألت دموعها لتختلط بدموعي التي انطلقت من محبسها.. صوت بكائها جاء بهم.. أبي وإخوتي.. تطلقوني.. أمطروني بالقبلات.. وسألت دموعهم جميعاً.. حتى أبي الشيخ الوقور.

جلسنا في الصالون صامتين.. نتحدث بالقبلات والدموع.. هاأنا أخيراً بين أهلي.. هدأت أنفاسنا المتهدجة.. قالت أمي معاتبة وهي تمسح دموعها أنهم حاولوا البحث عني في كل مكان.. ظنوا أنني ربما أسرت أو استشهدت هناك على الجبهة.. عجزوا عن انتزاع أية معلومة.. قيل لهم فقط أنني نقلت منذ سنة إلى موقع آخر.. أين هو؟ لا أحد دلهم، وقالت أنهم انصرفوا للدعاء من أجل ولدهم الغائب.. أصابهم اليأس، ظنوا أنهم فقدوا عزيزهم.. وعادت أمي إلى البكاء.. وإخوتي كذلك.

لاحظ أبي أسناني الجديدة.. قال متوجساً: ماذا فعلوا بك يا ولدي؟ تذكرت التعليمات.. أوامر منعم.. حانر لطيف.. لا تنقوه.. أجبني أبي

راجياً: لا تسألني، لا أستطيع أن أقول شيئاً، فقط أنا بخير، وأقوم بمهمة جيدة.

كلماتي الغامضة حيرتهم.

أي مهمة لطيف؟!.. يسألني الصغير روبي.. ويضيق في براقة: هل أنت جاسوس؟

أضحك، كلهم يضحكون أيضاً.. ويستجيبون لرجائي: لا أستطيع أن أقول، فلذلك لا تسألوني عن أي شيء.. وأيضاً لا تتحدثوا مع أصدقائي عن شيء، قولوا فقط أن صحتي جيدة.

يجب على الآن أن أذهب.. لم يكن مسموحاً لي بتجاوز وقت الزيارة المحدد بساعتين.. عند الواحدة تماماً.. الأسرة ترافقني إلى الباب.. يقفون هناك.. يرقبوني وأنا مصحوب إلى المرسيديس.. يتابعونها حتى تبتلعها حلقة آخر الليل.

أحس طعم الراحة والخير يسريان في جسدي وأنا مستلق على فراشي.. أستعيد اللحظات الحلوة التي قضيتها بين أهلي.. في أحضان أمي.. مساء جميل ذلك الذي أتاحه لي.. وكنت على عهدي معهم.. أحكمت لجام نفسي.. لم أنطق بكلمة خطأ.. لم ألمح بما يفضح المخبوء.. ربما تكهن أبي بشيء عندما لاحظ فكي.. لكنه لم يذكر عدي.. هو أيضاً يعرف قوانين اللعبة.

عدت إلى الانخراط في عالمهم من جديد.. بعد أربعة أيام ذهبنا مع عدي إلى الحبانية، على بعد 75 كيلومتراً عن بغداد، منطقة سياحية يقصدها عليّة القوم، تحفل بالأوتيلات المقامة على ضفاف بحيراتها، مكان رائع لقضاء الأجازات، مطاعم فاخرة، نوادي لرياضات الماء.

عدى يعرف المنطقة جيداً.. والده صياد ماهر، صحبه مرات عديدة إلى المنطقة لصيد الغزال، حدثني عدى عن واحدة من تلك الرحلات: علمني أبي كيف أقتنص الغزال، وكيف أشكه بالسكين.. أصبنا مرة أكثر من عشرين غزالاً.

أمضى عدى أياماً قبل السفر إلى الحبانية غارقاً في الشراب.. الشراب والنوم ولاشيء غيرهما.. يقوم من رقبته عند انتصاف النهار.. يأخذ في الثرثرة مع جاسم كالعادة.. ماذا عليه أن يرتدي اليوم وأى إكسسوارات سوف يختار.. أي ساعة سوف يزين بها معصمه.. وأحدة من مجموعة الرولكس، برايت لنك، باتيك أو الكارتيه، أو أن اليوم هو يوم أثنى القطع التي يحوزها.. ساعة IWC غراند كومبليكاشن المصنوعة في شاف هاوسن السويسرية، ساعة من البلاتين مجموع أجزائها 159 قطعة و 9 عقارب.. يقدر الخبراء ثمن هذه الساعة الثمينة بما يفوق ثمن السيارة الفراري تستاروسا.. أحيانا يذهب عدى إلى النادي الأولمبي.. ليس لديه اجتماعات عمل هناك.. يذهب فقط للهو.. أصبح النادي المكتب والبار وساحة لقاءات العبت.. يأتي القوادون، أقام لهم غرف يديرون منها أعمالهم القذرة.. فتيات(ليل) أتوا بهن للقيام بأعمال السكرتارية.. ويبقى عدى هناك حتى الواحدة ثم يعود إلى البيت، يأتوه بالمشويات، يتخم معدته بالطعام.. وينصرف بعدها للخمر.. الكونياك والويسكي والبيرة.. تأتي صديقاته، يصحبهن إلى بيوته الأخرى.. فيلا الأحلام المجاورة للنادي الأولمبي، أو يسافر معهن إلى الحبانية.. وأحيانا لقصر من قصوره في المنصور أو الأعظمية، ومرات يصحبهن إلى المزرعة في الراشدية.

ويقضي سهراته مع آخر أطراف الليل في واحد من نوادي الفنادق أو باراتها.. إزداد التصاقه بعلب الليل بعد توقف الحرب.

أجنحة فاخرة أخليت في أوتيل الحبانية الرائع لتقيم فيها .. مسبح رائع وحدائق زاهية.. تعانقت في طرقاتها جماعات المحبين والأزواج الذين جاؤوا لقضاء «شهر العسل».

حاجات عدى ووسائل لهوه سبقتنا محمولة على الشاحنات إلى المدينة.. هوندا سوداء موديل 750، BMW موديل الموتور رقم 1000، وسيارات أخرى متماثلة في القوة والأناقة.. عدى يعشق الصيد، لكن يفعل هذا بوحشية تعكس مايemor في داخله.. ينطلق بسيارته عبر الأحراش، يوقفها عندما يلوح شبح من بعيد .. يصوب مسدسه إلى السائر ويطلق الرصاص تجاهه ليستمتع بهرولة المرعوب.. لافرق عند عدى بين رجل أو غزال.. كلاهما مادة للمتعة.

رافقناه في رحلة صيد السمك.. أخذنا ندر بالزوارق في البحيرة.. توقفنا وفق رغبته في وسطها.. سكنت المحركات لتأمن الأسماك.. عدى الذي لايطيق الانتظار يصرخ في صفحة الماء، يخاطب أسماك القاع: سوف ألتقطكم يا وحوش.. ويطلق مسدسه المصوب تجاه السطح.. وكان عقابنا نتيجة إخفاقه في الصيد أن أمرنا أن نقفز جميعاً إلى الماء ونعود عائمين إلى الشاطئ بملابسنا.. لا أحد يجرؤ على الاعتراض.. وكنا نحالفنا مع الأسماك ضده، توعدنا ونحن مستلقون على رمال الشاطئ.. قال: يجب أن أوبكم.

وهكذا.. كل يوم.. نذهب إلى البحيرة أو الأحراش.. أمتع الأوقات تلك التي كنا نخرج فيها لصيد البط البري.. قال لنا عدى أن والده يحب صيد البط، قال أنه صياد ماهر.. يتمرن في نادٍ خاص على الرماية .. تذكر أحد الحراس مارآه يوماً وهو بالقرب من صدام.. كان إلى جوار الرئيس مستشاره لصيد البط.. أعطى بندقيته لسكرتيه وأشار إلى شجرة.. وقال

له أمراً: هل ترى ذلك العصفور الواقف على الشجرة، صوب إليه واقتله..
تردد الرجل للحظة.. فاستشاط صدام غضباً.. صاح فيه: ماذا؟! مضى
عليك يا رجل عشرون عاماً تمتعت فيها بعضوية حزب البعث، ولا تقدر على
القتل.

حصيلة البط الذي نصطاده تذهب جميعها لإطعام كلاب عدى المتوحشة.
مرة ونحن عائدون من رحلة لصيد البط لمح عدى زوجين شابين.. توقف
إلى جوارهما.. أعجبه الفتاة.. قال لهما شيئاً لم أتبينه.. لكنهما تابعا
السير، وكأنهما يتحديان ابن الرئيس.. أوماً إلى حراسه.. فهموا
الإشارة.. سيدهم يريد المرأة.. إزدادت رغبته في اقتناصها.. أراد أن
يكسر أنف فتاها.. يكره أن يعانده أحد.

الخوف أخذ طريقه إلى الزوجين فتسارعت خطواتهما.. لكن عدى
تابعهما، والحراس أيضاً.. لحق بهما.. ألقى نزاعه الثقيلة على كتف
الفتاة، قال لها: أنت تستحقين أكثر من هذا الرجل.. وقف زوجها - الذي
يحمل على كتفى حلته العسكرية رتبة الرائد - مشبوهاً.. تدافعت الدماء
في عروقه عندما واصل عدى مغازلة زوجته، قال بفجاجة ظاهرة: تعالي،
اتركيه.. أنا أليق بك.. تعالي إلى شقتي.. قحة بالغة دفعت بالرجل إلى
الصراخ والثورة.. كاد أن يفتك بعدى.. أسرع الحراس فتكالبوا عليه..
ضربوه بوحشية.. ستة حراس أشداء.. ضاعت صرخاته وتبعثرت في
الهواء.. حاول عبثاً أن يقلت أو يولي الألبار.. سحبوه وزوجته أيضاً إلى
الصالة الواسعة في الفندق.. وعادوا إلى ضربه ضرباً مبرحاً.. لم يعبأوا
برواد الفندق أو بنظرات الخدم.. وقفت أنظر إلى الرجل مشفقاً.. لكن
لاحية لي في الأمر.. أمر عدى الحراس باصطحاب المرأة إلى جناحه..
ورافقتهما إلى هناك.. في الصالون الواسع جلس إلى جانب الزوجة

الشابة يحاول ملاطفتها.. أخرسها الخوف فلم تنطق.. يمد لها يده بـمس من الويسكي فتهدز رأسها الصغير علامة الرفض.. يأتينا بشابانيا فتأبى، تنخرط في البكاء وهي متهاكة على الأريكة.. نفذ صبره.. أخذ يصرخ في المسكينة.. أمرها أن تتعري.. تستعطفه: كلا سيدي.. كلا.. لكنه يزداد هياجاً، ينزع حزامه ويضربها على وجهها بقسوة.. يضربها ونحن واقفون لانملك لها شيئاً.. تحاول الانفلات.. لكن إلى أين.. يلاحقها.. يلف الحزام حول رقبتها ويضيق الخناق عليها.. تتحشرج أنفاسها.. يتركها مكومة على الأرض.. تبكي في حرقه.. تتوسل إليه ألا يهتك عرضها.. يعود فيقبض شعرها بقسوة.. يسحبها إلى غرفته.. يقذف بها إلى فراشه.. يعود إلى ضربها بوحشية.. توجعها يثيره أكثر.. يلقي بجسده عليها.. يحاول أن يقبلها.. تقاومه في استبسال.. تجاهد لتتخلص من قبضته.. تناضل لتحكم إغلاق فخذيها.. يلاحقها الثور الهائج.. حتى يتمكن منها.. تسيل أوساخه على فخذيها وعلى الفراش.. يهب واقفا بعد أن نالها.. يلطمها على خديها.. يسيل الدم من أنفها المحترق.. يتركها وهي خائنة القوى.. غير قادرة حتى على البكاء.. يخرج مبتسماً.. يملأ لنفسه كأساً من الكونياك.. يتجرعه وهو يضحك.. ما أقبحه.. وكأن شيئاً ما لم يحدث.. يأخذ في الثرثرة الفارغة.. خيم الصمت علينا فلم ننطق.. لم نكن قادرين على مشاركته الثرثرة.. فجأة تأتينا من غرفة النوم صرخة ملتاعة.. هرولت إلى هناك.. لكن لأحد.. باب البلكون مفتوحاً.. أسرعنا إلى هناك.. لا أثر لها.. نظرت إلى أسفل.. كانت المسكينة مكومة هناك نصف عارية على الأسفلت أمام مدخل الفندق.. يأتني عدى الى البلكون.. أنظر إليه.. يتحاشاني.. لكنه يسأل: هل ماتت؟ سؤال بلا معنى.. لقد قفزت المسكينة من الطابق الرابع.. الموت ملاذها

الآمن بعد أن لطخها ذلك الوحش بالعار.. أسرعت ومعني بعض الحراس إلى الطابق الأرضي.. في صالة الإستعلامات وقف الرواد والخم وكأن على رؤوسهم الطير.. لاحقتنا نظرات الكراهية.. هناك عند الاستعلامات وقف المسكين وحده.. يصرخ مهتاجاً.. مشعث الشعر.. وحلته العسكرية تكاد تخنقه.. مجرمون.. وحوش.. أخذ في ترديد جملة القصيرة وأنفاسه تتلاحق.. لقد انتزعوا منه زوجته ولم يمض على زواجه منها تغير يوم واحد.. أي أقدار عابثة جاءت به إلى هنا.. ساقته إلى حيث مرغ شرفه في التراب.

واحد من الحراس حادث عدى عبر الهاتف بأمر الرجل.. فصول، المأساة تتوالى .. أمر الفاجر بأن يؤخذ المسكين على الفور إلى بغداد.. أن يذهبوا به إلى حيث ينتظره المصير المحتوم.. أيام ثلاثة تركوه مكوماً في زنزانة ضيقة.. أمام المحكمة العسكرية وقف الرجل يسمع منطوق الحكم عليه، طبقاً للمادة 225.. يعاقب الرائد سعد عبد الرزاق بالإعدام بعد أن اتهم بسب الرئيس.. أي عبث هذا!!!.. ظل الرجل يخدم النظام بحماس.. عشر سنوات.. قضاهما هناك على الجبهة.. حوُم الموت حول رأسه مرات.. الآن تأتيه الطلقة من الوطن.



10 | موت المتذوق

❶ الأكم يعتصرني.. ويجتاحني الخجل.. وقفت مشلولاً .. غير قادر على مساعدة المرأة.. شاركتهم بعجزي في قتلها.. خضت في لجة قذاراتهم.. أحاول أن أخرس صوت آلامي.. ماذا كان بوسعي.. حراسه بلا ضمائر أيضاً.. مجرمون مثل سيدهم.. وحوش ضارية.. كانوا سيفتكون بي لو تمردت على قانونهم.. لو أبديت ردة فعل غاضبة.. هناك في القصر لا أحد يهتم.. لقد ماتت الزوجة منتحرة.. وصرعت طلقات النظام الرجل.. الحراس اللاهون يثرثرون على حافة المسبح.. يتندرون على الضابط المقتول .. قالوا إنه أحمق .. لماذا ترك الأمر يصل إلى هذا الحد.. حد سب الرئيس.. المرأة لم تكن تستحق ذلك.

كلماتهم العابثة الماجنة تدمي قلبي.. عصابة بلا قيم.. لا معنى لشرف أو كرامة عندهم.. تأخذني الخواطر بعيداً.. ماذا لو كنت الآن في موضع ذلك الضابط.. لي زوجة وراقت لعدى.

لم يتغير الكثير في عالمهم الماجن.. فقط سيدهم عدى أصبح مقلداً في طلعاته العابثة.. لا يزور حانات بغداد كثيراً.. مرة أو مرتين في الأسبوع وليس أكثر.. يحاول أن يتجنب الظهور لبعض الوقت.. الحادث شهده كثيرون.. أخبار من هذا النوع لا يمكن تكتمها.. تتناقلها الهمسات إلى البيوت.. النظام رغم كل جبروته غير قادر على إخراس همسات الناس.. أو ربما لا يعبأ.. يتركهم ينفثون عن كربتهم بالتلهي بالهمس.. لا أعرف إن كان صدام قد أحيط علماً بالواقعة.. أم أن زبانية نظامه تكتموا الخبر..

ولم يرد ذكر للحادثة في الصحف.. فقط خبر صغير عن ضابط شاب جرى إعدامه بتهمة سب الرئيس.

إنصرف عدى في الأيام التالية إلى الاهتمام بالصحف التي عينوه رئيساً لها.. وإلى لقاءات مع رجال أعمال.. لقاءات عدة جمعت بينه وبين الحاج خالد الكبيسي.. تربط بينهما إلى جانب الصداقة معاملات تجارية.. يدير الحاج خالد مكتبا للاستيراد.. عدى لا يفضل اللقاءات العمل أن تتم في مكاتب شركائه.. يخاف أن تكون هناك كاميرات خفية أو أجهزة سرية للتسجيل.. يقول دائماً: لاتتعامل في أماكن اختارها شركاؤك.. لاتثق بأحد.. واسبراً عن الكل.. حتى الأصدقاء يمكن أن يكونوا مخادعين ومبتزين.. يفضل أن تجدرى معاملاته في أماكن يختارها هو.. النادي الاولبي كان دائماً مكانه المفضل.. هناك كاميراته هو.. وأجهزة استماعه.. الشركاء هناك على أرضه ووفق شروطه.. عدى واسع الارتباطات.. له أسهم مملوكة في أغلب فنادق بغداد.. ويحكم سيطرته على معظم صفقات الاستيراد الخارجي.. خاصة في مجال المواد الغذائية.. يملك أفضل المزارع في أماكن متعددة من العراق.. مزارع آلية وفر لها أحدث أجهزة المكنة.. وتعمل على النسق الأمريكي.. يدير مزارعه عفيف جودت ويعاونه جيش من المختصين الذين درسوا في الولايات المتحدة الأمريكية.. تنتج مزارعه أجود أنواع القمح وبكميات وفيرة.. مزارعه لتسمين الماشية يديرها بشار العبد لله.. إلى جانب ذلك يفرض سطوته على الفلاحين العاديين .. يأخذ محصول مزارعهم بثمان بخس.. ويفرض عليهم أن يشتروا السماد والمعدات بسعر فاحش فلا يبقى من السعر الذي حددته لشراء ماينتجون إلا ما يسد رمقهم بالكاد.. حتى السوق الداخلية تخضع لسلطوته.. المافيا التي تعاونه تفرق أسواق المدن العراقية بمنتجات

مزارعه.. يجبرون تجار الجملة والتجزئة على شراء نتاج مزارع ابن الرئيس.. آلة جهنمية لتكليس المال.. تنور لتسرق الفلاح والتاجر.. تنور في اتجاه واحد لتصب النقود في خزانة ابن الرئيس.. يقوم على هذه الماكينة شخصان عيّنهما عدى مستشارين ماليين في خدمته.. مدحت وصالح الشهبندر. تعليماته بقضي بتحويل الأرباح الصافية أولاً بأول إلى بنوك سويسرا.. إلى حساباته السرية هناك.. والتي لايعرفها إلا هو وعمه برزان التكريتي الذي يدير من جنيف أموال أبيه.

صالح الشهبندر مستشار عدى المالي كان متزوجاً من طبيبة عيون اسمها سميرة، امرأة جميلة وناجحة، جمالها من النوع الذي يروق الرئيس.. جعلها الرجل موضع عنايته.. أغرقها بهداياه، جواهر، سيارات، أغلى الملابس وأثمن العطور من أجل عيون طبيبة العيون.. قالت الهمسات التي تدور في منتديات بغداد أن الرجل جن بها.. صدام القوي الأنيق الجبار وقع في غرام المرأة.. نساء الطبقة العليا في بغداد الطامحات الى الوصول الى أقدامه سبقتهم المرأة بما لها من سحر.. إنصرف اليها دونهن.. إختارها ولم يتوقف عند مئات منهن كن يسارعن إليه - استجابة لأمره - عندما أشار أثناء الحرب مع إيران يطلب الذهب بدعوى مواجهة تكاليف الحرب.. التلفاز ييثر كل يوم صور اللواتي أتين إلى القصر في أبهى حلة.. يقدمن الخواتم والجواهر والحلى.. استجبن جميعهن لنداء الرئيس.. خوفاً أو طمعاً.

سميرة وحدها.. لم تشارك في ذلك المهرجان الهزلي.. حتى عندما طمع فيها الرئيس تمنعت.. لم تتجاوب على التو.. فأخذ خادمه الأمين الذي يتنوق الطعام قبله يلاحقها.. يذهب إلى عيادتها كل يوم.. ظل كامل حنا يحمل إليها هدايا سيده مرات متلاحقة.. وقبلت المرأة بعد تمنع أن

تذهب للقاء الرئيس.. قبلت دعوته.. التقياً في واحد من قصوره.. وتوثقت العلاقة.. علاقة في الخفاء ظلت بعيدة عن العيون ستة أشهر.. ستة أشهر نجح خلالها كامل حنا في إحاطة الأمر بسرية كاملة.. لا يجب أن تعرف زوجة صدام.. كفى ما جرت به العلاقة السابقة التي كانت بطلتها لاعبة التنس ماجدة من متاعب عائلية.. كادت تلك النزوة أن تدمر بيت هدام.. رايته الرغبة في ذلك الوقت أن يفصم عرى العلاقة الزوجية التي تربطه بابنة الخال.. الخال الذي كفله ورعاه.. لكنه ثاب إلى الرشد وأنهى العلاقة. هذه المرة تصرف صدام بشكل مختلف.. تزوج سميرة في الخفاء.. لم يعرف بأمر زواجه غير كامل حنا.. والزوج السابق الذي أجبر على الانفصال عن سميرة من أجل الرئيس.

ترى هل ترضى سميرة أن تعيش في الظل طويلاً!! جميلة هي ومحبوبة.. وفوق ذلك أنجبت ولداً جديداً لصدام.. المرأة الذكية تبحث عن طاقة تتسلل منها إلى العلن.. تستعين بكيد النساء لتسرب الخبر إلى الزوجة الأولى.. ولا يخيب كيدها.. تحمل الهمسات إلى ساجدة الخبر.

ساجدة امرأة هادئة.. لكن رغم هدوئها لديها ميل واضح إلى التباهي.. تعشق الاستحواذ على الأشياء الثمينة.. وكيف لا وقد استحوذت على أثنى رجل في العراق.. مثلها مثل أميلدا زوجة دكتاتور الفلبين السابق ماركوس.. تسافر مع مستشاريها في رحلات متعددة إلى أوروبا.. تعرفها هناك بيوت الأزياء الراقية.. هي عميل دائم عند ديور، إيف سان لوران وشانيل.. يأتيها المصممون إلى حيث يستقر بها المقام في جنيف.. يأتون ومعهم عارضات أزيائهم.. لا تذهب هي أبداً إليهم في صالاتهم.. إنها زوجة صدام.

جنون الرئيس وولده عدى بالتناقض متواضع إذا قيس بجنون الزوجة..

تبدل ملابسها كل ساعة.. تقتل ملها بالتزوين بالمجوهرات والتسكع في طرقات القصر.. تقف طويلاً أمام مرايا الباروك الكبيرة لتتملى قوامها.. وتستعرض ثيابها الفاخرة.. عشقها للمجوهرات الثمينة لا يقف عند حد.. تثرثر أمام الأخريات بتباه: هذا الخاتم اشتريته من ... وهذا العقد من ...، هذا الحلق صنع لي خصيصاً... غاص الغواصون من أجلي ليأتوا بحبات اللؤلؤ التي تزينه.

المرأة رغم الهدوء الظاهر على محيائها تسيء يوماً معاملة حراسها والخدم.. تعاملهم معاملة الرقيق.. في مرة عن لها أن تتمثل بربات البيوت.. غرست في حديقة القصر حبة طماطم.. لكن الشمس المحرقة في ذلك الوقت أثلقت الحبة.. فاستشاطت المرأة غضباً.. أمرت بجلد ستة من الحراس بحجة إهمالهم العناية برى حبة الطماطم.. ألقت بهم في الزنازين وتركتهن هناك لعشرة أيام لاقوا فيها أصناف متباينة من ألوان العذاب.

لما علمت بأمر الزوجة الثانية هرولت إلى أبيها شاكية.. راح الأب يستجلي الخبر ولما تيقن من صدق الرواية واجه ابن أخته صدام.. إهتزت العلاقة بين الرئيس صدام والخال خير الله الطلفاح حاكم بغداد.. ونصح الأب ابنته بترك القصر فانتقلت ساجدة إلى فيلا لا تبعد عنه خطوات وتجاور القبيلات الأخرى التي تقيم فيها بناتها رناً، رغد وحلا.

عرف عدى بأمر مغادرة الأم الحبيبة القصر.. ومافعله بها الرئيس.. استشباط غضباً.. إنها كل شيء لهذا الولد المدلل.. سوره العالي الذي يستظل به.

الولد يسعى للثأر لأمه.. لكن ليس من الأب الذي تزوج وإنما من ذلك الرجل الذي كان وراء الأمر.. توجهت نغمته إلى كامل حنا.. قال مستكراً فعلة الرجل: إنه هو الذي يأتي بالنساء لأبي، تباً له.. لماذا أتى بهذه

العاهرة، ولماذا تركها تستولي على أبي، لماذا لم يقتلها كالآخرى؟!

كان عدى يعرف أن لأبيه نزوات.. لكنه كان مطمئن البال أنها مجرد نزوات، ينهيها كامل حنا سريعاً.. تدهس سيارات رجاله المرأة التي ينتهي منها الرئيس. أو يجعلهم يفرقونها في نهر بجلة شرقى القصر.. شهدت مرة مصادفة واحدة من تلك الجرائم.. كنا مع عدى في قافلته في طريق العودة إلى المكتب رقم 7 .. كان على الطريق كامل حنا وعدد من رجاله يطاردون امرأتين بسياراتهم الليموزين السوداء.. ولم تتوقف المطاردة إلا والضحيقتين صريعتين في وسط الطريق.. تناثرت أشلاءهما لتختلط بالأسفلت الأسود.. وقام المجرمون بعد أن أخمدوا أنفاس المرأتين بجمع الأشلاء للتخلص منها.. أمرنا عدى بالتوقف.. وقف يسأل كامل حنا: عاهرات أبي .. أليس كذلك؟.. وأوماً الرجل بالإيجاب.

بعد أن انتقلت الزوجة الأولى من القصر إثر افتضاح الأمر.. جاءت الزوجة الجديدة ومعهما مولودها لتعيش في العن.. جاءت إلى جناح جانبي من أجنحة القصر.. القصر الذي يسميه صدام المشروع 2000، والذي قام بتصميمه مهندس نمساوي، وتكلف بناؤه أكثر من خمسمائة مليون دولار، وأنجزت البناء شركات فرنسية.

انتقال المرأة.. الزوجة الجديدة إلى القصر إهانة بالغة لحقت بالعائلة.. وأكثر الذين ألتهم تلك الإهانة كان عدى، بأن ذلك على محياه وانصرف إلى سلوكه.. الآن وبعد أن جمعتني به الشهور الطويلة أصبحت أعرفه أكثر.. أعرف مايؤله وما يأتي إليه بالفرح.. ألزمه أغلب اليوم.. أرتدي على شاكلته، أبذل ثيابي عندما يبذل ثيابه.. أقص شعري عندما يقص شعره.. أتلى بالخواتم المماثلة لخواتمه.. ملازمتي له ولطقوسه.. جعلتني أتعرف أكثر على مشاعره.. فضلاً عن ذلك.. الفتى لم يعتد في الغالب كتم

مشاعره.. تبايهه بقصصه مع النساء.. عبثه في النوادي.. كل أسرارها كانت كصفحات كتاب مفتوح.. لذا لم يكن قابراً على إخفاء بعض ما يدور في اللقاءات العائلية التي بدأت تنتظم مؤخراً.. وكانت تعقد في السابق مرة كل أسبوع في العادة.. أما الآن فتعقد تقريباً كل يوم ويتم الاتفاق عليها عبر الهاتف.. وكان يعود في الغالب بعد كل اجتماع مفعم بالغضب.. تتناثر كلماته هنا وهناك، ويجري على لسانه نكر ذلك الذي يسميه بلاعق اللعاب «كامل حنا»، وكذلك فاروق أبو عمر، القواد الشخصي لصدام، الذي يساعد كامل في التعبير النساء للوالد.. عن الوالد لا يتكلم عدى.. يعبر عن ضيقه منه فقط عبر امتناعه عن التحلي بالساعة الذهبية التي تحمل صورة صدام.. حبه الزائد لوالده أعجزه عن أى فعل تجاهه.. حتى الغضب غير قادر هو عليه.. لا يحب والده فقط.. بل يعشقه.. يعشق فيه القوة والمنعة.. أنكر أنه يوم الاحتفال بيوم مولده.. والكل يتطوح بفعل الخمر.. أخذ عدى ورقة بفتة 25 ديناراً، أشعل طرفها وخاطب (العزاج) السكارى من الرجال والنساء وهم ماضون في لهوهم أمام المسيح: افعلوا ما يحلو لكم.. لكن تذكروا شيئاً واحداً، دائماً وأبداً.. تذكروا على النوام لو أن واحداً سولت له نفسه التناول على أبي سوف أحرقه كما أحرق الآن هذه الورقة..

عدى الذي علمه والده منذ أن كان طفلاً الكراهية في مواجهة الأعداء، لاقدره له على توجيه الكراهية نحو أبيه.. وغير قادر على إيذاء الزوجة الجديدة.. إذن فليكن ذلك القواد كامل حنا هدفاً لحنقه وغضبه المكثوم.

أسبوع كامل قضيته نون أن أتلقي مهام جديدة من عدى، أسبوع من الراحة.. لا ينقل إلى حراسي الثلاثة إلا تعليماته حول ماذا على أن ألبس غداً.. وماذا يرتدي الحراس أيضاً.. التعليمات حول مظهر فريق معاونيه

يصدرها عدى كل يوم .. الامور تجري في مجراها المعتاد.. لا شيء سوى بعض استعدادات تجري في حديقة مجمع الوزراء، فقد تلقى كامل حنا أوامر من الرئيس بالإعداد لاحتفال يقام هناك.. وحدد للحفل بداية تشرين ثان 1988.

نشطت إدارة المراسم في توجيه الدعوات للوزراء ولقادة الحزب، والصفوة في مجتمع بغداد.. كما وجهت دعوة للسيدة سوزان مبارك حرم محمد حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية.. كامل حنا أرسل أيضاً بطاقة دعوة لقصى الابن الأصغر لصدام.. لكنه لم يرسل بطاقة لعدى.. ولما علم هذا الأخير بذلك ثار ثورة عارمة واعتبر أن ذلك الخيبت المدعو كامل حنا قصد إهانته بتجاهل دعوته للحفل.. وأنه قصد أن يستفزه ويعبر عن عدم احترامه له.. وظل لعدة أيام يقلب الأمر مع ندير التكريتي مسؤول حفلاته للرد على كامل حنا.. وتفق ذهنهما عن خطة ضيائية.. قررا أن يقيما حفلة مماثلة في مكان مجاور للحفلة التي يعدها كامل حنا.

نصب رجاله مكبرات الصوت ووجهوها إلى الجهة المقام بها الحفل الأول.. الطهاة يعدون طعاماً يجب أن يتفوق عدداً ونوعاً وشهية.. توجه الدعوات لكل أصدقاء عدى.. معارفه.. ويرغب أن تلبي نصف بغداد دعوته.. يقول عدى لعللي أسود: نحتاج إلى حضور أجمل نساء بغداد.. حتى أنا يدعوني عدى .. السقاة بملابسهم البيضاء يوزعون كؤوس الشمبانيا على الحضور.. الموسيقى الهادئة تعزفها فرقة عادل العلكة.. ولا نسمع صوت موسيقى الحفل الآخر رغم أن مايفصل بين مكان الحفلين ليس سوى سور من الأشجار القصيرة.. عدى يبحث عن سبب، أي سبب للاحتكاك بالحفل الآخر.. كلنا شعرنا بهذا.. لكنه لا يريد أن

يقوم بالخطوة الأولى.. الكل مشغول بالثرثرة وتذوق الطعام الشهى.. لا صخب من ذلك النوع الذي تشهده في العادة حفلات عدى.. هو وحده فقط الذي أخذ يعب من الخمر.. تناول عدة أقداح من الويسكي بون ماء أو تلج قبل العشاء.. وكونياك أثناء العشاء .. أخذ يشرب متلذذاً.

أسمع مع سكون الليل أصوات الطرف الآخر.. أميز ضحكات قصي العالية.. قصي الأخ الأصغر لعدى.. يصغره بعامين.. وهو على عكسه تماماً.. هادئ ورزين.. مثله مثل أخيه كان يذهب إلى المدرسة مصحوباً بالحراس.. وكانوا يجلسون في حجرة الدراسة في هدوء.. لكنه كان يكره عادات أخيه الأكبر.. الصباح والتباهي.. وكانت سيارته الرياضية التي يأتي بها إلى المدرسة تتساقط في هدوء وبون صخب.. أناقته هادئة، يفضل الحلل الإنجليزية الوقورة.. شعره مثل شعر بقية التلاميذ قصير ومرتب.. يرتدي دائماً السروال الغامق وقميصاً أبيضاً بنصف كم عندما يذهب للمدرسة.. تخرج عام 1988 من جامعة بغداد بعد أن درس القانون.. لم يكن مجتهداً في الدراسة، ولم يواظب كثيراً على حضور الدرس، لكنه كان عندما يرغب في الانصراف يفعل ذلك بون صخب.. كان يقف بهدوء ثم يذهب.. كان يحس أنه مميز، يتصرف برجولة، غير أنه لم يكن يرغب في التألف مع الآخرين.. لا يسعى إلى ذلك ولا يسمح لأحد بأن يفعل .. ينفر من الجلوس إلى جانب الطلاب الآخرين.. لا يحتمل رائحة عرقهم.. وكان يكثر من الجلوس في حجرة عميد الجامعة في ذلك الوقت الدكتور محمد الدوري، الدوري إنسان مراني.. طموح، عندما كان يصادف قصي وهو في طريقه في الصباح كان ينحني في أدب، قصي يومئ له برأسه ويتابع سيره في خطوات مسرعة، يتبعه حراسه، أكثر من عشرين رجلاً، ويحاول الدوري أن يتبع قصي، أن يقاربه، وكان يفتح له

باب مكتبه ويدعوه إلى الدخول.. كان الطلاب يلاحظون المحاولات المتملقة للرجل.. ويتندرون عليه، مبالغاته كانت لافتة للنظر.. حتى الامتحانات كان يسمح الرجل لقصى أن يؤذيها في مكتبه.

وكان لقصى رفقة الخاصة.. أبناء وزراء وأعضاء في الحزب.. كان من بين أصدقائه المقربين:

- باسم لطيف نصيف جاسم، ابن وزير الثقافة والإعلام.
- سائل سهيل، ابن قائد عسكري.
- مروان عدنان شريف، ابن وزير.
- إياد سعدون غيدان، ابن وزير.
- علي غائب، ابن ضابط حربي.

ولأحد من أصدقاء قصى استطاع في سنوات الدراسة التي تسبق الجامعة تحصيل ما يؤهله لدخولها.. لكن قصى رتب لهم الأمر، وأنهى هو دراسته بتفوق، حصل في امتحانات الجامعة على أعلى نسب الدرجات 99.9٪، وأعلنت إدارة الجامعة أن قصى صدام حسين على رأس الخريجين لعام 1988.. الكل يعرف أن الولد كأكخيه لم يكن يهتم بالدراسة.. وأن التمييز تصعته الإدارة تملقاً للنظام.

صدام حسين اهتم دائماً بقصى أكثر من عدى.. كان يحوطه بالرعاية، ويحرص أن يجنبه طريق عدى، ولما شب عن الطوق زوجه ابنة الفريق الركن ماهر عبد الرشيد، الفريق الركن الذي يقدره صدام للبطولة والشجاعة التي صاحبته أثناء الحرب، خاض معارك كبيرة نال من ورائها ثقة صدام وتقديره، صدام يحتاج إلى الرجل، يقدر مهارته، وكالعادة يسعى صدام لربط رجاله به بوشائج عدة.. والمصاهرة واحدة من تلك

الوشائج.

تزوج قصى من ابنة الفريق الركن وأنجبا زيتب، عين قصى بعد انتهاء دراسته رئيساً لنادي الفروسية العراقي، كما عينه والده نائباً لرئيس جهاز الأمن الخاص.. منذ أن أتيت إلى عالمهم لأعد كبديل لأخيه لم أر قصى إلا مرة واحدة.. هو الآخر له بديل، بديل من العائلة، ابن خال بعيد يشبهه إلى حد كبير.

بعد منتصف الليل بقليل غادر قصى حفلة كامل حنا وبرفقته زوجته، لاحظتهما الحراس، عدى الغارق في سكره أمر عادل العكلة بتغيير النغم الهادئ، أراد أن تعزف الموسيقى الصاخبة.. كان التوتر يطبع ملامحه، أخذ يتقافز بين الموائد، لا يتحدث مع أحد، يمناه تقبض على عصاه السحرية، عصا صممت له خصيصاً.. في طرفها سكين تعمل بالبطارية، شفره حادة كمبضع الجراح، كان عدى يقطع بها الزهور. يمزق البسط المفروشة على المناضد، حتى سيجاره أخذ يتلهى بقصه بشفرة العصا.

الجميع في حفل عدى فعلت الخمر برؤوسهم فعلها.. أخذوا يتطوحن في الخلاء البارد.. وسمعنا طلقات متتابعة انطلقت من الجانب الآخر.. طلقات كلاشينكوف وتبععتها ضحكات صاخبة.. أرسل عدى حراسه إلى هناك على الفور لاستجلاء الخبر.. عانوا وعلى رأسهم عزام التكريتي.. عاد ضاحكاً.. تساءل عدى: ماذا يحدث هناك؟! صرخ في الواقف قبالة يعرف خبز الطلقات.. أجاب التكريتي في بطة: لا شيء.. كامل حنا يعرب عن ابتهاجه.. وقف على منصة الحفل وأخذ يطلق العيارات تعبيراً عن هذا الابتهاج.. كان التكريتي يحدث بالخبر ولازالت الطلقات تتلاحق من الجانب الآخر.. عدى أيضاً كان يفعل ذلك في حفلاته.. إعتاد إطلاق النار تعبيراً عن فرحته.

هذه المرة اختلف الأمر.. كامل حنا يفعل ذلك وليس عدى.

عدى يصرخ في وجه عزام التكريتي: عد وأجبر ابن القحية على التوقف.. قل له إن ابن الرئيس لا يرضيه ذلك.

وينذهب الرسول.. وبعد أقل من دقيقتين يعود والجواب يتلأأ على شفثيه.. يستحثه عدى بالصراخات لينطق: ماذا قال لك؟.. ويأتيه الجواب من هناك.. الطلقات لازالت تتواصل.. تغطي على الجواب الخافت الذي ينطق به: رسول عدى: السيد كامل حنا يقول إنه لا يخضع إلا لأوامر السيد الرئيس.. جنُ عدى.. إندفع عبر الأشجار إلى هناك.. جرى والدم يصعد إلى رأسه.. كامل حنا واقف على المنصة، يقبض بيمينه على الكلاشيتكوف وفي اليسرى مخزناً إضافياً للطلقات.. أخذ يطلق دفعا متلاحقة عندما لاحظ عدى يتجه إليه.. صرخ عدى: أمرك بالتوقف.

خرست أصوات الموسيقى، والحضور أيضاً.. تلاحق النظرات الخصعين المتواجهين.. عدى يأمر كامل أن يهبط من على المنصة.. ينزل كامل في خطوات هادئة.. يتجه إلى عدى.. يقول وهو يتطوح بفعل الخمر: إني أطيع فقط أوامر الرئيس.. معارضة علنية أمام شهود يراقبون ما يحدث.. ازداد بفعلها غضب عدى وأخذ يرجف بشدة.. لأول مرة يُطارض هكذا وأمام شهود.. وأي شهود.. صفوة مجتمع بغداد.. وضیوف على رأسهم سيدة مصر الأولى زوجة مبارك.. متنوق الطعام، كلب أبيه يطارضه، يتجراً على عدى، ابن صدام الأكبر.. الدماء تغلي في عروقه.. يرفع عصاه الإلكترونية ويضرب بها رأس كامل حنا، ضربات متلاحقة.. يتراجع الرجل أمام الضربات القاسية إلى الوراء، وعدى يتابع الهجوم الوحشي، يدفع بالشفرة الحادة إلى رقبة الرجل، يجز الخنجر لتدافع منها الدماء، ويتهاك الرجل على الأرض إلى جوار منضدة سوزان

مبارك.. تتناثر الأطباق وأنبوات الطعام تغطي جسده المكوم.. صرخات النساء تتعالى، الضيفة يسحبها الحراس بعيداً، يتدحرج كامل حنا إلى الأرض، ويلاحقه عدى من جديد، يضربه ضربات مجنونة.. ويحاول كامل أن يدفع عن نفسه ضربات عدى.. يجاهد في وهن ليرفع كلاشنكوفه، لكن عدى يزيح السلاح جانباً وتتواصل لكماته للرجل، يندفع أخو كامل - وهو ضابط كبير في جهاز الأمن الخاص - نحو عدى وهو يصرخ: سوف أقتلك.. سوف أقتلك، لكن حراس عدى كانوا أسرع منه، أمسكوا به وألقوه أرضاً إلى جوار كامل.. عدى وصلت ثورته إلى القمة، وقف وهو يتنفس بجهد كثور هائج.. صوب مسدسه إلى كامل حنا المكوم على الأرض.. وأخذت طلقاته تتلاحق.. أصابت الأولى معدة الرجل واستقرت الثانية في الصدر.. خيم السكون.. لا أحد قادر على الحركة.. أو النطق.. لم يتحرك غير حراس عدى.. ركضوا إلى الهاتف ليعلموا صدام بالامر.

وقف عدى على رأس الجثة يحدق في الميت.. يحدق في الرجل الساكن.. وفي الفراغ.. أخذ يدير نظراته في الأشباح الواقفة تحديق هي الأخرى في الفراغ وفي الجثة وفي عدى.. عدى الذي انتصب كواحد من أبطال الملاحم الاغريقية يهذي بكلمات مختلطة وهو واقف على رأس ضحيته.. يبكي ويضحك، يصرخ ويتمتم.. وقفة لم تطل .. قطعها البطل المناوئ قافزاً إلى الدغل.. ركض متوجهاً إلى بناية الوزراء وحراسه يتبعونه.. صعد إلى الطبقات العليا.. دلف إلى مكتب من مكاتب البناية وأحكم إغلاقه عليه.

بعد دقائق وصل الرئيس .. لم يكن يرتدي غير سروال، وقميص مفتوح، .. لقد أتى على عجل.. هرول إلى حيث تكومت جثة كامل حنا.. إنحنى وهو يصرخ فيمن حوله: الطبيب، أين هو الطبيب؟! وجاءت على

الفور سيارة الإسعاف لتتنقل الجثة.. صدام لا يصدق أن حارسه.. خاضه الأمين جثة هامة.. غادرتها الروح.. يصرخ في الأطباء، صعد إلى سيارة الإسعاف مع الصديق الساكن.. أسرع السيارة إلى مستشفى ابن سينا.

ماحدث بعد ذلك.. عرفت في صباح اليوم التالي من عزام الحارس الأول لعدى.. لقد حاول الفتى الانتحار.. أمر حراسه بإحضار الأقراص المنومة.. دفع إلى جوفه محتويات علبة كاملة.. وقع مغشياً عليه.. وأسرع الحراس بنقله هو أيضاً إلى مستشفى ابن سينا.. في الطريق قال بصوت واهن للحراس: لا تقولوا لوالدي.. أريد أن أموت.. لكن الأطباء أبلغوا صدام أن ابنه جيء به أيضاً.. أسرع الرجل إلى ولده غاضباً.. أزاح جانباً الأطباء المنهمكين في إفراغ مافي جوف الفتى.. شد في قسوة الأنبوب البلاستيكي الذاهب إلى حلق عدى .. أخذ يصفع الرائد في وهن صفعات متلاحقة وهو يصرخ فيه: دمك سوف يسيل كم كامل الذي أوديت به.

فعلة عدى آلت صدام كثيراً.. كامل حنا كان يعني له الكثير.. وغادر عدى المستشفى بعد أيام، القصر الجمهوري أصابه الخرس، والصحف أيضاً، في القصر كان تقديرهم أن الحادث عمل وحشي.. كان نتاج ردة فعل عادية من رجل غاضب وغير قادر على امتلاك زمام نفسه.. كانوا يعرفون أن عدى يترك نفسه دائماً لأحاسيسه المتوحشة تسيره.. لديه ميل دائم للعنف .. تربى في أحضان تعشق القسوة وإهدار الحياة.. فوق ذلك كانت تسيره رغبة دفينة لتحقيق ماتوده الأم وتتمناه.. لقد أبدت مرارا - على مسمع منه - رغبتها في القضاء على تاجر النساء كامل حنا.. لم تأمره مباشرة بذلك، لكنها بإفصاحها عن هذه الرغبة زادت حنقاً على

الرجل الذي تسبب في إيلامها... تسبب في تكدير صفو من يحبها حباً
جماً.

وكان على عدى أن يغادر بغداد حتى تهدأ العاصفة.. صحبه جاسم
إلى جنيف، أمر صدام أن يذهب إلى جوار عمه برزان التكريتي .. وأعلن
صدام أن عدى يجب أن يدفع ثمن جريمته.. يجب أن يقدم الى المحاكمة،
وفي ذات الوقت بدأ صدام بالضغط على عائلة كامل حنا.. ضغوطه في
هذا الاتجاه أثمرت، جعلت الضابط الكبير أخو كامل الذي هدد وتوعد
عدى يسارع بطلب العفو عن المتهم، طلب العفو عن قاتل أخيه وتنازل عن
حق الأسرة في طلب المحاكمة.

ورغم سقوط الدعوى.. ورحيل عدى بعيداً.. لم تهدأ العاصفة التي
هبت في أجواء العصابة.. أصاب الحادث جدارهم الصلد بشقوق غائرة..
الأسرة التي كانت متماسكة دائماً، وقادرة بهذا التماسك على المحافظة
على سلطتها وجبروتها أصبحت بعد الحادث معرضة للخطر.. مجد صدام
الذي بناه على أرض الوشائج العائلية يكاد أن يميل ويتداعى.. أقدام
سميرة عندما خطت الى داخل القصر أتت معها بالمتاعب لصدام.

ساجدة ووالدها خير الله الطلفاح وأخوها عدنان خير الله ثاروا في
وجه صدام.. أكثرهم حنقاً وضيقاً كان عدنان خير الله.. عدنان الصديق
الحميم وابن الخال وأخو الزوجة الأولى.. ذراعه الذي يركن إلى عونه وقت
الحاجة.. عينه عندما قبض على مقاليد السلطة وزيراً للدفاع.. الرجل
محبوب في العراق.. يعتبره الناس بطل الحرب... قائدنا الحقيقي..
ويقدرون له لفتاته الإنسانية تجاه جنوده.. مشروعه لإعادة تأهيل معوقي
الحرب لاقى استحسان أهل العراق .. العطايا والمنح التي أغدقها على
الذين تضرروا من القتال جعلته محبوب الشعب، أصبح نجماً يحتفى به،

رفعه تقديرهم ليكون في موضع الرجل الثاني بعد صدام.. مستشارو صدام سجلوا في دفاترهم مايموج به الشارع من حب للرجل.. رفعوا تقاريرهم إلى القائد الذي يعرفون أنه لايرتاح إلى المزاحمة.. كانوا على ثقة من أن صدام لن يحتمل الرجل كعادته.. لكن صدام لم يتجاوب مع مخاوفهم حتى جاء حادث مقتل كامل حنا.. جراءة عدنان وثورته لماحدث جعلت الرجل يعيد التفكير في المسألة.. لم يتوقف عدنان عن المجاهرة بأرائه فيما يحدث للأسرة.. كان يصرح أنه يشعر بالعار من الطريقة التي يعامل بها صدام أخته ساجدة، يعلن عدم الارتياح لمغادرتها القصر وحلول منافستها فيه، ويتمادى في ثورته متهماً الرئيس بتدمير السلام العائلي.. المشاحنات العائلية زادت حدتها وأصبحت ملحوظة من حراس القصر وخدامه.. ساجدة ووالدها خير الله إمتنعا عن حضور اللقاءات الأسبوعية.. ساجدة أمرت حراسها أن يحولوا دون اقتراب سميرة من فيلتها في ساحة القصر.. عدنان يذهب كل يوم علانية الى أخته ليلقاها في مسكنها.

صدام يرد على ماتمور به جنبات القصر بطريقته الخاصة.. يرسل أولاً سميرة وولدها في رحلة إلى أوروبا.. ويبدأ في مضايقة الأسرة.. المخابرات السرية تدهم محال الخال خير الله الطلفاح.. ألقى القبض على سبعة عشر مسؤولاً في شركة الرجل، وشنقوا بتهمة الاحتيال وخداع الشعب، جرت وقائع شنقهم في الوقت الذي كان بيت التلفزيون حديثاً أجراه مع صدام، ويمدح صدام في الحديث المذاع الخال الذي رباه وأسهم في بناء العراق بقدرته السياسية.

ويصل تدبير صدام حده الأقصى.. بعد الحادث بأشهر يدعو صدام العائلة جميعها إلى رحلة إلى شمال العراق.. الزوجة ساجدة، قصي، بناته

الثلاث رعد، حلا، ورناء، وأيضا عدى الذي كان قد عاد من جنيف.. ويدعو إلى الرحلة أزواج بناته وزوجة قصى.. وعدنان خير الله.. ومن المقرر أن يسافر الجميع على متن طائرات مروحية.

صدام يستقل مروحية.. وتستقل الأخرى ساجدة وبناتها.. وعدى وقصى كل يأخذ مروحيته الخاصة.. وكذلك عدنان خير الله.. المروحيات تقلع جميعها.. تتابعها كاميرات التلفاز.. ويصلون إلى هناك.. إلى المكان الذي دعاهم إليه صدام.. بعد أربع وعشرين ساعة يطن التلفاز الخبر الحزين.. يقول المذيع بنبرات تنقطر حزناً إن وزير الدفاع عدنان خير الله اضطر لأسباب طارئة إلى العودة إلى بغداد، لكن عاصفة رملية هبت وطارثته تحلق في الجوفأنت إلى سقوطها.. ولقى هو وحراسه مصرعهم. وعادت الأسرة جميعها لوداع جثمان البطل الذي سقط شهيد الواجب.. تساقطت دموعهم وهم يودعونه إلى مثواه الأخير.. تابعت الكاميرات دموع صدام المنهمرة.. تصنع الرجل الحزن.. كان يبكي الصديق والأخ والبطل.. يبكي بحرقة.. رغم أن الكل يعرف أنها دموع تماسيح.. وأن العاصفة لم تكن سوى المشجب.. الستار الذي أخفى وراءه فعلته الآثمة.. الأسرة وشعب العراق موقنون أن الرجل قتل وأن صدام هو القاتل.

تنتهي مراسم الدفن.. وتبدأ المواجهة.. يصرخ خير الله الطلفاح في وجه صدام: أنت دمرت ابنتي، وأمرت بقتل ابني.. ولذلك أقسم أنني سوف أنتقم منك.. ويعطى الرجل بعد أيام ماتمور به جوانحه.. يعلن حقيقة الحادث لمجتمع بغداد وينفي الرواية الرسمية.. دلال على الجرم بوقائع قال أنه يملك الدليل عليها:

- في الوقت الذي طار فيه عدنان عائداً الى بغداد لم تشهد سماء

العراق كلها أي عواصف رملية.

- لا سبب هناك لما قيل إن أمراً هاماً وعاجلاً استدعى عودة عدنان إلى بغداد.

- ويؤكد خير الله أن مروحية ابنه حوت أربع عبوات متفجرة في مكان خفي.. زرعها جاسوس يدعى كريم بأمر مباشر من حسين كامل زوج رغد الابنة الكبرى لصادم، وقال أيضاً إن علي حسن المجيد مسؤول عن تنفيذ العملية التي أمر بها صدام.. كريم المتهم من قبل والد عدنان سافر يوم الحادث على متن طائرة الخطوط الجوية العراقية إلى باريس.. وهو الآن لاجئ سياسي هناك.

صدام لم يكلف نفسه عناء الرد على اتهامات الخال.. إصطحب حراسه وذهب في رحلة لصيد الطيور البرية.



البنت الحمراء

● أب 1989، علامات الانزعاج أخذت طريقها إلى ملامح عدى، نقل إليه عزام أنباء عن اشتباكات جرت في محطة الباص وسط بغداد، كوكبة من جنود الجبهة العائدين اشتبكوا مع المدنيين.. خمسون مسلحاً جاؤوا من هناك يحملون على ظهورهم عناء سنوات القتال.. سنوات طبيعتهم بالخشونة والتبرم.. ثاروا وربما لأسباب تافهة.. عشرات القتلى تباثرت جثثهم على الطوار.. هرولت حافلات الحرس الجمهوري ورجال جهاز الأمن الخاص للسيطرة على الوضع الذي تقجر.. دامت الاشتباكات طوال الليل.

عدى أرسلني صباح اليوم التالي وبرفقتي حراسي إلى محطة الباص لاستطلاع الأمر.. مهمة سهلة لكنها خطيرة.. التعليمات تقضي أن نتوقف هناك.. نهبط من سياراتنا للمعاينة ثم نعود مسرعين إلى المكتب رقم سبعة.. أحضر لي جاسم حلة سوداء لأرتديها.. إنطلقت قافلتنا إلى وجهتها.. عشر سيارات مرسيديس ليموزين متشابهة.. عندما وصلنا إلى هناك لم نجد أثراً لاشتباكات الأمس.. الوضع هادئ.. إلا أن الساحة تغص بالمظاهر العسكرية.. مدرعات جنود تزحم المكان.. عندما هبطنا ابتعد الناس الواقفون ينتظرون الباصات.. إتجهت إليهم.. كانوا متسربلين بصمت مخيف.. يحرقون في خوف.. ملامحهم تعكس ماتجيش به نواخلهم من ضيق وكراهية للنظام.. منذ عام مضى كنت هنا أشاركهم

أفراح النصر.. وجوهم التي كانت تطفح بالبشر والابتهاج أصبحت الآن شاحبة.. اليأس والإحباط يطبعان ملامح الجميع.. ثمانية أعوام من المواجهة أكلت الأخضر واليابس.. حرب ضروس جعلت عراقنا الموفور العافية يقف على حافة الإفلاس والضائقة.. جيش المليون جندي تدنت معنويات رجاله بعد أن توقفت طبول الحرب.. أخذوا يعيشون في الأرض فساداً.. تحول بعضهم إلى لصوص وقطاع طرق.. كانت تأتينا أخبار جرائمهم ونحن في القصر ولم نكن نصدق ذلك.. لكن هاأنا أشهد بعض مايجري.. لاجث في الباحة.. لكن بقايا الدماء لازالت تلوث المكان.. خطوت إلى أربع نسوة وقفن وأطفالهن في انتظار الباص.. حاولت أن أتباسط معهن.. سألت عن الأحوال.. كن خائفات.. ركعن عند أقدامي.. تلعثت الكلمات الواهنة وهي تخرج من أفواههن.. قالت إحداهن والأمل يحدها أن تلقى مني العون: سيديء لا نعرف كيف نربي أطفالنا، كل شيء غالٍ وعزيز المنال.. حاولت أن أخفف بلواها بكلمات.. أعرف أنها مجرد كلمات.. قلت أنني سوف أهتم بالأمر.. أمرت الحراس بتسجيل عنوان مخاطبتي، وعادت القافلة.. عكفت على كتابة تقرير حول الزيارة.. كتبت كل شيء.. سجلت ملاحظاتي.. ورأيي في أسباب ماحدث.. كتبت عن معاناة الناس والجنود.. كتبت عن حالة الإملاق التي وصل إليها ناس العراق.

ماكتبته لم يرق لعدى.. ثار في وجهي.. ألمه ذكر الحقيقة.. ضربني بعصاه الإلكترونية.. صرخ في وجهي: هذا كذب.. قل إن هذا غير صحيح. واصل ضربني.. وواصل الصراخ: لماذا لم تنقيد بتعليماتي؟ لماذا تكلمت مع الناس؟ لم يأمر أحد بذلك. أنت فدائي، لا تنس ذلك أبداً.

جراند الصباح التي يرأسها عدى أبرزت في صفحاتها الأولى الحدث الذي جرى عند محطة الباصات.. عناوين بأبناط كبيرة «الشرطة تلقي القبض على سارقي سيارات» وتحت العنوان تسرد القصة الملفقة: «فتحت شرطة بغداد النار على عصابة لتهريب السيارات، ومما يؤسف له أنه وقع أثناء الاشتباك بعض ضحايا من عامة الشعب تصادف وجودهم في موقع الإشتباك مع المجرمين».. ولا يختلف ما بثوه عبر التلفاز والراديو كثيراً.. التلفيق ذاته.. كان جُلّ مهم التأكيد على أن الحال هادئ وطبيعي.. والنظام مستقر.

لكن الحقيقة رغم محاولات الطلاء تبرز رغم أنف النظام.. مشكلاته بعد انتهاء ضجيج الحرب آخذة في الطفو على السطح.. ويحاول النظام أن يحكم قبضته على الخيوط المتشابكة.. جيش المليون متعطل بلا عمل يشكو جنوده الفاقة، تدفعهم الحاجة والفراغ إلى احتراف السرقة.. شعب تحوطه إحباطات جمة ويحاول التملل من قبضة النظام القاهر.. لكن الحكام الساديرون في غيهم راكنون إلى الدعة، غير آبهون بالبركان المتأجج تحت الغلالة الرقيقة للسطح الساكن.

عدى عاد بعد أن خبت نيران فعلته إلى سابق عهده.. لاهم له إلا الاستغراق في اللهو.. مثله مثل بقية العصابة لا يكثرثون بما آل إليه حال الناس في العراق المفلس من جراء غيهم.. يعبث عدى بالقول حين يريد أن يعلق على حال الناس: إذا كان الشعب لا يملك الخبز.. لماذا لا يأكل الحلوى.. بل يتمادى في غيه فيتباهى بإظهار ما يملك.. يفاخر بأنه نجح وهو في سويسرا في إكمال مجموعة ساعاته الفاخرة لتصل إلى أكثر من ألف ساعة.

برنامج اليوم عاد إلى سابق العهد.. التسكع في النوادي وبارات
الفنادق.. سكر وعريضة، جيش من النساء يتبعه.. مريدوه كثيرون وأعداؤه
أيضاً.. ليس اليهود والإيرانيون والمصريون والنجاب الأزرق وحدهم فقط
الذين يكرههم عدى، أضاف إليهم الكويتيين.. بغداد أصبحت هذه الأيام
حافلة بأعداد كبيرة منهم.. كانوا يأتون خاصة في أيام الخميس للسهر
واللهو في منتديات وخمارات بغداد.. يأتون ليغرقوا في الخمر الممنوعة
في بلدهم.. يكرههم عدى لأنهم جاؤوا بدولارات بترولهم ليزاحموا أماكن
لهوهم.. يصفهم بلصوص البترول.. لم تشفع لهم عنده المساعدات الهائلة
التي قدمها بلدهم لنظام الوالد ليصمد في سنوات الحرب.. مليارات
الدولارات جاءت من خزائنتهم طوعية.. كل أهل ذلك البلد لصوص في نظر
عدى.. كلهم بلا استثناء.. حتى من تربطه بهم صداقة أو علاقة عمل..
جاء في يوم إلى فندق الرشيد الأمير فهد الأحمد الصباح شقيق أمير
الكويت.. رئيس اتحاد كرة القدم الكويتي، والذي يرأس أيضاً اللجنة
الأولمبية الكويتية.. والتقاء عدى، أخذه بالأحضان.. قال أمام السُّمار..
هذا الرجل مثل أخي.. لم أكن حاضراً للقاء، لكن الحراس أخبروني
بوقائعه.

ورغم مظاهر الترحيب التي قابل بها عدى الضيف الكويتي.. فاجأه
الأخير بما أحنقه.. سأل فهد عن الديون المستحقة على العراق.. قال له:
أحد عشر مليار دولار اقترضها العراق منا.. متى سوف تعيدها إلينا؟..
طالب بديون بلده جهراً وأمام شهود.. فأنزعج ذلك عدى.. لم يتوقع ما جاء
على لسان الرجل.. ظل ليوم كامل بعد اللقاء منزعجاً، ومتوتراً.. يردد في
صوت مسموع: إنهم لصوص، لصوص ماكرون.. يسرقون بترولنا منذ

سنين.

يدور في مكتبه.. ويأتيه منعم حمد بملف عن العلاقات بين العراق والكويت.. وجلس إلى مكتبه يقلب الوثائق بضيق.. أخذ يطالعها ويهز رأسه.. ويهبط واقفاً.. يمسك بخناق منعم ويخاطبه زاعقاً: أنت تعرف مثلي أنهم يسرقون بترولنا.. يسحبونه من الرميلة.. الرميلة ملكنا.. قل إنك تعرف هذا.

ويوافقه منعم على يهدأ.. يقول مؤمناً على الكلام: نعم يسرقون بترولنا.. وفوق ذلك يتهموننا أننا مدينون لهم.. حقل الرميلة يقع في منطقة الحدود بين العراق والكويت، القسم الأكبر من الحقل يقع داخل الحدود العراقية، كيلومترات قليلة تقع فقط في الأرض الكويتية.. لكن ماتملكه الكويت من تكنولوجيا عالية يتيح لها أن تسحب من الحقل أضعاف مايسحبه العراق.

ويواصل منعم حمد حديثه ليؤكد لسيدته الحق العراقي: سيدي إنهم يسخون من الحقل الذي هو في الأصل مملوك لنا.. الفاصل الحدودي مجرد خطأ.. الرميلة كلها ملك للعراق.

عدى يهز رأسه علامة الرضا.. يؤمن على شهادة منعم: سوف يأتي اليوم الذي نبرهن فيه على ذلك.. وأضاف: والذي تحدث عن ذلك عدة مرات.

يستدير ليحرق في خارطة ضمها الملف الذي أتى به منعم.. مرسومة عليها الكويت كواحدة من مقاطعات العراق الثلاث وقت أن كان تابعاً للدولة العثمانية.

ويقرأ بصوت عالٍ تعليقاً كتب على حاشية الخارطة:

«سوف نوسع حدود العراق إلى جنوب الكويت، ولا يحق لغير العراق أن يعقد عقوداً أو اتفاقات بشأن الكويت، ولهذا نعتبر أن ما عقد بين مشايخ الكويت وبريطانيا باطل قانوناً. باعتبار أن شعب الكويت جزء من شعب العراق».

النص الذي على الخارطة هو لعبد الكريم قاسم الرئيس الأسبق للعراق.. قاله بعد ستة أيام من منع بريطانيا الاستقلال للكويت في 19 حزيران 1961 وفق معاهدة وقعت مع عبد الله السالم الصباح.

التوتر والاشتباكات طبعت العلاقة منذ ذلك التاريخ بين العراق والكويت نتيجة عدم اعتراف العراق باستقلال الكويت.. ووصل التوتر إلى ذروته بعد أن دفع العراق بعدد من ألويته إلى داخل الكويت حتى «المطلاع» التي لا تبعد عن الكويت العاصمة بأكثر من أربعين كيلومتراً.. وأرسل البريطانيون بدورهم أكثر من ستة آلاف جندي لصد الهجوم العراقي.

حمل الاستعمار البريطاني عصاه ورحل.. لكنه خلف وراءه توترات دائمة تبرز بين حين وآخر.. عام 1922 أتى السير برس كوكس بحكام المنطقة إلى طاولة يحاورهم.. ولما أرهقته المحاورة رسم خطأ بقلمه الأحمر على الخارطة امتد من قمة الخليج إلى حدود الأردن.. وخطين آخرين لما عرف بالمنطقة المحايدة التي تقاسمتها السعودية والعراق فيما بعد.. البترول الذي تفجر في المنطقة جعل من تلك الخطوط الشائكة المرسومة في لحظة ضيق خطوط شائكة حافلة بالصراع.

لقد اضطر العراق بعد الإطاحة بقاسم أن يعترف بالكويت.. يجلس

معها في المؤتمرات الدولية والعربية باعتبارها بلداً لا مقاطعة من مقاطعاته.. لكنه ظل يتحين الفرص ليغير الأوضاع التي أرغم على مجاراتها.

عدى الجالس إلى مكتبه يفكر بصوت عالٍ.. يردد قناعات نظام أبيه: إذا استولينا على الكويت ينتهي العراق من مشاكله دفعة واحدة.. الجنود المتعطلون سيجدون لهم مهمة أخرى.. الكنوز التي تزخر بها بنوك الكويت سوف تأتي بالرفاهية لشعبنا.

منعم صامت يرقب الفتى.. جلست أتابعهما موزع بين الدهشة والاستغراب.. أجاهد لأبدو هادئاً.. لازال الفتى يردد كلمات أبيه.. ويؤكد في النهاية على أن: لو أن والدي كان في الحكم في العام 1964 لما كان هناك شيء اسمه الكويت.

كانت كلمات عدى تحمل نذر ماسوف يأتي.. أفصح عن النية المبيتة لاجتياح الكويت.. حرصت أن أسجل في دفتر ملاحظاتي الحديث الذي جرى بشأن الكويت.. سجلته إلى جانب ماتشير إليه صحف العراق حين وآخر حول الموضوع ذاته.. لقد دأبت صحفنا التأكيد على حق العراق.

«لم يتوصل إلى اتفاق حول الحدود بين البلدين..»

«إن تعترف بغداد بالحدود إلا إذا أبدت الكويت استعدادها للتنازل عن جزر قريبا وبوبيان للعراق..»

شذرات مما تنشره الصحف حول العلاقة المتوترة بين البلدين ومبالغاتها حول ما يجري في الكويت وما يمتلكه الأمراء هناك حرصت على

تسجيلها.. غالبت ضحكاتي وأنا أسجل ذلك.. مجموعة سيارات عدى تفوق ما تقوله تلك الصحف عن عدد سيارات أمير الكويت.. والعريضة وحياة العيب التي يفرق فيها عدى تدفع إلى مقدم رأسي المثل القائل: من كان بيته من زجاج عليه أن لا يقذف بالحجارة بيوت الآخرين.. الصحف مثلها مثل بقية وسائل إعلام النظام تبحث عن عدو توجه له سهامها، ولتشغل الناس عن مشاكل النظام المتفجرة.. مشاكل العصابة العابجة.. ومثالها الخالص عدى.. عدى الذي لا يتوقف عن طيشه.

– خريف عام 1989، الليل يقترب من ساعات سكونه، وسط الصالة الواسعة لفندق الرشيد وقف عدى.. الخمر التي أفرط في شربها تدير رأسه، حراسه أيضاً يتطوحن من السكر.. في ركن وقفت فتاة فاتنة اسمها ليندا إلى جانب أمها تبيعان الورود لرواد الفندق.. راقبت الفتاة لعدى فأمر الحراس بأن يأخذوها معهم.. سيقن ليندا والأم ونظرات الرواد تتابعهما.. سحبهما الحراس في قسوة.. بعد أسبوع وجدت جثة الفتاة اللبنانية.. وكذلك جثة الأم على قارعة الطريق، عند أطراف شارع المغرب في بغداد.. لقد اغتصب الفتى ليندا وترك الأم للحراس.. ولما نال وحراسه مرامهم الحرام كانت النهاية المعتادة.

– في باحة نادي الصيد، واحدة من حفلات عدى الصاخبة، عادل العكلة واقف يغني بما يطرب له عدى.. الأغنية التي تمجد صدام الأب.. «صدام يا كبير.. الله يحفظك لنا.. ويحفظ شبابك».. يهتز عدى طرباً ويردد مع المطرب كلمات الأغنية.. يفعل الحراس والحضور كذلك.. إلا واحدة، غادة حافظ.. فتاة جميلة.. دفعها السكر إلى الضحك بصوت مرتفع.. خدشت عالمهم.. قفز إليها عدى.. شدها من شعرها الطويل

وصرخ: لماذا تضحكين؟!.. غادة رغم الألم الذي اجتاحتها تمادت في ضحكها الهستيري.. ردت عليه صارخة في استهزاء: كم ترى عمر الرئيس الشاب الذي يغني له مطربك هذا.. وتجاهد لتتخلص من قبضته.. وتنجح في ذلك.. سوت شعرها وواصلت غير مكترثة الكلام والضحكات.. الغضب الذي اجتاح الفتى وصل إلى الذروة.. صوب تجاهها فوهة مسدسه.. ثلاث طلقات متتابعة اخترقت صدر الفتاة.. توقفت الضحكات وتوقفت الأنفاس المتهتجة.

الحاضرون جميعهم رأوا الواقعة.. شاهدوا عدى يقتل الفتاة.. رغم ذلك ألصقت التهمة بآخر.. تاجر سيارات يعمل في خدمة عدى.. سبروان الجاف، حكم على الرجل بالسجن ثمانية أشهر فقط.. قالوا إن الرجل قتل الفتاة لأنها سببت أمام شهود القائد صدام. ١٠

جرائم أخرى سجلتها في نفثري.. بطلها جميعاً الفتى الأرعن:

- في واحد من أيام الخريف قرر عدى أن يذهب وأصدقائه إلى الموصل بغية اللهو، هناك قصر أبيه الواقع إلى جوار فندق نينوى أوبروى.. توقفت القافلة عند أبواب الفندق.. دخل وركبه.. في ركن كانت واقفة.. عائلة جمعها السرور والغبطة.. توقفت نظرات عدى على قوام صغيرتهم.. جميلة وغضة.. لم تبلغ بعد سنتها السادسة عشرة.. أمر حراسه بأخذها إلى القصر.. إغتصبها في وحشية، ثم أمرها بالعودة وشدد عليها أن لا تبوح بكلمة عما جرى.. بخطوات متناقلة من الألم جرت الفتاة نفسها إلى الفندق.. الفتاة غير قادرة على الكتمان.. تحاول أن تشكو إلى أهلها ماحل بها.. لكن الكلمات لا تطاوعها.. يالهل ما اقترف الفتى.. الصغيرة أصلاً غير قادرة على النطق.. لقد أصابها الصمم

والبكم بعد شهر من مولدها.. تجاهد بإشارات من يديها وقدميها لتروي
الحادث للأهل.. تستدير إلى الرواد لتحكي لهم.. لأحد يفهم إشاراتهما..
أو على الأرجح لا يريد.. ويعوذ الحراس ليسحبوها من جديد.. هذه المرة
إلى الغابة.. ليفتصبوها هم بعد أن نالها سيدهم.. وطئوها حتى عجزت
عن الوقوف.. عادوا لسيدهم.. قالوا إن الفتاة خالفت ما أمرها به..
أرادت أن تتكلم.. أوماً لهم.. فاستجابوا.. عادوا فقتلوا وأوسدوها حفرة
في الغابة المتشابكة.

– من وقت إلى آخر كانت بيداء عبد الرحمن المشتغلة بالغناء وتظهر في
برامج الصغار على التلفاز تأتي إلى المكتب رقم سبعة بدعوة من عدى..
وكانت الفتاة تفاخر بصداقة عدى.. وتركن إلى مساعدتها.. في يوم
جاءت شاكية أن هناك أخرى تدعي أنها صديقة عدى.. طالبة شابة اسمها
سناء الحيدري.. لطفها عدى وحاول أن يبدو غاضباً، أمر بإحضار
الشقية.

جلس ممداً وإلى جواره المغنية الحسنة.. الفتاة الأخرى وقفت ترتجف
بعد أن انتزعوها من مقاعد الدرس في الجامعة.. قال يسألها: هل
صحيح ما تقوله بيداء؟.. تقول إنك تدعين أنك صديقتي؟.

الفتاة المسكينة تقول في خوف وهلع: سيدي لم أقل ذلك أبداً.. لم أقل
البتة إنني صديقتك.

يتأملها ملياً.. كلماته متكاسلة لكنها أمة: إنزعي ملابسك.. تعددي على
الفراش.. وانتظريني.. وتطاول المسكينة.. غير قادرة على الاعتراض فقد
تناهت إلى مسامعها سيرته.. تعرف ماسوف يحل بها لو عارضت
رغباته.. جاء وعصاه تلمع في فضاء الغرفة.. تلاحقت الضربات على

الجسد العاري.. وتلاجعت صرخات الفتاة.. هذا مايطرب له عدى.. يستعذب سماع آلام الآخرين.. تنفر الدماء من العروق.. يختلط البكاء بالصراخ.. ألقى بجسده الثقيل على الراقدة.. إغتصبها في وحشية.. ثم بدأ فصل الختام للنساء.. أمر بإحضار شفرة حلاقة.. وأمسك الحراس برأس الفتاة.. أخرجوا لسانها.. قصه عدى بالشفرة.. قال متكهماً: لكي لا تتكلمي بعد الآن أيتها العاهرة.. أي وحش ذلك الفتى!!.. وأي أقدار ألفت بهذه المسكينة في طريقه الشائك!!.. لم يكتف.. شبقه لم يتوقف عند حد الاغتصاب وانتزاع اللسان.. أمر الحراس بنقلها إلى مروحيته.. طارت بها عالياً.. هناك فوق سطح بحيرة الثرثار القريبة من منطقة عنبر.. أسقطوها ليلتلعها القاع.

- نادي الزوارق في بغداد: أمر عدى بإقامة حفل للهو.. أتى الأصدقاء.. وأتى قواده بكوكبة من الجميلات.. واحدة من تلك كانت ونام الكيسي.. والدها من كبار رجال الأعمال ومستشار لأم عدى كانت تستفتيه في أمور المال.. الفتاة أتت برفقة صديقها لؤى خير الله.. خال عدى .. وحفلت الليلة بالمجون.. وكالعادة أكثر الحضور مجوناً كان عدى.. ينتقل من امرأة إلى الأخرى.. يقبض صدر هذه.. ويقرص مؤخرة تلك..

قادته خطواته إليها.. إلى ونام.. قال لها وهو يتلوى مخموراً: أرغبك، وأنت أيضاً أعرف أنك ترغيبيني.. أحاط بساعده خصر الفتاة، حاولت التلمص، صرخت تنادي صديقها.. وأتى لؤى غاضباً.. هجم على عدى واشتبكا في عراك.. هاجت قاعة الاحتفال وماجت.. وانطلقت رصاصات لا أعرف من أطلقها.. حمل الحراس لؤى إلى الخارج.. إختفوا به بعيداً في الحديقة الواسعة.. وغادر عدى بدوره الحفل.. وتبعته ونام.. شاركته

ليلته.. هل ذهبت طواعية أم كرهاً.. الله وحده يعلم.. لكن عدى يزمو في الصباح.. يفاخر في حركة مسرحية: إني أحب النساء.. أحبهم كثيراً.. كثيراً.

وكانت ليلة النهاية للفتاة.. قتلها بعد أيام صديقها لؤى.. لم يقدر على تحمل الإهانة.. إهانة مضاجعة عدى لفتاته.. وبدل أن يثار من عدى انتقم من الفتاة.

- بغداد.. منطقة المنصور.. ركبنا يتجه خلف عدى إلى النادي الأوليبي.. عقارب الساعة تشير إلى الساعة مساءً.. تسير القافلة على مهل.. سيارة تتجاوز القافلة.. يجلس فيها رجل وامرأة.. عدى أصابه مس من الجنون.. كيف سمح ذلك الرجل لنفسه أن يتجرأ ويتجاوز ركب السادة.. يجب أن يعاقب على فعلته.. هكذا قرر عدى.

أصدر أوامره عبر اللاسلكي بملاحقة السيارة المتجاوزة.. وأمر بإحضار المرأة التي تجلس إلى جوار السائق.. إنطلقت سيارات نمير التكريتي، سلام العوسي وعزام التكريتي لتقوم بالمهمة استجابة لأمر عدى.. أوقفوا السيارة وانتزعوا منها المرأة.. أخذوها في واحدة من سيارات المرسيديس.. وانطلق نمير التكريتي بالرجل إلى مكتب مكافحة الإجرام في المنصور.. بينما اتجه بقية الركب ومعه المرأة الى واحدة من مزارع عدى في أطراف بغداد.

في المكتب قالوا إن الرجل حاول مضايقة رئيس اللجنة الأولمبية.. ألقى بالرجل في السجن ليلقى أصناف التعذيب.. ظل هناك لأكثر من ستة أشهر.. الرجل واسمه حسن عبد الأمير جنابي حاول أن يشكو للرئيس ما حل به وبأمراته.. كان شديد السذاجة، ذهب إلى القصر وقال للحراس

أنه ينبغي الوصول إلى الرئيس حكى لهم ما حل به.. وبدلاً من أن يذهبوا به إلى صدام ذهبوا به إلى عدى .. عدى أذاق الرجل العذاب من جديد.. ثلاثة أيام متواصلة ضرب خلالها الرجل ضرباً مبرحاً.. ألقوه بعدها على قارعة الطريق ليلفظ آخر أنفاسه.. كانت جناية الرجل أنه لم يستجب لأوامرهم.. قالوا له عندما أطلقوا سراحه: لا تتكلم.. لا تتفوه بشيء.. لكنه خالف إرادتهم.. قادتته قدماءه إلى زبانية لايرحمون.. أراد الشكوى.. طلب أن يسمع أحد أناته فأخرسوه.

– النظام الماجن السادر في غيه يخلق أشكالاً عديدة ليواكب المظاهر الغربية.. هناك يقيمون مسابقات لانتخاب ملكات الجمال.. فلماذا لا يفعل هو.. ينظم سدنته كل عام مسابقة على الطريقة الغربية لانتخاب ملكة جمال العراق.. فرصة يقتنصها الفتى المدلل ليشبع نهمه إلى النساء.. تأتي الجميلات أو يؤتى بهن.. ودائماً ما تكون الملكة الفائزة باللقب من نصيب عدى.. في العام هذا كانت الفتاة الفائزة المدعوة إلهام علي، طالبة تدرس العلوم.. الفتاة تجرأت على رفض غمزات وهمزات عدى.. وكالعادة مجرد إيماءة منه استجاب لها الزبانية، أحمد سليمان لاعب الكراتيه، مؤيد فاضل ومحمد البغدادي.. كان عليهم أن يفعلوا مايروق لسيدهم.. أخذوا الفتاة عنوة إلى المكتب رقم سبعة .. سبعة أيام كانت كافية لتجعل من الفتاة المسكينة مجرد خرقة بالية.. رأس الفساد هتك عرضها.. أهانها.. طالت عصاه كل شبر في جسدها.. تركها بعد أن فرغ منها إلى الحراس ليتبادلوا اغتصابها.. وحتى أنا دعوني للمشاركة في حفلهم الخسيس.. إمتنعت فلم يحفلوا.. طربوها في نهاية اليوم السابع.. لاحقوها بالأقاويل.. أذاعوا في المنتديات أنها عاهرة.. رجل الأعمال الكبير علي

أصابه ماجرى لوحيدته بالجنون فاقدم على قتل فلذة كبده.

وبالوقاحة الفتى.. لم يكفه ما فعل .. دعا الرجل المسكين وهو في غمرة
أحزانه ليأتي إليه في مكتبه.. جلس يحرق في الرجل الواقف يغشاه
الحنن ويهده الانكسار.. أخذ يدور بالكروسي، يشد أنفاساً متلاحقة من
سيجاره الهافانا ويتمطى.. تعالت ضحكاته الساخرة.. خاطب الرجل
متشفيًا: الله هذا ما جمال ولكن .. قال ذلك متمهلاً .. أخذ يؤكد على
الكلمات: كانت فقيدتك بلا أخلاق.. جن الرجل الذي جاهد طويلاً ليكظم
ما يدور بين جوانحه.. تفجر البركان المكتوم.. تصدعت قشرة الخوف..
قفز إلى عدى لينتقم لشرفه.. لكنهم كانوا أسرع منه.. كلاب عدى..
أوثقوه.. جروه إلى غرفة مجاورة.. وما جرى للرجل لا يختلف عن المؤلف..
كانت ليلته الأخيرة..

ياله من عالم فاجر هذا!!!.. توقفت عن الكتابة لأنقط أنفاسي
المتهاجة.. يا لسوء طالعي.. لماذا أنا هنا في وسط هذا العالم المجنون
للولع بإهدار كرامة البشر.. أتوا بي لأكون عبداً لسيدهم.. مجرد نسخة
من الكريون ليس أكثر.. رغباتي، عواطفِي وإرادتي.. كلها أحالوها إلى
عدم.. لاعمل لي إلا مراقبة سلوكهم الشائن.. مجرد شاهد مسربل
بالصمت.. يسير حثيثاً برغمه إلى الوحل.. لطيف.. تتعالى الصرخات
داخلي.. يجب عليك أن تخرج من هنا.. أن تعود إلى عالمك.. تجارة
والدك.. أسنياتك التي هفوت إليها.. أن تغادر النومة التي تفرقك في
وسطها.. الرغبة في الخلاص تجاور الإقرار بالعجز.. الإحساس بالعجز
أقوى.. كيف أخرج من هنا وقد أوصدت كل الأبواب والنوافذ.. لأحد
يسمع ما تمر به النفس.. والتفكير في البوح مجرد عبث.. تخاطب

من؟.. ذلك المجنون عدي؟ أكره ذلك الفتى.. أكره جنونه ومبازله.. أكرهه
كلما تذكرت أنه هو وحده المسؤول عن حالي.. سجانني الذي أوصد على
باب القفص الذهبي.. يدللني متى راق له الحال ويوسعني بعصاه متى
تكرر مزاجه.

إختلطت الرؤى أمام ناظري.. ولم أعد أعرف نفسي.. الشكوك باتت
تراوطني.. أفلحوا في إعداد ملامحي لتماثل ملامحه.. فهل نجحوا في
إفساد داخلي ليمثل داخله.. أخاف وأقاوم هذا الخاطر.. ما بداخلي أقوى
من قدرتهم.. لن ينجحوا في إفسادي.. مختلف أنا.. عالمي غير عالمهم..
والذي بسط على رداء حكمته.. حصنني بشفافيته.. والام الحنون كذلك..
لقد شببت عن الطوق وسط مناخ رائق.. أسرة متماسكة تحرص على
الفضائل.. تعرف ما يجب وما لا يجب.. تخشى الله وتؤدي الفرائض.

لكن هذا العالم الذي أكرهت على دخوله يفسدني.. لم أعد قادراً على
تمثل عالمي القديم.. لم يعد بمقبوري الحرص على أداء الفرائض التي
ربيت على أدائها.. لا صلاة ولا صوم.. لم أكن أطيق رائحة الدخان.. الآن
أدخن بشراهة.. الخمر التي لم أقربها في السابق الآن أصبحت بديلاً
للماء تلازمي جلّ يومي.. أحب منها علّها تأخذني بعيداً.. أستعين بها
لأنسى عالم الجنون والقذارة.. يا إلهي.. أسأل نفسي مرات.. لماذا لم
أصّب هناك على الجبهة أو يأسرني الأعداء.. ربما كان ذلك أفضل مما
أنا فيه الآن.

اليوم 26 كانون الأول عام 1989، عقارب الساعة تقترب من الرابعة
صباحاً، تعبت من الكتابة، جمعت أوراقتي، خبأتها خلف الخزانة، وذهبت
لأستحم.. وقفت أمام المرأة أسوي شعري.. أخذت في تأمل شفرة

الحلقة.. قفز إلى ذهني مشهد تلك المسكينة التي بواحدة من الشفرات
المماثلة قطع عدى لسانها.. لازال مشهد دماء سناء التي تفجرت من الفم
مطبوع في رأسي.. يالهول ماأنا مقدم عليه.. الآن أملك إرادتي.. أملك
طريقي إلى النجاة من عالمهم.. لا مهرب إلا الموت.. وجرت الشفرة على
الشریان النافر في يميني.. وأفعل بيسراي كذلك.. وقفت أتابع الدم
المتفجر وهو يجري إلى الأرض.. دمي .. استدرت.. ذهبت إلى الفراش
وتهاكت عليه.. الشفرة لازالت معي.. عذمت على جز رقبتني لكن لم أعد
قادراً على الفعل.. إستسلمت للرقاد.. ولقدري .. صدري يعلو ويهبط في
وهن.. فجأة يدق الهاتف.. غير قادر على الإمساك بالسماعة.. والصوت
يأتيني وكأنه قادم من عالم آخر.



12 حمة النعب

● صاغراً كان عليه أن يستجيب لشلال الغضب.. عزام.. كلب السيد.. أخذ في خنوع يخلع ملابسه.. قطعة وراء قطعة.. وقف عارياً.. ومثله فعل حراسي الأربعة.. اصطفوا أمام مكتب عدى خانعين، طأطأوا رؤوسهم انتظاراً للآتي.. الجالس خلف المكتب ينفث دخان سيجاره، ويلوح بالكرباج، يأتي إليهم متمهلاً.. ويبدأ بعزام، وهكذا تدور الدوائر.. الآن هم يجلسون.. يشربون من الكأس التي احترقوا إفراغها في أجواف الآخرين.. الآن يتفجر الدم من عروقهم، تتعالى آهاتهم تحت وقع السوط، لقد أهملوا.. وعليهم أن يتحملوا نتيجة هذا الإهمال.. لقد تركوني أفعل بنفسى ما لا يجب أن أفعله.. تقاعسوا في الحراسة فأتاحوا لي الأقدام على الانتحار.

دقات الهاتف وحدها كانت هي التي نبهت إلى المحاولة.. على الطرف الآخر للهاتف كان عزام يحاول أن يقول لي إن عدى يستعد للسفر إلى جنيف.. لم يكن باستطاعتي إجابة الهاتف الذي ظل يرن لدقائق.. أصاب القلق عزام.. جاء مهرولاً.. أمر الحراس الآخرين باقتحام شقتي في عمارة الحياة.. لم أسمعهم وهم يكسرون باب الشقة، لم أعرف شيئاً البتة.. غبت عن الوعي مع آخر رنات الهاتف.. إستعدت الوعي بعد جهود مضنية قام بها أطباء مستشفى ابن سينا الذي نقلوني إليه.. أمضيت يومين طريح الفراش ألقى العناية على يد الأطباء المهرة.

بالكاد قادر الآن أنا على الوقوف بعد أن أمر عدي أن يحضروني إلى المكتب رقم سبعة، أراد أن أشهده وهو يعاقب الحراس.. لقد أعدني لأكون بديله والآن هؤلاء المتقاعسون كانوا بإهمالهم أن يفسدوا الأمر.. أعادوني إلى فراشي بعد أن شهدت جلد الحراس.. أخذت أفكر فيما يدور حولي.. الأيام القادمة جعلت وجودي هاماً وفاعلاً.. الأخطار تحوط بالفتى من كل جانب.. الحفاظ على مسألة لا يجب أن تغيب عن بال أحد.. أقاويل كثيرة ترددت في القصر أن شيئاً ما يجري خلف السطح الساكن.. منعم حمد لم أعد أراه كثيراً .. قالوا لي إنه يدرب تلميذاً آخر.. ابن خال بعيد يعده منعم ليكون بديلاً لقصى صدام حسين.. أقاويل تملأ القصر مجدداً عن مقتل عدنان خيرالله وزير الدفاع السابق.. تحاول الأقاويل أن تضيف للأسباب الشخصية التي أودت بالرجل أسباب سياسية، قالوا إن الرجل لم يوافق على ما كان ينتويه صدام بشأن الكويت.. كان رأي الرجل أن اجتياح الكويت سوف يستفز الغرب ويستنفره ضد العراق.

نية النظام المبيتة ضد الكويت لم تكن خافية.. كان صدام يسعى لاقتحام الكويت.. كان يطلق بين حين وآخر تهديدات غير مباشرة.. تتردد أخبار كثيرة أن صدام أقر مع بداية 1990 خطة لاجتياح الكويت.. رافق ذلك محاولات تعتيم.. وجه النظام أبواقه لمهاجمة إسرائيل.. صحف النظام تحفل بالمقالات النارية ضد العدو الصهيوني الغاصب.. وتذكّر بالهجوم الذي دمرت خلاله طائرات إسرائيل المفاعل النووي العراقي عام 1981 في غارة مفاجئة.. تصرخ وسائل الإعلام.. تدعي أن هجوماً جديداً تعد له إسرائيل بموافقة أمريكية.. ويتوعد النظام: إذا حدث ذلك، سوف نقضي على كل الشعب اليهودي بالغاز السام.

بابل الصحيفة التي يرأس تحريرها عدى كتبت في صدر صفحتها الأولى: «صواريخنا قوية وتكفي للوصول إلى اسرائيل».. مباحة فارغة يعرف النظام قبل غيره أنها بلا مضمون.. لكنها تقود إلى كارثة جديدة.. لقد دفعوا بنا إلى حرب مجنونة مع إيران أكلت الأخضر واليابس.. والآن يدقون طبول الحرب من جديد.. إحساس بالعنترية الفارغة إلى جانب الإفلاس الذي تعاني منه الخزنة يدفع إلى المغامرة.. نوايا النظام تتكشف في لحظات المجون .. فتانا يثرثر بما يعرف وهو غارق في سكره: الكل يعرف أن الحرب مع إيران كلفتنا أموال طائلة، لقد أجبرونا على تلك الحرب، والآن يريد الآخرون أن يجوعوا شعب العراق .. هناك في الكويت تحاك المؤامرة ضدنا.. وتهتز الرؤوس لتوافقه.. تتقارع الكؤوس لثبارك الجهاد المقدس ضد أعداء شعب العراق.. ويقرأ الفتى على سماره بعضاً مما قاله الوالد ونقلته الصحف العراقية: «..أحياناً يستخدم الجنود كالات في الحرب، وتستخدم المتفجرات والقتال الضاري للتدمير، وفي أوقات أخرى تستخدم في الحرب أدوات اقتصادية، لهؤلاء الذين لا يريدون للعراق الرفعة، أقول: يجب أن يفهموا أن هذه المضايقات الاقتصادية حرب ضد العراق».. النظام المفلس يلوي عنق الأشياء.. لا يريد أن يرد الدين لمن أقرضوه، يماطل، يهدد ويتوعد عليهم يسكتون عن المطالبة، ليس السكوت وحده ما يطلبه ذلك اللص المفتون بقوته .. يطالبهم كذلك بتعويضه عن خسائر يدعيها.. يقول إنهم سرقوا بترول الرميّة، يردد عدى: نعرف كلنا أن الكويت أخذت من الرميّة بترولاً بقيمة 28.8 مليار دولار، لكي نؤمن حقنا ضدّهم لاحل إلا انتزاع المساحة الصغيرة التي تتبع لهم سرقتنا.. نستطيع بتوسيع الحدود التخلص من مشاكلنا.. وهكذا أصبحت النية

واضحة.. يعرف النظام أن الكويت لن تتنازل طواعية عن الأرض التي يطلبها.. أحاديث صدام خلال التلفاز تنذر بالعاصفة التي تلوح في الأفق .. يقول إن الكويت تضخ من حقولنا كميات هائلة، ليست من حقها، وتسهم في تدني السعر، تسببت في الهبوط بسعر البرميل من عشرين إلى أربعة عشر دولاراً.. قال مؤكداً: إننا نخسر من وراء ذلك أكثر من مليار دولار سنوياً.. ويردد عدى كالببغاء: مايفعلونه كضربة سيف مسموم توجه إلى الظهر.. إنه هجوم مباشر ضد أبي.

لم أعهد الفتى مهموماً بالسياسة إلى هذا الحد .. الآن يجهد نفسه ليعرف أكثر.. يتابع مايكتب.. لكن هذا لايدوم طويلاً.. قال لنا أنه سوف يسافر إلى جنيف، وسوف يأخذ معه وعدالله أبو صقر.. علامات الدهشة ارتسمت على وجوهنا.. لماذا هذا الشخص بالذات.. أبو صقر هو المسؤول الرئيسي عن حماية القصر الرئاسي.. يتولى الإشراف على تدريب الحراس، وعن عدة فرق من فرق حماية الرئيس .. لكن ماغض علينا في البداية أضحى جلياً بعد عودتهما من الرحلة التي دامت عشرة أيام.. لقد أنجز الرجل هناك عملية سرية.. نجح في جلب فرقة حماية من الرجال الكويتيين.. أتى بهم ليكونوا حراس إضافيين للوزراء وبعض شخصيات الحزب أفرغوا للحراس الجدد أربع طوابق في عمارة الحياة ليسكنوها.. أحاطهم النظام باهتمام زائد ورعاية خاصة.. لم يسمح لنا أن نتواجد في نادي الرماية في وقت تدريبهم.. رواتبهم تدفع بالدولار وليس بالدينار.

حزيران عام 1990، تكلفت لقاءات الرئيس بأفراد العائلة، يعود لنا عدى بعد كل اجتماع يحوطه الصمت.. على غير عادته توقف عن

الثرثرة.. مجرد ملاحظات ينطق بها: العراق لديه مليون جندي.. الكويت لا يملك أكثر من سبعة عشر ألف رجل.. وسلاحه الجوي غير فاعل.. بحريته لا تتعدى عشرين نوزق مراقبة لاغير.

وهكذا ظل انفتى يفاخر بقوة وضخامة جيش أبيه، ويسب حكام الكويت.. آل الصباح.. أخذ يشتمهم واحداً واحداً.. بدأ برأسهم الشيخ جابر الأحمد الصباح الذي تولى الإمارة عام 1977، ولم ينس ولى عهده الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح.. ويؤكد على سب وزير المالية الشيخ علي الخليفة الصباح، وزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، وزير الداخلية الشيخ سالم الصباح، ووزير الدفاع الشيخ أحمد الجابر الصباح، كلهم في نظر عدى سواء يسيطرون على بلد يعوج بالثروة، يصف آل الصباح بعصابة وينسى أن العصاية الأقوى والأكثر ضراوة هي عصاية بغداد التي هو واحد من أركانها!!.

للحظات أتفكر في النظامين في العراق والكويت.. صحيح أن عائلة الصباح تسيطر على السلطة في الكويت مثل عائلة صدام في العراق.. لكن هناك فروق واضحة لاتخطئها العين المدققة.. في الكويت برلمان ومعارضة، ينشأ. أحياناً، ويعطل أحياناً لكنه موجود وفاعل على عكس العراق التي لا يعلو فيها صوت فوق صوت صدام.. المعارضة في الكويت تتجراً إلى حد استقاد الأمير وغير متصور هذا في العراق، وعندما عطل الأمير البرلمان واجهته عاصفة من الانتقادات حتى اضطر إلى إعاقته عام 1990.. النظام في العراق يظهر دائماً عطفه على المعارضة الكويتية ويسعى لدعمها في مواجهة آل الصباح، لا يريد استقرار النظام هناك، ويفعل كل مايقض مضاجعه، يدفع رجاله إلى مواجهة بين الشارع وشرطة

النظام.. مخابرات صدام تعرف أن الكويت رغم مظاهر الثراء بلد بالغ الهشاشة في تركيبته السكانية، ثمانمائة ألف يحملون الجنسية الكويتية، منهم مائة ألف فقط كويتيون أصليون.. تنوب هذه الأقلية وسط بحر من الأجانب يزعمون البلد.. فلسطينيون وعرب من بلاد أخرى، آسيويون وأوروبيون.. تعرف عيون العراق أن الامتيازات التي يتمتع بها الكويتيون تستفز الآخرين.. خاصة الذين يسمون هناك «البدو».. لهذا يثق نظام صدام أنه في حال اجتياح العراق للكويت سيجد أنصاراً يقفون في صفه في مواجهة آل الصباح.. وأكثر من يعول عليهم نظام بغداد هم الفلسطينيون.. ويمثلون الجالية الأجنبية الأكبر في الكويت.. والتي تسيطر على مراكز الأعمال هناك.. يقول عدى: يجب أن تساعد إخواننا الفلسطينيين هناك.. هم أسياد الكويت الحقيقيون، بدونهم لن تستطيع الدولة أن تبقى على هذا الحال الاقتصادي.. يجب أن يقفوا في مواجهة دولة آل الصباح الاستغلالية.. وتأخذ الجلالة فيكشف بعض مخططات نظام أبيه للنيل من آل الصباح.. يؤكد أن جهاز الأمن الخاص العراقي يحاول منذ أسابيع أن يحرّض سياسيين كويتيين معارضين، وكذلك الفلسطينيين.. ويقول: لقد تكلمنا مع أحمد السعدون، ومع محمد القوادري من الجبهة الديمقراطية.. ويدعي أنهم يطلبون ويلحون في أن يقوم العراق باجتياح الكويت ليخلصهم من حكامها.. ويؤكد أن العراق سيفعل ذلك: سوف نذهب لمساعدة إخواننا.. ونطرد هذه الحكومة الفاسدة.. نطرد الذين لا هم لهم غير العبث بمقدراتنا واقتصادنا.. سوف نقوم بهجوم مفاجيء لندعم فرقة ثورية معارضة طلبت المساعدة من بغداد للقضاء على الأمير وحكومته.. سوف تذهب قواتنا إلى عقر دارهم.. قصر الزمان..

لتضعهم أمام الأمر الواقع.. سوف نجبرهم على أن يكونوا طوع
إرادتنا.. إذا رفضوا.. مصيرهم معروف ومقرر.. الإعدام على الفور.. لم
بعد الفتى قادراً على إخفاء نوايا النظام.. يبوح الآن بكل التفاصيل.

نهاية حزيران 1990، القوات العراقية تسارع إلى الحدود مع
الكويت.. ثلاثون ألف رجل بقضيمهم وقضيضهم دُفعوا إلى هناك ليكونوا
طلائع الغزو.. العائدون من الجنوب يقولون إن أتو ستراد القادسية مزدهم
بالدبابات والقوافل العسكرية المتجهة صوب الحدود مع الكويت.. سألت
عدى فاكد على الأمر: نعم.. لقد أرسلنا عدة فرق إلى الجنوب.. فقط
للاحتياط.. ربما احتاج الأخوة في الكويت المساعدة في حربهم ضد
حكومة الصباح.. أرسلنا أكثر من مائة ألف رجل.

هكذا تأكد لي أن الغزو تقرر، والعد العكسي لساعة الصفر قد اقترب.
مع إشراقة الأول من آب 1990 غادر عدى مقره على غير العادة..
قالوا إنه ذاهب إلى النادي الأولمبي.. كنت ببوري متيقظاً.. أنتظر أوامره،
هاتف لي في التاسعة.. أكد على أن لاكون متاهباً.. صوته عبر الهاتف لم
يكن واضحاً.. كان يأتيني من بعيد.. تأكدت أنه ليس في النادي الأولمبي..
وضح كل شيء عندما أدت المذياع لأسمع أخبار الظهيرة.. قال مقدم
النشرة إن المباحثات التي جرت في جدة بوساطة السعودية بين الوفدين
العراقي تحت رئاسة نائب رئيس مجلس قيادة الثورة عزت إبراهيم
والكويتي برئاسة رئيس الوزراء الكويتي وولي العهد سعد العبد الله السالم
الصباح قد انتهت بعد أن سادها استفزاز علني وتهجمات ضد العراق..
وتابع مذيع النشرة: الكويت رفضت الاقتراحات العراقية بالنسبة للحدود
الفاصلة لحقول نفط الرميطة، ورفضت أيضاً التعويض الذي نطلبه عن

بترونا الذي نهبت.. لم تدم المباحثات أكثر من ساعتين.. تعلقت بالمنياح أشغل نفسي بمتابعة المستجدات.. عاد الوفد العراقي إلى بغداد.. وأعلن عن إغلاق الحدود بين البلدين.. عبر النافذة أخذت أطالع الحركة الدائبة.. قوافل الوزراء وكبار رجال الحزب تأتي متسارعة إلى القصر الجمهوري.. المروحيات لاتهدأ.. هديرها يصم أذني وهي تدور في فضاء القصر.. حركة دائبة هنا وهناك.. لأحد ينطق بما هو آت.. الحراس مستنفرون، خطوط الهاتف في عمارة الحياة قطعت.. لم يعد مسموحاً بالاتصال إلا عبر الاستعلامات.. كل شيء يجري وفق ماخطط له.

أخذني حراسي في المساء إلى نادي الرماية.. النادي شبه خالٍ.. فقط بعض رجال من جهاز الأمن الخاص.. أخذت أتدرب على الرماية حتى الثانية عشرة.. أتى حارس مسرعاً وكان واضح الارتباك.. قال إنه على أن أسارع بالعودة إلى شقتي.. وقال ونحن في الطريق إن صدام سوف يذهب إلى الكويت في الساعات القادمة.

في الثاني من آب، في تمام الثانية صباحاً عبرت دباباتنا الحدود عند العبدلي، 350 دبابة اتجهت مسرعة إلى العاصمة الكويت ولم تلقى مقاومة.. قليل من المناوشات اليائسة قام بها جنود كويتيون عند المداخل.. سلاح الجو الكويتي فر إلى السعودية.. 36 ميراج طارت هاربة إلى هناك.

غادرنا النوم.. جلسنا نترقب أنباء جديدة.. جلسنا ننتظر أيضاً أوامر عدى.. في الليلة التالية دعاني إلى المكتب رقم سبعة.. هناك كانوا جميعاً.. أصدقاء عدى ومريده.. مئات السيارات تزحم الساحة أمام البيت.. عزام قال لي إن عدى قرر الاحتفال بالنصر في نادي الصيد وأن

الوضع قد رتب، تحركت قوافل السيارات بنا إلى هناك.. عبر البعض عن الفرحة بإطلاق النار من مسدساتهم وكلاشينكوفاتهم ونحن سائرون على الطريق.

مدخل النادي يموج بالسيارات الراقية من مختلف الماركات.. وفي الداخل حشد هائل من البشر.. أضواء باهرة بتراقص وكثتها تشارك صفوة بغداد حفلهم.. الخدم نشطون.. تجدهم في كل الأركان يقدمون الشمبانيا للجميع.. الحشود تفسح طريقاً لركب القادم.. ركب عدي.. يتعالى التصفيق احتفاءً به.. قابله بالانحناء.. وسارع البعض إلى تقبيل يده.. منتفخة أوداج الفتى وهو يسير متبخرأً وسط حراسه.. يبتسم للجميع.. ويتوقف ليلمس الجداول المنسابة على ظهور الحسنات.. وقفت في ركن أتابعه وهو يختال في حلته السوداء المخططة بخطوط ذهبية.. كنت مرتدياً حلة الحراسة العادية فلم يلتفت أحد إلى ملامحي التي تشبه ملامح عدي.. كلهم كانوا مشغولين إليه.. إلى رمز النظام المنتصر.. تابعوه وهو يتجه إلى الميكرفون.. صاح عبره لسمع الحشد صوته المزعزع: لقد وصلنا إلى هدفنا.. أخذ كلاشينكوفاً من أحد الحراس وصوبه إلى السماء لتتطلق حمم النار.. ودعا الحشد إلى المشاركة في مهرجان النار.. ازدهمت السماء بالحمم والدخان، عكرت صفو سماء بغداد، أحالت الليل إلى نهار.

الأنباء عن وقائع الاجتياح تتناقلها الشفاه.. رجالنا نجحوا في السيطرة على المراكز الهامة هناك.. قصر الوزمان.. محطات الإذاعة والتلفاز.. لامقاومة تذكر إلا عند مدخل قصر الوزمان.. مقاومة قادها فهد الأحمد الصباح أخو الأمير.. عندما نقلوا إلى عدي نبأ مقتل فهد قال

بعصبية: ياله من شقى.. كان مثل أخي.. كان باستطاعته أن يكون نائبى.. على ماذا أراد أن يبرهن من خلال هذا المقاومة التي أودت به!!

فهد الأحمد الصباح حاول مع حراس الأمير صد هجوم القوات العراقية التي أتت إلى القصر.. دافع ببسالة، أخذ يطلق مسدسه وهو واقف على درج القصر.. لم يجبن رغم كثافة القوات المهاجمة.. وقف صامداً إلى أن صرخته رصاصة جندي عراقي.. بعدها سكنت المقاومة في القصر.. وأخذت جثة الشيخ إلى عرض الشارع لتمزقها الدبابات التي تدور حول القصر.. تحول المقاوم إلى مزق تناثرت على أطراف الطريق.. لم يأسف عدى كثيراً لما حل بصديقه.. قال إنها الحرب.. لم نرد قتل أحد، أردنا فقط مساعدة الثوار.. شىء واحد أخفاه عنا عدى.. لم يقل لنا أن القصر كان خالياً.. لقد تركه الأمير قبل الغزو بلحظات.. الأمراء كلهم نجحوا في الفرار.. عبرت قوافلهم إلى السعودية.. عندما وصلت طلائع الغزو إلى القصر الأميري لم يكن فيه غير الأمير فهد الذي دافع وحيداً مع نفر قليل من الحراس.. ولقوا جميعاً حتفهم.

ماروج له النظام أصبح مأزقاً.. المعارضة الكويتية التي تحدث عنها كمبرر للغزو لم يوافق أحد منها على الانضمام إلى الغزاة.. أوراق النظام التي أعدها تكشفت.. لكنه عاد يلعب من جديد.. في الرابع من آب أمر صدام بتشكيل حكومة كويتية بعد أن أعلن تحويل الكويت إلى جمهورية.. ونصب على رأسها شخص يدعى العقيد علاء حسين علي ادعى النظام أنه ضابط في الجيش الكويتي تزعم الثورة ضد النظام الأميري السابق.. إدعاء زائف لم يصمد طويلاً.

هذا الشخص مجرد اختلاق.. لا يوجد ضابط كويتي بهذا الاسم..

نعرف نحن في القصر أن الذي انتحل ذلك الاسم ليمثل الدور في اللعبة هو حسين كامل حسن زوج رغد كبرى بنات صدام.

حسين كامل هذا يسمونه في بغداد كلب صدام الوفي.. بدأ كحارس عادي في الشرطة.. تخرج إلى أن أصبح السائق الخاص للرئيس السابق أحمد حسن البكر.. وظل يقوم بعمله هذا إلى آخر يوم في حياة البكر الذي قيل أنه مات إثر نوبة قلبية.. شائعات كثيرة قالت إن الرجل مات مسموماً، وإن السائق هو الذي تولى مهمة وضع السم في طعام سيده.. وكوفىء الرجل على فعلته.. مرق كالبرق في طريقه إلى سلم السلطة.. مما قوى من مصداقية الرواية عن دوره في قتل الرئيس البكر.. في البداية عينه صدام حارساً أول له.. منصب أكثر أهمية من منصب وزير.. رقيه إلى رتبة الملازم الأول مع أنه لم يحضر أى ثورة من ثورات التأهيل لرتب الضباط.. هذا لايهم ففي عرف نظام صدام.. الأهم أن يكون الشخص مخلصاً وأميناً.. المكافأة الأكبر كانت زواجه من ابنة الرئيس.. شرف لايناله إلا من يثق صدام في ولائهم الكامل.. وكان هذا حال إخوته أيضاً.. أخوه صدام كامل زوجته رنا، وحكيم كامل زوجته الصغرى حلا.. الإخوة الثلاثة تزوجوا من بنات صدام.. إرتبطوا بالعصابة برباط وثيق.. الأخ الأكبر حسين كامل حسن الذي أصبح الحارس الأمين ازدادت ثقة صدام به وارتكن إليه أكثر.. ولاءه وزارة جديدة كما لو أنها أنشئت من أجله.. وزارة الصناعة والتصنيع العسكري.. أصبح السائق السابق مسؤولاً عن نظام التسليح بكل تعقيداته.. وزارة الصناعة كانت في السابق مسؤولة عن تصنيع السلاح.. بعد أن تولى حسين كامل أمر وزارة التسليح دمجت معها وزارة الصناعة.. تحولت أنظاره أيضاً إلى وزارة النفط.. أوغر صدر

سيده على وزيرها، فأجبر الرجل أن يعترف علانية وعبر التلفاز أنه خان النظام.. إعترف أنه خالف القوانين وباع نفطاً لحسابه الخاص.. كان الرجل يرجف وهو يعترف بجرم يعرف الكل أنه جرم زائف.. وأنت نهاية مسرعة.. أعلن بعد أيام أنه مات متأثراً بنوبة قلبية.. واستحوذ الفارس الجديد على الوزارة الثالثة أيضاً.. ثلاث وزارات هامة أصبحت تحت إمرة زوج ابنة صدام.. وظل الرجل يصعد.. وتولى وزارة الدفاع بعد سقوط المروحية بعدنان خير الله.



● بعد الاجتياح بأيام هجرت المدينة.. تحولت العاصمة الكويت إلى مدينة أشباح.. خلت الشوارع من الناس.. كانت السيارات واقفة مبعثرة والدكاكين موصدة.. تهشمت أفاريز الشوارع بعد أن داستها الدبابات.. سكنت الحياة إلا من جنوبنا.. يصخبون في الباحات الخالية.. يمتطون بدلاً من ناقلاتهم عربات المرسيدس التي تركها أغنياء الكويت وهربوا.. اطمأن الجنود فقد خفتت المقاومة.. أضحت البلد تحت قبضتهم.. الإذاعة والتلفاز.. مرافئ النفط والمطار.

وهناك في بغداد فصول الكوميديا العابثة لازالت فصولها تتوالى.. أعلن التلفاز العراقي في خبر عاجل: أن رئيس حكومة الكويت العقيد علاء حسن علي «حسين كامل حسن» أرسل رسالة خطية للرئيس صدام يعرب فيها عن استعداده إجراء محادثات مع العراق الشقيق حول مسألة الحدود.. ويستجيب الرئيس صدام للرسالة.. يكلف عزت إبراهيم بإجراء المحادثات.. وأعلن التلفاز أيضاً: أن الحكومة الثورية الجديدة في الكويت قررت عزل الضباط الكبار في الجيش والشرطة وإحالتهم إلى التقاعد. لكن لم يسعد النظام طويلاً بنصره الموهوم.

الثامن من آب 1990 يرسل الرئيس الأمريكي جورج بوش طلائع قواته إلى الخليج.. فرق جنود المظلات 18 مع خمسين سفينة مرافقة.. طائرات الفانتوم تطير من قواعدها في بريطانيا متجهة صوب قواعد جديدة في تركيا.. حاملات القذائف «B-52» تتوجه من قواعدها في المحيط الهندي إلى الظهران في السعودية.

الأحداث تتوالى بسرعة.. والنظام العراقي لازال يسير في غيه.. ويأخذ في التماذي.. أعلن عبر التلفاز والراديو ضم الكويت.. ظهر صدام على الشاشة ليؤكد الحدث: الشكر لله، أصبحنا الآن شعب واحد، بلد واحد، بلد سيكون فخر العرب، عراق جديد من زاخو في الشمال إلى الأحمدى في الجنوب.. ويخرج الآلاف إلى الشوارع.. يحشدتهم الحزب على طول شوارع بغداد ليعبروا عن الابتهاج بإعلان الرئيس.

في المكتب رقم سبعة جمعنا عدى.. حراسه ومعاونيه.. جلس إلى مكتبه وأمامه قائمة حدد عليها المهام القادمة.. وقف.. جاء إلينا وأخذ يدور في الغرفة.. قال وهو يحديق في الفراغ: الكويت أصبحت الآن لنا.. ثم عاد الى المكتب وأمسك بالقائمة.. وواصل دورانه في الغرفة وهو ينفث دخان سيجاره.. توقف ليتحدث من جديد.. نطق جملة قصيرة بصوت خافت: غداً نبدأ بعملية الكويت.

لم يتركنا طويلاً للدهشة.. أخذ يشرح الخطة.. عزام سوف يؤلف سريعاً مجموعة من الفرق.. أفراد كل فرقة عشرين شخصاً.

الفرقة سيارة: مهمتها جمع السيارات المتروكة ماركة مرسيدس و BMW وإحضارها بواسطة الشاحنات إلى بغداد.. علي الفرقة ألا تهتم بماركات الكاديلاك أو الرولز رويس.. عليها أن تركز على الماركات الألمانية الحديثة.. لن تحتاج الفرقة إلى مفاتيح لإدارة السيارات.. تديرها بأي طريقة أو ترفعها على الناقلات.. أى اعتراض من تجار أو أصحاب السيارات يجعلهم عرضة للإعدام على الفور.

الفرقة أثاث: مهمتها مصادرة الفيلات المتروكة.. تجمع الأثاث.. وأنوات المنزل.. المكيفات.. الرخام.. كل شيء له قيمة تحمله الشاحنات إلى بغداد.. وأيضا الفنادق والمستشفيات تجوبها الفرقة لتجمع منها كل ما هو ثمين..

فرقة هاي فاي: تتولى هذه الفرقة مهمة اقتحام محلات السوبر

ماركت، عليها أن تركز على المعدات الإلكترونية.. عليها أن تركز فقط على الأشياء الثمينة.

لم يأت عدى على ذكر لحلات الساعات والمجوهرات.. أدهشني هذا لكنني لم أسأل.. إنتظرت ما هو قادم.

في اليوم التالي تحركت الفرق على اوتوستراد القادسية.. ذهبت مع فريقي.. كان علينا أن نشق طريقنا وسط زحام الحافلات العسكرية المتجهة إلى الكويت.. لم تواجهنا مشاكل اعتراض .. لقد زدنا عدى بأوراق المأمورية.. أوراق تبين أننا نقوم بمهمة خاصة.. عرضوا علينا في الطريق أن ترافقنا الشرطة.. قلت لهم إننا لانتاج حماية إضافية.. كانت قافلتي تتألف من أربع سيارات مرسيدس ليموزين متشابهة ترافقها ست ناقلات سيارات من الحجم الكبير، وخمس جرارات لعربات النقل.. حدد لنا في هذا اليوم موقع قريب من الحدود السابقة، وقفنا عند «معرض الغانم».. كان المعرض مزحوم بالسيارات الأوروبية والأمريكية.. كانت تجارة السيارات رائجة في الكويت.. كل أسرة كانت تملك ثلاث سيارات على الأقل.. الوقود كان متوفراً وبسعر زهيد.. ولاضريبة على السيارات.. أكثر الماركات المرغوبة كانت الأوروبية مثل المرسيدس والبورش وBMW والجاكوar والروانزويس.. وكذلك الأمريكية الضخمة الفاخرة.. قبل الغزو كان رقم السيارات المسجل في الكويت يزيد عن سبعمائة ألف سيارة.. أتى ضابط إلينا وكان مكلفا بحراسة معرض السيارات.. غادرت سيارتي إليه.. كنت مرتديا حلة سوداء بخطوط مذهبة مكتوب عليها اسم عدى صدام حسين.. حياني الضابط.. كان غامق البشرة.. أوضحت له ماسوف يفعل رجالي.. حياني للمرة الثانية.. انحنى وقبل يدي.. ثم انصرف.. دخلنا إلى باحة المعرض.. وجدنا هناك جنوداً .. منتشرين كالجراد، عاكفين على تفكيك أجزاء من السيارات الواقفة، راديوها، لمبات ومرايا.. ينهبون مايقدررون عليه.. لما رأونا توقفوا، حاولوا الاختباء..

الضابط عرف أنني رأيت جنوده، أصابه الارتباك، ابتسمت له فاطمئن.. أمرته أن يأخذ جنوده وينصرفوا.. استجاب على الفور.. إختفوا جميعهم خوفاً من العقاب.. لقد شاهدت ونحن على الطريق شاحنات كثيرة عائدة إلى بغداد.. تحمل أثاثاً وقطع سيارات نهبها الجنود.. الكل حرص على أخذ نصيبه من التركة.. الجنود والضباط.. كأن هاجساً ما استقر داخلهم أن الوقت يتسارع وأن الكويت لن تبقى في قبضتنا طويلاً.. على الكل إذن أن يأخذ نصيبه قبل فوات الأوان.. كانوا يعرفون أن الجيوش تتجمع هناك في صحراء السعودية.. تتأهب لاستعادة الكويت.. الجنود الذين أرهقتهم حربنا الطويلة مع إيران وأرهقهم أكثر العوز بعدها.. جعلهم نهمون إلى تأمين العيش بالنهب قبل العودة المتوقعة إلى بغداد.

الفوضى تعم أنحاء الكويت.. حافلات تهول إلى الشمال قاصدة بالمسروقات الطريق إلى بغداد.. وأخرى تحمل الفارين.. عرب وأسيويين نحو الجنوب أو الغرب للنجاة من قبضة جنود الاحتلال.. يفرون في قوافل متتابعة.. جنودنا لا يمنعونهم.. خصوصاً بعد أن تقبض أياديهم على النقود لتحشي بها ستراتهم العسكرية.

احتاجت فرقتي لساعتين.. جمعنا إثنتين وأربعين مرسيدس 500 وBMW من النوع الكبير.. قضى الحراس بعض الوقت ليمتعوا أنفسهم بقيادة السيارات .. داروا بها في جنبات المعرض فرحين قبل أن يرفعوها إلى الشاحنات.. وتحركنا إلى الراشدية.. هناك تقع مزرعة عدى في منطقة الجزيرة السياحية.. المزرعة التي يربي فيها كلابه الشرسة.. وفهود ونمور أيضاً.

عندما وصلنا المزرعة وجدنا هناك عزام ورجاله.. سبقونا بأحمالهم الثمينة.. ازدحمت جنبات المزرعة بالغنائم.. أكثر من مائة سيارة ألمانية فاخرة.. جاء عدى .. علامات الرضا تطبع ملامحه.. كل الفرق عادت نون أن تواجهها مشاكل.. قال لنا إنه علينا أن نعود ثانية إلى هناك لمعاودة

المهمة في اليوم التالي.

إتجهت مع إشراقة 11 آب ومعى الرجال إلى مناطق شويك وحولي.. قيل لنا إنها تضم معارض سيارات كبيرة.. عند وصولنا وجدنا ضباطاً وجنوداً يفعلون مثل مانفعل.. ذهبت إلى قائدهم.. صرخت في وجهه: ماذا يحدث هنا؟.

حياني في أدب.. قال: سيدي، لدينا أوامر بإحضار سيارات أوروبية ونقلها إلى مزارع حسين كامل حسن في تكريت.. يالهم من عصابة.. كلهم وليس عدى.. الكل يسعى لنهب البلد المسكين.. كانت إجابة الضابط كافية.. تركته لأواصل مهمتي.. لاجاجة لمزاحمة.. المعارض بها مايكفي.. لنا ولهم.. لمحت وأنا أتابع عمل فريقي ضابط من الفريق الآخر وهو يوقف كويتياً كان يعبر بسيارته المكان.. أجبره على الخروج من السيارة، أمره بالهرولة بعيداً.. استجاب الرجل على الفور.. هرول بحثاً عن مكان آمن.. لم يستغرق عملنا وقتاً طويلاً هذه المرة.. أصبح الرجال على دراية بالأمر أكثر.. وعدنا إلى هناك.. وذكرت لعدى أننا لقينا فريقاً يعمل لحساب حسين كامل حسن.. استشاط غضباً.. صرخ.. وفضح مالم نكن نعرفه.. قال وهو يسب: لقد اتفقنا على أنواع السيارات.. من يأخذ هذا النوع ومن يأخذ ذاك.

يالهم من عصابة.. جشعون إلى درجة البشاعة.. يتعاركون على الفريسة كما الضباع.. لقد نهبوا الكويت دون رحمة.. الرأس الأكبر فاز بنصيب الأسد.. نقل صدام السبائك الذهبية.. حملت مروحياته أوراق النقد، وكذلك الآثار والتحف التي ضمتها صالات المتحف الدولي.. وكذلك هذا كل كبار رجال النظام.. حنو حنو الرأس الكبير.. حتى الناس العاديون شاركوا.. كل على قدر طاقته.. آثار النهب كانت واضحة.. تجلت في أنواع البضائع المتعددة التي أتخمت بها محال بغداد رغم الحظر الدولي الذي فرض على العراق بعد العدوان على الكويت.. المواد الغذائية

التي أتوا بها من الكويت تكفي للاستهلاك لشهور طويلة قادمة.. وكانت تباع بأسعار رخيصة.

عرفت أن أغلب المحال تأخذ بضائعها من حسين كامل حسن.. لقد كون الرجل أيضاً فرقاً عديدة لنهب الكويت تأتيه بالبضائع.. يتاجر لحسابه.. مليارات الدولارات دخلت خزائن الرجل.

فرق عدى التي شاركت فيها استطاعت خلال مدة وجيزة جمع أكثر من عشرة آلاف سيارة.. مزارع عدى امتلأت جنباتها بالمسروقات.. وكذلك جراجات وساحات النادي الأوليبي.. لم يعد هناك مكان لسيارات جديدة.. الأشياء الثمينة التي جلبتها الفرق الأخرى تعهدا تجار عدى، محمد قرغلي، خالد الكبيسي، زيد كمونة ودريد غناوي لبيعوها لحساب عدى.. والسيارات أيضاً.. إزدهمت صفحات جرائد بغداد بإعلانات عن مزادات البيع.. أمام النادي أقيمت المزادات.. الدفع يتم بالدولارات.. يقوم عزام بإدارة المزايدة، وأحياناً أنا.. بيعت السيارات المسروقة بأسعار رخيصة.. عدى يجلس بعيداً داخل مكتبه في النادي يراقب المزايدة.. كنا نبيع مايقرب من سبعين سيارة كل يوم.. المتهلفون على الشراء يتقاضون عن بعض النواقص.. سيارات بلا مفاتيح ليس مهماً.. ورش الإصلاح ستقوم بالواجب.. الأوراق وأرقام السيارات كلها مشاكل هينة يمكن تدبيرها.. نافذة جديدة للتجارة.. مقابل مائة دينار تجد من يدبر لك رقماً للسيارة.. ملايين ثمانية جمعناها في اليوم الأول.. طاولة عدى التي يجلس إليها زحمت بالدولارات.. كل يوم مزاد جديد ودولارات جديدة تزحم الطاولة.. عدى لا يغادر النادي.. يبقى فيه طوال ساعات المزايدة.. إزدهمت مكاتب النادي أيضاً بسماره ومريديه.. الكل أتى ليشارك في المجون والعريضة.. الخمر تزاحم الدولارات المرصوفة على الطاولات.. أصبحت ساحات النادي ومكاتبه وكراً للعهر..(النساء العاريات يتجولن بلا حياء مع الحراس.) الكل غارق في المجون والعبث.. ما أبشع مايجري عدى يطلب

من فتاة كانت تعريد وهي عارية أن تصعد إلى الطاولة المزجومة بالخمير وأصناف متعددة من المأكولات.. قفزت الفتاة وسط الضحكات الصاخبة.. أخذت زجاجة من الويسكي، رفعتها إلى رقبته ليسيل الخمر على جسدها العاري.. رصعت صدرها بالحمص المطبوخ.. أشارت إلى بعضنا ليأتي إليها ويلق معلق بلحمها البض.. ضحكات ماجنة تتابع الألسن التي تلعق في شبق.)

ازدحمت شوارع بغداد بسيارات المرسيدس و BMW .. أصبحت مألوفة وعادية بعد أن كان استخدامها مقصور على رجال النظام.. ومع ازدحام الشوارع ازدحمت خزائن عدى.. حتى 10 أيلول وصلت الحصيلة إلى أكثر من 125 مليون دولار.. وبدأت حمى المنافسة تسود مزادات البيع.. الأسعار تدنت.. رجال حسين كامل يبيعون بثمن بخس.. الشيفروليه بخمسة آلاف، الكاديلاك أربعة وال BMW بثمانية آلاف دولار.. إضافة لذلك يقدمون لوحات الأرقام مجاناً للمشتريين.. يعطونهم مكتوباً لوزارة الداخلية لإستلام اللوحات.. معارض سيارات حسين كامل حسن في النهضة وفي منطقة البيع تحوالت إلى معارض كبيرة يفد إليها الآلاف للشراء أو المشاهدة.. المنافسة ضايقت عدى.. أمر رجاله بمراقبة رجال حسين كامل.. قادت المراقبة لفضيحة.. حسين كامل النهم لم يكفه هذا الكم الهائل من المسروقات.. جلب إلى مزارعه في تكريت آلات لطبع النقود.. ثمانين مليون دينار عراقي.. أوراق من فئة الخمس وعشرين ديناراً، الخمسين.. والمائة.. أغرق بها أسواق بغداد.. رجال عدى سربوا الحكاية إلى القصر.. أمر صدام علانية في حديث عبر التلفاز بالتحقيق ومتابعة مزوري النقود.. الشرطة تقبض على التجار.. الخيوط تقود إلى رأس الأفعى.. يعرف صدام أن صهره هو الذي يفعلها.. يذهب بنفسه إلى مزرعة تكريت.. يساق إلى الهاوية سبعة رجال من أعضاء جهاز الأمن الخاص.. تنطلق رصاصات متتابعة من مسدس الرئيس لتصرعهم على

التتابع.. يعلن عبر التلفاز عن إقالة حسين كامل حسن من مناصبه الأربعة.. يفقد مقاعد الوزارات التي هيمن عليها طويلاً.. ويفقد الضمانة الأقوى.. صلة المصاهرة.. يجبره صدام على تطبيق ابنته رغد.. الغضبة على الرجل لاتطول.. أيام وتعود المياه إلى مجاريها وكأن ما حدث لم يكن غير زويدة في فنجان.. تلغي كل الإجراءات التي اتخذت بحقه.. ويعلن الرئيس عبر التلفاز: أنه ثبت براءة حسين كامل حسن وتعود المناصب والزوجة.. وثقة الرئيس بالصهر العزيز.

وتعود إلى الكويت: في 28 آب 1990 يعلن صدام أن الكويت أصبحت المحافظة التاسعة عشرة للعراق.. وفي 15 أيلول 1990 يعين علي حسن المجيد حاكماً على منطقة الكويت..

علي حسن المجيد، ذلك المجرم المسمى بالكيمائي الذي قاد هجوم الغاز السام عام 1988 ضد الأكراد في الشمال يمارس دوراً جديداً في الجنوب، ذهب ليؤدع المعارضين للنظام في المنطقة الجديدة.. أخذ الضوء الأخضر من سيد بغداد ليمارس جنونه الدموي.. أخضع سكان منطقة باكملها للعقاب بعد أن نقل إليه أن طلقات متفرقة صوبت من مكن في الحي تجاه نورية عراقية.. إنتزع الجنود السكان من منازلهم في قسوة.. أمرهم بالوقوف إلى الحائط صفوفاً متراسة.. نساء ورجال وصبية، شيوخ وأطفال حصدتهم رشاشات الجنود.. ومن بقوا على قيد الحياة أمروا بنقل جثث القتلى.. تفنن رجال المجيد في ممارسة صنوف التعذيب.. خمسة عشر كويتياً ذبحوا وهم وقوف.. جرت السكاكين على رقابهم متمهلة لتطول مدة الإيلام.. آخرون ظل الزبانية يضربون أقدامهم المعلقة حتى برزت العظام.. حوض ماء مخلوط بالبول والقنورات يجبر البعض بعد الضرب على الشرب منه.. كل من يضبط ومعه نقود كويتية يوسم بالخيانة ويلقى سوء المصير.. عاثوا في الأرض فساداً.. كل جندي انتصب داخله «مجيد» دموي يتلذذ بإهدار كرامة الناس وتعذيبهم.. عمت

التنوهات والصرخات جنبات البلد الواقع تحت أقدام الاحتلال الثقيلة.. لأحد يسمع الآن.. الكل منصرف إلى النهب.. حملاتنا لاقتناص السيارات صارت أعنف.. أصبحنا وحوشاً ضارية.. لم نعد نكتفي بنهب المعارض.. لقد أخليناها كلها.. الآن نترصد السيارات المارة.. نقذف بركابها إلى عرض الطريق.. نأخذ السيارات عنوة.. ولم تعد مهامنا مقصورة على السيارات، أمرنا عدى مرة باقتحام فيلا جواهري في منطقة شامية إحدى ضواحي الكويت العاصمة.. قال إن لديه معلومات أن الفيلا تحوي ذهباً يزيد عن مائة كيلو، إضافة للماس والطحى والساعات.. عندما اقتحمنا الفيلا وجدنا ما أذهلنا.. وجدنا فرقة أخرى كانت قد سبقتنا إلى هناك .. جثة الجواهري ملقاة على الأرض وسط بحيرة من الدماء.. الرجال واقفون منكبون على حشر النقود في بطن تابوت خشبي.. إنهم رجال علي حسن المجيد، محافظ المنطقة 19، توقف اللصوص لحظة دخولنا.. وتوقفنا نحن أيضاً.. أخذتنا المفاجأة.. لحظات من الصمت المتحفر حتى صك أسماعنا صوت أتى من خلف الرجال اللصوص.. كان صوت سيدهم المجيد.. أمر بطردنا على الفور.. أثرت الانسحاب برجالي.. تحاشيت معركة مع الكيماوي.. استدرنا لنخرج في اللحظة التي كانوا هم أيضاً يوشكون فيها على الرحيل.. انتهوا من جمع مجوهرات المقتول، أوسدوها بطن التابوت ولفوه بالعلم العراقي.. عرفت بعد ذلك بقية القصة من حراس عدى.. نُقل التابوت في صحبة الحراس إلى بغداد على اعتبار أن العائد جثمان شهيد وقع في ساحة الواجب.. واستقر التابوت ليدفن الشهيد - الماس والذهب - في خزانة المجيد المخبوة في مزرعته على أطراف بغداد.. ولقى اللصوص رجال المجيد جزاء سنمار.. الضابط والجنود الثلاثة الذين رافقوا التابوت شنقوا.. علقت جثثهم في الشارع العام ليطالعه المارة.. وأعلن أنهم لصوص ضبطوا وهم يسرقون جواهرياً في الكويت، المحافظة 19.. وبث التلفاز صورهم

ومعها خبر يحذر اللصوص والمجرمين.. المجيد يحذر: كل من يضبط وهو يسرق سوف يعدم على الفور ودون محاكمة.

حتى ساجدة.. أم عدى.. حراسها ذهبوا إلى هناك ليأتوها بنصيب من الكنز.. شاحناتهم امتلأت بالمرمر الذي تحتاجه المرأة لبناء جديدة أنشأتها بالقرب من فندق بابل أوبروي.. مرمر للأرض والجدران.. للمحلات التي تشغل الطابق الأرضي.. والتي أُجرت بعد الانتهاء الواحد بما يقرب من ثلاثمائة ألف دينار.

فرقنا تواصل مهام النهب، وما يجري على الجانب الآخر لانعرف عنه إلا ما يتناثر عبر إعلامنا، لاعلم لنا بالعاصفة التي تتجمع هناك في الصحراء السعودية لتهدد صوب الشمال.. الهواجس تجتاح الناس في بغداد لكن لأحد يعرف بعد ما هو آت.. الزيف الذي يتدفق من إعلامنا يملأ الأفق حولهم بالسراب الخادع.. تهديدات صدام الصاخبة تجاه إسرائيل، رهائن الغرب في العراق تلك الورقة التي يلوح النظام بها في محاولة لكبح العدوان تأتي إلينا ببعض الطمأنينة.. رهائن أسماهم صدام بالضيوف.

عملنا الشائن زكمت رائحته أجواء بغداد.. الصحفيون الأجانب نقلوا عبر رسائلهم إلى خارج أسوار العراق تفاصيل مخزية عن جرائمنا في الكويت.. وحاول النظام تقييد حركة هؤلاء المراسلين.. إلا أنهم نجحوا في اقتناص الحقيقة.. السيارات المنهوبة التي يتاجر فيها أقطاب النظام تزحم شوارع بغداد.. المحال زاخرة بأصناف فاخرة من كل شيء نهبه لصوص النظام وباعوه للتجار.. امتلأت صحف الغرب بأخبار وقصص لصوص بغداد وفضائحهم.. ويختلق النظام عشرات الروايات ليمنع سيل الانتقادات لما يجري.. يحاول أن يرتق الخروق التي برقشت ثوبه الأخذ في الاهتراء.. الإعلام العراقي يبيث الأكاذيب في محاولة يائسة ليسترد عورة النظام.. يقول إن البضائع أتت بها انلاجئون الذين فروا إلى بغداد

ويأعوها في الأسواق.. لكن الإعلام غير قادر على ملاحقة ماتجيش به
الصدر.. رأس النظام منزعج من اتساع رقع ثوب نظامه في وقت يحتاج
فيه إلى تماسك خيوط الثوب.

الخطر يحيق بالجميع بعد أن اهتزت قبضة النظام.. أحسه يطولني ..
لم يعد دوري مستوراً.. لم تعد مهمتي كبديل خافية.. حماقة عدى
واستهتاره جعلاني في دائرة الخطر.

الفتى أصبح يدرك أن بديله أصبح محروقاً.. وصلتني مصادفة بعض
أفكاره التي حاور فيها عزام بشأتي .. سمعته يقول للرجل: أفضل حل،
تقتل لطيف وتغرق جثته.. قال له عزام: موت هادى.. لا يصل بنا إلى
حل.. الناس لن تتوقف عن الكلام، وسمعتك لن تتحسن سيدي.. كثت على
مقربة في الغرفة المجاورة أسمع عبر الباب المشرع حديثهما.. رياح
الخطر المحدث تدور حولي.. موزع أنا بين القلق والطمأنينة.. يحتاجني
الفتى لاستمر في أداء دوري مما يحملني على الاعتقاد أن غدره لن يطول
رقبتي.. لكن مخاوفي من دفعي لأكون كبش فداء قائمة وتشغلني.. بعد
يوم من ذلك الحديث الذي جرى بينه وبين عزام استدعى الفتى مدربي،
واستدعى أيضاً الضباط الذين شاركوا في إعدادي.. جمعهم ليجدوا له
حلاً لإخراص الهمسات التي تنور وتزحم البلاد.. أتى بهم ليصنعوا جداراً
يحصنه ضد ريح الانتقادات الأخذة في الإزدياد.. جاء منعم حمد..
وأخرون بينهم شكر التكريتي.

شكر الضابط في جهاز الأمن الخاص انبرى ليشرح مايراه لمواجهة
الأمر.. قال إن لديه خطة ناجعة، وأخذ يشرحها في إسهاب.. تحلقناه
لنسمع تفاصيلها.. حذق في عدى وقال له: أنت لديك سلطة على وسائل
الاعلام.. الجرائد والتلفاز.. أليس كذلك؟

عدى: نعم.

شكر: بواسطتها نقدر أن نخلصك من المشكلة.. ويتابع.. أنت لم تظهر

في الأماكن التي قالوا إن السيارات نُهبت منها.
علامات الحيرة والارتباك تجتاح عدى.. يهز رأسه ويسأل: ماعلاقة
ذلك بالخطأ.. سارع شكر بالإيضاح.
شكر: مهلاً.. سوف أشرح كل شيء.. أنت لم تذهب إلى الكويت.. لم
تسرق أي شيء.. ولم تبع أي سيارات.. لا أحد رآك تفعل.
لم تكن قادرين على الإمساك بخيوط ما يصبو إليه الرجل.. لكن شيئاً
فشيئاً تحل العقدة وتكشف ملامح الخطأ.
قال شكر وهو يشير إلى: عبر شاشة التلفاز يعترف لطيف.. يقول أنه
لطيف يحيى، وأنه هو الذي ارتكب كل الجرائم التي نسبها المفرضون
إلى عدى.

على أن أعترف أنني استقلت الشبه بيني وبين ابن الرئيس، أعترف
أنني خدعت الضباط ونقلت مئات السيارات إلى بغداد.. وتماديت.. قمت
ببيعها.. على أن أظهر في صورة المجرم.. أن أكون كبش فداء.. أن أُلطخ
سمعتي بالأقذار ليظل ثوب ابن الرئيس أبيض.. يالهم من مجرمون.
عدى موزع بين الذهول والفرح.. والمتحلقون الآخرون كذلك.. لحظات
صمت قصار.. أغرقوا بعدها في ضحكات عالية.. أمطروا شكر
بالمجاملات.. قالوا له إن خطته أكثر من رائعة.. لقد وجد لهم مخرجاً..
وأى مخرج.. قفز عدى إلى التكريتي وعانقه.. طبع ثلاث قبلات على
خده.. قال: أخي هذا رائع.. حقاً رائع.. سوف نبث اعتراف المخادع
لطيف يحيى عبر التلفاز ونورده في كل الصحف.. العالم كله يجب أن
يعرف أن مخادعاً أفاقاً أساء إلى شرفي ولطخ سمعتي.. وابتسم في
خبيث.

إستدار إلى.. ربت على كتفي: قال ضاحكاً: سوف نحكم عليك
بالإعدام لطيف.. سوف تلعب اللعبة معنا.
وكان على أن أشاركهم لهوهم العابث.. قدرى أن مصيرى مرهون

بإرادتهم.

في اليوم الثاني انهمكوا في الإعداد لوضع الخطة موضع التنفيذ.. حولوا شقتي في عمارة الحياة إلى استوديو تلفزيوني.. دفع إلى شكر التكريتي بنص الاعتراف لأردده في مواجهة الكاميرات المنصوبة: «أنا لطيف يحيى لطيف.. مولود في 14 حزيران 1964، استغلّيت شبهي بعدى صدام حسين لأسرق بضائع من الكويت بإسمه وأبيعها في بغداد، ولكن في الحقيقة فعلت كل ذلك لنفسى، حصلت النقود لحسابى وليس لحساب عدى صدام حسين، عدى برىء، هو أشرف إنسان على الأرض».

قالوا إنه على أن أردد النص.. أتمرّن على إجادة النطق بكلماته.. وقالوا إن ذلك يحتاج إلى اثنتى عشرة يوماً.. مضحك هذا.. لقد حفظت النص بعد عشر دقائق.. تسجيلات عديدة أجريناها.. أجلسوني على كرسي وخلفي جدار رصاصى.. أتلو الاعتراف وأنا في ملابس عدى.. حرصوا أن أكون على هيئته ليكون الخطاب مقنعاً.. دفع إلى عدى بسيجاره الضخم.. قال إنه يجب على أن أنفث الدخان وأنا أتلو الكلمات.. وأن أجلس كما اعتاد أن يجلس.. أن أحرص على محاكاة لوازمه وحركاته.. تابعني عدى وأنا أتدرب على طريقته في القبض على سيجار الهافانا.. فعلت ذلك أكثر من مرة.. أعدنا التسجيل مرات ومرات.. عدى يعترض كثيراً.. لم تعجبه طريقتي في القبض على السيجار.. يريدني أن أسترخى على المقعد أكثر.

9 تشرين ثان، 1990، جاء اسماعيل الأعظمي الحلاق الخاص لعدى ليشذب ذقني ورأسى.. وجاء بعده جاسم ومعه الحلة التي سوف أرتديها.. بعد ساعة أصبحت جاهزاً.. أجلسوني على الكرسي في مواجهة الكاميرا.. أشار الرجل الواقف خلفها إشارة البدء.. حدثت في الكاميرا وبدأت.. رغم الهدوء الذي حرصت أن يطبع ملامحي، أصابتني مواجهة

الكاميرا بالاضطراب فأخطأت «أنا، لطيف يحيى لطيف، مواليد 18 حزيران 1964.. من بغداد..» قاطعتني التكريتي في حدة: مغفل، يوم 18 حزيران لم تولد أنت بل ولد عدى.

ضحكنا وعاودنا التسجيل.. لم أخطئ هذه المرة.. قمت بنورى بشكل جيد.. أديت بدقة وفق السيناريو المعد.. وكنت طبيعياً.. لا قلق.. هادئ.. ومسترخ.. لاعلامه واحدة تدفع إلى الظن أنني أعترف بفعل إكراه.. وتوقفت الكاميرا عن الدوران فتركت كرسي الاعتراف.. تهالكت على إريكة في الزاوية.. دارت بى الأفكار وتنازعتنى الخواطر.. ماذا فعلت بنفسك يا لطيف!!! جرّمت نفسك علانية.. تمايبت فى الطاعة.. غرقت في بركتهم الأسنة.

11 تشرين ثان، 1990، توقف المذيع الشاب عن تلاوة نشرة الأخبار الرئيسية.. قال: لقد جأنا الآن خبر هام.. قال ذلك بطريقة لبقة ليبدو مقنعاً.. وأخذ في سرد الخبر.. جلست أتابع ملامحه الجادة مترقباً.. قال إنه في الأيام الأخيرة ألقى القبض على مجرم من بغداد يدعى لطيف يحيى لطيف، ابن تاجر كبير في بغداد.. ألقى القبض عليه بعد أن اتضح أنه المسؤول عن تهريب البضائع المسروقة من الكويت والمتاجرة فيها.. إستغل شبهه بابن الرئيس ليقوم بعملياته الإجرامية، لقد لطح اسم عائلته.. وأكثر من ذلك اسم الابن الأكبر للرئيس.. وتوارت صورة المذيع لتصدر الشاشة صورتي.. وتنطلق كلماتي.. إعترافي بالجرم.

إلى جوارى جلس شكر التكريتي.. وعدى، وحراسه.. تابعوا وتعالت ضحكاتهم.. إرتجت جنبات المكتب رقم سبعة بالتهققات الماجنة.. عاد المذيع يتصدر الشاشة من جديد.. ليكمل بقية الخبر.. قال والجهامة مرسومة على محياه: لطيف يحيى لطيف تسبب بجرمه في الإساءة إلى شرف عدى صدام حسين.. لذلك حكم عليه بالإعدام شتقاً.. وسينفذ الحكم في الأيام القادمة.

تحسست رقبتى.. وأنا أرقب عدى والحراس، أرقب نشوتهم بالملهاة
التي أعبوها.. أخذت أفكر طويلاً كيف سيكون وقع الخبر على أسرتى ..
باللكارثة.. إينهم الأكبر يلطخهم بالعار.. يأتهم بالخزى.. ربما هم هناك
الآن متعلقون حول التلفاز يشهدون البلية.. أو ربما أخذت الهواتف المعزية
تتلاحق لتدق رأسهم الموجوع.

لقد غيبوه عنهم طويلاً.. الآن يصمون به بالخزى.. يلطخون اسمه
بالعار.. يذهبون به إلى النهاية مدموغاً بالخيانة.. أيتها الأم الحنون كيف
أنت الآن؟! أى آلام تعصف بفؤادك.. وأنت أيها الحكيم.. أى دمار سوف
يلحق بك وبتجارتك من جراء ذلك.. لك الله يا أبى.. ما أنعسكم إخوتي..
دموعكم من يقدر على تكفيفها.. كيف ستواجهون النظرات القاتلة..
كيف.. كيف؟! ما أهول الألم على نفسى وعليكم.

مجرم أنا.. نعم.. لقد شاركت.. قدت الحملات لحساب عدى.. وفي
بعض المرات اقتنصت لنفسى عدة سيارات.. لم يعرف عدى، أو عرف ولم
يهتم.. ولم أشعر ساعتها بندم.. كنت مساقاً برغى فى طريقهم الآثم..
لكنى الآن أدرك حجم البشاعة.. والخزى الذى أنا فيه غارق.

سألت عدى: وماذا بعد؟! ماذا بعد المسرحية؟!

قال وهو يهيم بالرحيل: سوف يعلمونك بذلك.

وعدت أسأله والقلق يحتوينى: هل أستطيع أن أعلم أهلى أنى لازلت
على قيد الحياة.

قال بجسم: لا.. لن تغادر بعد الآن القصر.. عليك ألا تبرح شقة عمارة
الحياة.

علامات القلق تحوم حول رأسى.. اتسعت دائرة الخطر.. أدلف سريعاً
إلى قبر مظلم.. ميت أنا الآن طبقاً لروايتهم الرسمية.. حياتى ووجودى
استحالا إلى عدم.. أحاول أن أبدد سحبات القلق الذي يغشانى.. أقول
لنفسى.. لقد نسجوا عشرات القصص على هذه الشاكلة.. لكن الشعب

الظن يدرك أنها مجرد قصص ينسجها اللئام لتبييض وجه نظامهم القبيح.. والعالم أيضاً.. لا أحد يصدق رواياتهم.. كل ناس العراق تعرف أن عدى يتجر في كل شىء.. لن يَخيل عليهم أن واحداً مثلى مهما بلغ عظم مكره قادر على القيام بكل تلك العمليات الواسعة ولأشهر.. كيف قدر على ذلك وغفل عدى.. عيونه المبتوثة في كل مكان لاتفوتها شاردة أو واردة.. أطمئن إلى أفكارى.. أطمئن إلى أن أهلى لن يصدقوا الرواية التلفزيونية.. تتتابنى رغبة جامحة في الفرار.. الخروج من عالمهم.. لكن تأتي الرياح بما لاتشتهى السفن.. ولا تسير الأمور في المسار الذي أرغبه وأتمناه.



● الليالي تمضي متثاقلة.. ضيقوا الخناق على بعد المسرحية التلفزيونية.. يحوطني الحراس جلّ ساعات اليوم.. إنقطعت عن العالم.. لأعرف مايدور حولي.. إلّا النذر اليسير الذي يتسلل عبر شفاة الحراس المطبقة.. لم أعرف بتسارع الأحداث.. قال لي الحراس أن الرهائن الأجانب أطلق سراحهم.. وإن الأمم المتحدة الواقعة تحت النفوذ الأمريكي وجهت إنذاراً للعراق.. حددت يوم 15 كانون الثاني 1991 موعداً أخيراً لإنسحاب جيشنا من الكويت.. توعدتنا أن قوات الحلفاء سوف تحرر الكويت بالقوة إذا لم نستجب وننسحب في الموعد المضروب.. الحراس يرددون كالبيغاوات كلمات النظام.. يرفعون كلاشينكوفاتهم ويهددون.. يقولون عبارات لامعنى لها «سوف نخنق كل جندي أميركي يقع تحت أيدينا» «إذا هاجمنا بوش سوف نلقنه درساً.. سوف نفهم هذا المتوحش أننا قادرون على كسب أم المجازر».. عبارات جوفاء لامعنى لها.. كيف لهؤلاء الحمقى مقاومة جيوش جرارة أتت من كل العالم.. ألم تكفهم مأسى حربنا مع إيران.. علامات الفاقة.. الثكالي والأرامل.. لأحد يريد مأساة جديدة.. حرباً أشرس وأكثر اتساعاً.. لأحد يريد الجحيم القادم.. فقط وحده النظام الفارق في الفطرسه والبلامة.. النظام المقامر بمقدرات شعب فرض عليه الخرس.. أعزى نفسي أن صدام سوف يسارع إلى الانسحاب في الدقائق الأخيرة ليتفادى المذبحة الدامية.. هو مثل لاعب البوكر.. يخادع.. لكنه يتراجع في النهاية.. يعرف أن أوراقه هي الأسوأ.

حتى الحراس يبيغاوات النظام.. يتسلل القلق إلى ملامحهم مع تسارع الأحداث.. يسألونني في توجس «يتحدث الغرب عن أرقام هائلة.. تقول وسائل إعلامه إن أكثر من نصف مليون جندي عراقي متمركزون في الكويت مع آلاف الدبابات، ومعدات جديدة.. أنت كنت في الكويت، كيف كان الوضع هناك؟!».

قلت ما أعرفه: ما أعتقده وفق مشاهداتي وأنا هناك.. أن جنودنا أقل بكثير من الأرقام التي يُروج لها في الإعلام الغربي.. قد لا يتعدون ربع مليون.. فضلاً عن ذلك يغشاهم الإحباط ولارغبة لديهم في قتال يدركون أنه سبيل إلى كارثة محققة.. قلت ذلك وأنا أعرف أن ما أقوله قد يدفع بي إلى التهلكة.. لكن علامات التوجس البادية على الحراس بددت حذري وخشيتي.. أدركت أنهم مثلي قلقون وخائفون من المجهول القادم.. تجول في رؤوسهم نفس أفكاري.. وتشغلهم نفس هواجسي.

جمعتني الصدفة بمنعم حمد أمام عمارة الحياة.. قابلته بترحاب وصافحني في مودة.. سألني عن أحوالي.. شكوت له وحشة التعطل وقيود العزلة.. كاشفته برغبتني في الحصول على مهام جديدة.. قلت إنني لم أعد أطيق البقاء هكذا.. هز رأسه.. أطرقت قليلاً ثم قال بصوت أقرب إلى الهمس وتشويه رنة حزن: سوف تأتي المهام متسارعة.. وفي وقت ربما لا يروقنا.. قال ذلك ومضى.. عبارته الغامضة زادتني قلقاً.. ماذا في جعبة الرجل؟! كلماته موحشة وقابضة.

أخذت الأيام تتوالى، والأقاويل تجري على ألسنة الحراس.. تنتقل إلى مايفك طلاس كلمات منعم القلقة الموحشة.. عائلة صدام رحلت بعيداً عن الخطر.. حملتها السيارات إلى الأردن.. قوافل ولت بهم متتابعة في غبشة الظلام.. قافلة عدى وحراسه.. ساجدة والبنات.. حتى عائلات الوزراء

ورجال الحزب سارعت بالفرار.. إلى الجزائر ومنها إلى البرازيل.. وبعضهم إلى موريتانيا.. قالوا إن عدى لم يمكث طويلاً في البرازيل.. ذهب إلى جنيف إلى جوار عمه برزان التكريتي.. روايات الحراس أجمعت على رحيل العصابة.

لم يبق في بغداد غير صدام وقصى.. الفرار الكبير هذا أكد لي أن الحرب قادمة.. المفاوضات التي أجراها وزير خارجيتنا طارق عزيز في جنيف مع السكرتير العام للأمم المتحدة بريز دي كويار تعثرت.. عناد قادتنا يدفع إلى الكارثة.. صدام يرفض الانصياع للإرادة الدولية.. يدق طبول الحرب.. يهدد ويتوعد.. يقول إنه في حال هجوم الحلفاء سوف تدك صواريخه إسرائيل.

تجتاحني المخاوف على أهلي.. إلى أين يذهبون.. بغداد لم تعد آمنة.. لاملأجيء كافية.. ماهو صالح منها يخصصه النظام للعملاء وأعضاء الحزب.. تمنيت أن يذهبوا عند أقاربنا في الشمال.. أو إلى أحد فنادق الضواحي.. جلست إلى واحد من حراسي.. كان مهموماً وقلقاً على أهله أيضاً.. قال إن والده يرى أيضاً أن العراق غير قادر على تحمل حرب جديدة.. وإن لافرصة للنجاة.. قال والده إن الأمريكيين والاوروبيين سوف يدمرون البلد.. قال الحارس إن أهله حاولوا الرحيل إلى عمان لكنهم عجزوا عن استخراج الأوراق التي تسمح بالرحيل.. وأطرق حارسي حانقاً ومهموماً.

16 حزيران 1991.. نذر العاصفة تتجمع في الأفق.. لحظات وتنتهي المهلة التي حددها إنذار المجتمع الدولي.. جاء الحراس إلى جوارى.. جلسنا نرقب التلفاز.. أُلصق أحد الحراس راديو ترانزستور إلى جوار أنه يحاول التقاط محطة خارجية.. لم ينجح في إلقاط غير لحظات

قصيرة من إذاعة مونت كارلو. حاولنا أن نلتقط محطة «C.N.N» على التلفاز ففشلنا. ليس أمامنا إلا الاستماع إلى إذاعة وتلفاز العراق.. مذيع النشرة ينقل لنا تأكيدات الرئيس القائد: الشعب العراقي سوف يقضى على البغاة.. لم يعد بوسعنا سماع المزيد من الكلمات الجوفاء.. الكارثة تزحف سريعاً في الألق.

المخاوف تدفعني للسؤال.. أين الملجأ.. يطمئنني حارس أننا لن نبقي في عمارة الحياة إذا حدث هجوم.

لم نكن نملك غير الانتظار والحملقة في الجهاز البغيض.. تابعناه مكرهين وهو يبيت صوراً متتابعة لمظاهرات التأييد وهي تصرخ.. آلاف متدافعة حشدها النظام تحمل صور صدام القائد.. فليسقط بوش.. فليسقط بوش.. جعيرهم الخاوي.. المعاد والمكرر يصيبني بالغثيان.. حمقى يجهلون مايدور على الساحة.. لايعرفون أن أسرة قائدهم المفوار ولّت هاربة.. ولّت وتركتهم ليكونوا ضحايا الجحيم المقبل.

نتعالى خفقاتنا مع دوران عقارب الساعة المعلقة على الجدار.. يقتلنا الانتظار والترقب.. أخذتنا السؤالات بعيداً.. ماذا لو صدق صدام في وعيده وأطلق صواريخاً على تل أبيب.. هل سترد إسرائيل على هجوم الغاز بسلاحها النووي.. عند الساعة تماماً دق الهاتف.. أمسك أحد الحراس بالسماعة.. راقبناه.. إبيض وجهه وقفز صارخاً: يجب أن نغادر إلى الملجأ سريعاً.. رجال مخابراتنا في السعودية حصلوا على معلومات مقلقة.. تحركات مكثفة في مطار الظهران.. ربما تقصف بغداد الليلة..

هرونا إلى أسفل.. قطعنا المسافة بين المدخل والملجأ في لحظات.. أضواء باهرة في ساحة القصر.. أي جنون هذا.. لماذا تركوا كل هذه الأنوار إذا صحت المعلومات التي جاء بها رجالهم المبتوثون في الطرف

الآخر.. بالتاكيد سوف يكون القصر أول ما يستهدف بالقصف.

جلسنا هناك في أركان الملجأ.. ستة عشر رجلاً يحوطهم القلق.. ساعات طويلة من الانتظار القاتل.. عقارب الساعة تشير إلى تمام الثانية وأربعين دقيقة.. هزات متتابعة ارتجت لها جدران الملجأ.. رائحة البنزين تخرق أنوفنا.. لن نخرج من هنا أحياء.. تتمم بها مجاوري.. وتسلت عبارته الملتاعة إلى داخلي.. تكومت إلى الجدار وأخذت أبسمل وأهوقل.. لازالت أصوات الانفجارات تصل إلى مسامعنا.. الملجأ الحصين الذي نحن فيه قالوا إنه قادر على الصمود حتى في وجه ضربة نووية.. أخذنا نشغل أنفسنا بتخمين المواقع التي تصيبها الانفجارات وفق قوة كل هزة.. هذه غارة قريبة.. بالتاكيد ضرب الآن مقر الحرس الخاص.. هذه أبعد ربما كانت تدك المشروع ألفين المقر الرئاسي لصدام.. كل خمس دقائق تأتي هزة جديدة.. ومعها يزداد خوفنا وشعورنا بالاختناق والألم.. حاول البعض أن يقاوم.. ضحكات ومزحات مصطنعة عليها تخفف الاختناق الذي يأسرننا.. زاد من انقباضنا انقطاع التيار الكهربائي.. فتشنا علّ البناية الفرنسيين نصبوا محولاً للطوارئ.. لم نجد أثراً يدل عليه.. سخر حارس من هؤلاء البناية.. قال إنهم مهملون ويخلاء.. واصوص أيضاً.. سبهم.. قال وهو يسخر في مرارة: وربما أيضاً سرقوا بعضاً من الأسمنت المسلح.

بقينا في الملجأ حتى الخامسة صباحاً.. توقفت الانفجارات.. وساد الهدوء.. انفجرت أساريونا قليلاً.. وعدنا إلى تبادل الحديث.. نحاول أن نبدد بالكلمات ظلام الملجأ.. أتى ضابط إلينا.. أمرنا بالتخلص من حللنا العسكرية.. الجنود الذين أتوا في رفقة أعطونا الدشاديش.. إرتديناها وغادرنا الملجأ.. خرجنا من الجُب الخانق إلى الفضاء.. إلى فضاء ترحمه

سحابات الدخان.. لتزكم أنوفنا رائحة الحريق.. أتطلع صوب القصر.. لا بد أن كل شيء أصبح حطاماً.. قال الضابط الذي جاء ليرافقنا: ليس كل شيء.. المشروع رقم ألفين فقط.. دكته القنابل التي انهمرت كالسيل.. صعدنا إلى ناقلة عسكرية كانت تنتظرنا، غادرت بنا بسرعة ساحة القصر.. أقلتنا إلى منطقة الدجيل.. ستون كيلومتراً بعيداً عن بغداد.. لم نجد أثراً لدمار.. منازل في صفوف منتظمة.. لاتدل هيئتها على أنها منطقة عسكرية.. بيوت عادية .. أدخلونا إلى واحد منها.. أسفل كل بيت ملجأ له مدخل خارج البيت.. الأشجار الكثيفة تخفي الممرات الواسعة ومداخل الملاجئ.. مكثنا في المنطقة الآمنة حتى بداية شهر شباط.. أسر لي حارس بما يعرف.. قال إن صدام موجود في المكان.. قال أن القائد يختفي في واحد من بيوت الدجيل.. قافلة صغيرة تتألف منها رفقة.. أربع سيارات عادية.. لإحاشية ولأمظاهر ملفقة للنظر.. بعد أيام ثلاثة قال الحارس: لقد غادر القائد المنطقة.. غادر كما جاء بهدوء.. إلى أين لم يكن الحارس يعرف.

نهاية كانون ثان 1991، الطائرات المعادية لازالت تحوم في السماء.. إعتدنا سماع الانفجارات البعيدة.. لم يعد الخوف يجتاحنا.. إعتدنا جو الحرب.. سمعنا قبل أيام أن صدام زار الفرق المرابطة في الكويت رغم كثافة الغارات.. الطائرات الأمريكية تحوم فوقنا على ارتفاع عالٍ.. وسائل دفاعنا عاجزة عن اعتراضها.. عولنا على رداة الجو.. جعلناه حليفنا.. عندما يسوء تقل الغارات الجوية ونتنفس بعض الصعداء.. كنا نمضي أوقاتنا نرقب السماء ونتشوف لمعرفة مايجري.. تنفجر أسارىرنا كلما جاعنا أن صواريخنا السكود انطلقت لتضرب أهدافاً في السعودية أو إسرائيل.. ترتفع معنوياتنا قليلاً.. ويحدث من يأتي إلى مكننا أن

جنودنا كذلك يفرحون عندما تدك صواريخنا التي تنطلق بين حين وآخر مواقع في جبهات الأعداء.. جبهات الأمريكان والصهاينة.. والفلسطينيون هناك أيضاً تتعالى زغاريدهم مع كل صاروخ يهبط على رؤوس المحتلين.. يصعدون إلى أسطح منازلهم ليشاهدوا مسارها.. تتعالى صيحاتهم الفرحة.

لحظات فرحنا قصيرة ولا تنوم طويلاً.. كل يوم يأتينا بما هو سيء ومحبط.. الهجمات المتتالية تحصدها إلى جانب الجنود الآلاف من السكان الأمنيين.. تدمر مدننا وقرانا دون أن تلقى من يردعها.. الجنود هناك قابعون ينتظرون المجهول في كل لحظة.. تتهاوى الملاجئ ليدفنوا في جوفها أحياء.. أو يقبرون في العراء.. ونسمع أن جنودنا في الكويت يعانون من يأسٍ قاتل.. طرق الإمدادات إليهم تمرقت تحت وطأة الغارات.. ويموتون أكثر من الغم عندما تبت الإذاعات الغربية أخبار عائلة صدام التي ولت بعيداً عن الخطر.. وتغيظهم الأخبار التي يسمعونها عن لهو العصابة في المنتديات خارج حدود الوطن.

28 كانون ثان 1991، جاء روكان التكريتي أحد المقربين من صدام ليصحبني، أخذني إلى ملجأ آخر.. قطعت بنا السيارة مسافة لاتتعدى 20 كلم بعيداً عن المطار الدولي.. ملجأ حصين مشيد بين مساكن خاصة تحجب مداخلها أشجار عالية.. المكان هادئ.. ولا آثار تدل على أن الغارات المعادية عرفت طريقها إليه.. صحبني مرافقي إلى بطن الملجأ.. وكان بالغ الاتساع.. في ساحتها الأمامية تريض طائرتان من طراز ميج 29 وعدة ناقلات عسكرية.. تجاوزنا الساحة وأربع غرف لها أبواب من الحديد المطلى بلون أحمر قان.. هبطنا بضع درجات إلى طابق سفلى.. كان في استقبالنا حراس متجهمون.. أخضعوني لتفتيش دقيق..

تحسّسوا ملابسى.. غاصت أصابعهم في أعضائى.. بعدها قابونى إلى غرفة اجتماعات واسعة.. طاولة تشغل وسط الغرفة وحولها.. صفت الكراسى في نظام.. وسادات الكراسى الخضراء تقلل من وحشة المكان.. جلّيت ببصرى أتعرف أكثر على جنبات الغرفة.. باب جانبي مشرع يقود إلى غرفة أخرى.. غرفة ممثلة إلى آخرها بتجهيزات إلكترونية.. كمبيوترات وهواتف.. أغلق روكان الباب وتركنى أنتظر.. استدرت عندما انفتح باب القاعة ثانية.. دخل قصى صدام حسين وتبعه حسين كامل حسن.. ثالثهم كان القائد.. صدام.. أربكتني المفاجأة.. تطلعت إليه وأنا واقف غير قادر على امتلاك لجام نفسى.. جلس الرئيس إلى الطاولة.. وإلى يساره جلس حسين كامل.. وجاوره من اليمين ابنه قصى.. وقفت أطلع إليه.. إلى صدام.. عيانان ذابلتان.. ووجه منتفخ.. يده الملقاة على سطح الطاولة ترتجف قليلاً.. نظر فجأة إلى نون أن ينبس ثم أطرق.. ثم عاد وعاود النظر.. جاخى صوته المشوب بالهم.. وجه إلى الخطاب وهو يتملّنى بعيون زائفة: أريدك أن تذهب مع حسين كامل إلى الكويت.. عليك ياولدي أن تقوم بواجبك جيداً.. كلماته الهادئة الوقورة المشوبة بالحنن انسابت إلى داخلى.. واستدار قليلاً إلى قصى.. حطت يمناه على كتف الفتى وهو يشرح له هامساً بعض ما يدور في خاطره.. تمنيت أن تطول وقفنى لأطالع الرجل أكثر.. لكن روكان قادنى الى الخارج.

29- كانون ثان، عند التاسعة مساءً تحركت قافلتنا في طريقها إلى الكويت، ثلاثون مرسيدس ليموزين سوداء تتابعت على الطريق.. سارت برفق.. أطفأ قادتها الأنوار طلباً للأمان.. السيارة الأولى تقود القافلة.. بين حين وآخر يشعل سائقها ضوء مصابيحها الأمامية ليتبين الطريق للحظات ثم يعود فيطفئه.. السيارات الأخرى تهتدى بضوء خافت يأتيها

من السيارة القائدة.. نستعين بضوء القمر معظم الوقت.

يرافقتنا، أنا وحسين كامل خمس وسبعون حارساً.. سيارتنا تتساقط في هدوء على الطريق.. ألمح عبر زجاج السيارة الأمامى ضوء باهر يسطع في الأفق البعيد.. ضوء حرائق تتصاعد من المعسكرات التي دمرتها الطائرات.. وصلت قافلتنا مع ساعات الصباح الأولى إلى مشارف البصرة.. دمار كامل يدمى القلب.. بيوت المدينة وطرقاتها تدمرها الفوضى ويطبعها لون الدخان.. ولأحد هناك.. وكأن سكانها هجروها.. تابعنا إلى صفوان حيث المقر الجوى الكبير على الحدود مع الكويت.. وصلنا إلى هناك.. إنحرفت سيارتنا في طريق جانبي لتصل بنا إلى معسكر قريب من المقر الجوى.. سويت هندامى.. حلتى السوداء.. وارتديت الريان.. لأبدو في هيئة عدى.. هيئة ابن الرئيس.. قادة المعسكر كانوا في استقبالنا، قادونا إلى مواقع قتال تحت الأرض.. محصنة بشكل جيد.. لم تتأثر كثيراً بالقصف رغم أنها تعرضت له طوال الأسبوعين الماضيين.. إنشغل حسين كامل مع قائد المعسكر ليسمع مايقوله حول وضع المعسكر.. أحوال الجنود.. أخذ يتملى وثائق وخرائط ازبحت بها الطاولة.. وحرص قائد المعسكر وضباطه على تزويق وضع معسكرهم.. لم يصرحوا بمعاناة جنودهم وقلة الإمدادات التي تصلهم.. تعرضهم بين حين وآخر إلى جانب القصف لهجمات يقوم بها رجال المعارضة الشيعة.. المصورون الذين جاؤوا معنا نشطوا في توجيه كاميراتهم ليسجلوا تجوالنا في جنبات المعسكر.. صوروني بكاميرات الفيديو.. صوروا عدى وهو يتناول الشاي مع الجنود.. لقد اختاروا جنوداً ليقوموا بالنور أمام الكاميرا.. منحوهم ملابس جديدة.. أمرهم أن يفتصبوا الابتسامات.. أوقفوني أمام اللاسلكى وقرب مضاد للطائرات.. وأجلسوني على مائدة

لأتناول الطعام مع جنود المعسكر.. جعلوا الجنود يصرخون أمام الكاميرا.. يهتفون في استقبالي.. استقبال ابن الرئيس.. صدام.. صدام.. يعيش صدام ويسقط بوش.. جعلوهم يرددون كلمات جوفاء خاوية.. وقفت في مواجهة الجنود ألقى خطاباً أعدوه لى سلفاً.. وكلماتي أيضاً.. كانت مجرد كلمات لرفع معنويات الجنود.. أخذت أنعتهم بالمغاورير.. أسوينا الشجعان.. لمحت بين صفوفهم وجه صديق.. خضنا معاً معارك 1987 على الجبهة.. إلتقت نظراتنا.. بادلت الابتسام.. لم تضلله هيتي المستعارة.. تمنيت أن أندفع نحوه وأعانقه لكنى أحجمت.

ليلتنا التالية قضيناها في مدرسة تبعد عن البصرة بعدة كيلومترات.. حسين كامل حسن يحاول أن يتجنب البصرة لتتقادي الخطر بعد تعرض المنطقة أيام متتالية للقصف المتواصل، ولنتجنب أيضاً غارات الشيعة التي تستهدف معسكرات الحرس الجمهوري.. قضينا ليلة هادئة أنا وسبعة عشر حارساً بعد أن غادرنا حسين كامل إلى بغداد برفقة الحراس الآخرين.. سافر ليقدم للرئيس الوثائق التي أخذها من قادة المعسكر الذي زرناء.. جلست إلى فراشي أطلع الصحف التي جاعتنا من بغداد.. طالعت صورتي تتصدر معظمها.. تطلعت إلى صورتي وأنا واقف بين الجنود.. وإلى العناوين التي تتحدث عن بطولة عدي: عدي الابن الأكبر للشعب يقاتل مع الفرقة الشجاعة ضد العدو الأمريكي الإمبريالي.. شعارات.. شعارات لاجانب لها من الحقيقة.. صور مضللة وكلام خادع يثير في النفس الضيق.. ألقيت بها في قرف ظاهر.. لم أعد قادراً على مطالعة ما حفلت به من صور النفاق الرخيص الممجوج.. لم تتجراً إحداها على ذكر حتى أقل القليل مما يدور حولنا.. يأس الجنود وإحباطاتهم.. قناصة الغبش الذين يأتون من أوكار المعارضة الشيعية ليطلعنوا حراس

معسكرات النظام.

مع ساعات الصباح الأولى تحركنا من جديد إلى البصرة.. القواطع المقامة على الطريق حذرنا رجالها.. قالوا إن اضطرابا يشيع هناك.. لم نبعد سوى بضعة أمتار عن القاطع.. جاء ما حذرونا منه.. حمم من النار انطلقت تجاهنا.. رجال كانوا يكمنون خلف الهضبة.. إنطلقت نيران رشاشاتهم وقنابلهم اليدوية قاصدة موكبنا.. وكان علينا أن نتبادل معهم النار.. السيارة التي كانت تحمي جناحي الأيسر أصابته قنبلة يدوية فاحترقت، وسقطت أخرى على مقدمة سيارتي المصفحة.. انفجار مروع هشم زجاج المصفحة.. أصابتنى الشظايا في كتفى ويمطلى.. لم أعد أحس بأصابع يدي.. غرقت في الدم المتفجر.. سقطت على أرض السيارة وغبت قليلاً عن الوعي.. خلع الحراس باب السيارة وأخذوني إلى سيارتهم.. نهبوا بي الطريق إلى بغداد.. آلام مبرحة بدأت تسرى في جسدي، كتفى ورأسى.. يدي اليمنى والفخذين.. توقفت السيارة بعد أن بعدنا عن دائرة الخطر.. إجتهد الحراس ليضمدوا جراحى.. ثم واصلوا السير، أخذوني إلى أول مستشفى قابلتنا على مشارف العاصمة، تحلق الأطباء حولي.. خاطوا الجروح.. سمعت همساتهم وأنا نصف غائب عن الوعي بفعل المخدر.. قالوا ربما احتاج الأمر بتر الإصبع المصاب.. إنها الكارثة.. أجروا ثلاث عمليات متتابة وأنا نصف متيقظ.. حاولوا إنقاذ الإصبع.. بقيت رهين الفراش لأيام أعانى من الحمى.. الإمكانات المتواضعة وقلة النظافة في المستشفى حالت دون العناية الكاملة بي.. أصيب الجرح بالتهاب خطر.

والأسوأ أن محاولة الاغتيال التي تعرضت لها عرف بها الكل.. يبدو أن الثوار الشيعة أرسلوا تقريراً لقيادتهم عن نجاحهم في مهاجمة موكب

ابن الرئيس.. سمعت الخبر عبر الراديو الصغير الذي جاء به حراسي ليرافقني في الفراش.. بثته إذاعة مونت كارلو وصوت أمريكا.. قالت النشرة.. قتل عدى الابن الأكبر للرئيس العراقي صدام حسين بعد تعرضه لعملية هجومية قام بها الثوار الشيعة في البصرة.

بعدها عرفت أن الإذاعات الأخرى.. العالمية والعربية بثت الخبر أيضاً.. أصاب الاحتياج أبواق دعاية النظام.. أصابها الخبر بالارتباك.. محاولة الاغتيال تزيد من مأزق النظام.. ترفع معنويات الثوار الشيعة وفصائل المقاومة الأخرى.. وتكثُر الروايات الدائمة للنظام عن التفاف كل فئات الشعب من حول القائد في مواجهته للعدوان الأمريكي والصهيوني.



● اجتاحتني موجة من الأسى والحزن عندما جاء يبلغني بالخبر. تعثرت كلماته الدامعة وهو ينقله إليّ.. جاء الحارس ليبلغني أن أربعة من ضباط الحماية لقوا ربهم.. سقطوا عندما تعرض موكبنا لنيران القناصين الشيعة في طريق البصرة.. الرائد صبرى كامل مطر، ملازم أول حسين فتح الله محمد، ملازم ثان ناظم هلال الدوي، وملازم ثان بشير يونس التكريتي.. أربعة من الرجال الشجعان سقطوا ضحايا الواجب.. قفزوا من سيارات القافلة.. زحفوا على الأرض قاصدين الهضبة.. أرادوا الاشتباك المباشر مع القناصة.. قال ناقل الخبر أن أول من سقط كان صبرى كامل، أصابته طلقة كلاشينكوف إصابة مباشرة في الصدر.. الثلاثة الآخرين أصابتهم شظايا انفجار قنبلة سقطت إلى جوارهم..

عاودتني الآلام بعد أن غادرني الحارس.. الرجال الأربعة زاملوني لفترة ليست قصيرة.. كُفوا برفقتي بعد الاعتراف التلفزيوني.. كنت رهيتهم ولم أكرهم.. تألفنا.. قضيت معهم أياماً موزعة بين الهناء والآلم.. كنا معا في الملجأ عندما بدأت الغارات على بغداد.. هربنا سوياً إلى الدجيل.. رافقوني إلى صفوان.. وفضلاً عن كل ذلك لقوا حتفهم وهم يجهدون لحمايتي من الاغتيال.

جاء روكان التكريتي لزيارتي.. استمع إلى الأطباء.. جراح الرأس والفخذ اندملت.. لا زالت يميني تعاني من الورم.. حث الأطباء على تكثيف العناية بي.. قال أن عليّ أن أَسْتَعِدَّ للعمل.. لاوقت للتلكأ.. ثم أردف: إذا لم تأتِ العناية بنتيجة سريعة.. فسوف نُضْطَرُّ لاصطحابك إلى الجبهة

بضماداتك هذه.. قال إنها إرادة الرئيس.. يرغب أن تكون بين الجنود.. وقال أيضاً إن عدى لازال في جنيف رغم أن تعليمات عاجلة من الرئيس أمرته بالعودة.. سألته عن الأحوال فلم يعطين جواباً مباشراً.. ولم أكن في حاجة لمعلوماته.. أخبار مايجري تتناقلها الشفاه هنا في المستشفى.. يتطوح الممرضون والمرضى بنقل الأخبار إلى مسامعي.. والراديو الصغير رغم المشقة التي أعانيها في اصطياذ المحطات الخارجية يأتييني بزد آخر.. قوات الحلفاء تكثف غاراتها .. تقوم الطائرات المعادية بأكثر من ثمانمائة غارة.. تهاجم مواقع الحرس الجمهوري ومواقع الفرق الأخرى.. قواتنا حبيسة الخنادق.. غير قادرة على الحركة.. الدبابات والآليات مغمورة في الرمال.

جاء مريض من غرفة مجاورة ليعودني كعادته كل صباح.. جاء وعلى لسانه الزاد اليومي.. قال: سوف أتلو على مسامعك موجز أنباء البارحة.. لقد قامت الفرقة المدرعة الخامسة بهجوم بالدبابات على ثلاثة مواقع حدودية.. مواقع عند نقطة التماس بين أرض الكويت والسعودية.. الطلائع الأولى سُحقت على الفور.. لكن نجحت وحدتان في الوصول إلى الخفجي «مركز لتكرير النفط» سيطرت قواتنا على المنطقة وبقت هناك لأيام.. نقلت الإذاعات العالمية الخبر.. قالت أن أكثر من أربعمئة دبابة وناقلة جنود مدرعة أرسلها صدام إلى المنطقة.. أخذت أطلع إلى الرجل متشوقاً إلى سماع المزيد.. قال إن الموجز انتهى.. قال ذلك وهو موزع بين مشاعر الفخر ومشاعر الألم.. لكنه لم ينس ككل يوم أن يختم النشرة بتحليل للحدث.. قال إن العملية لاقية لها من الناحية العسكرية.. مجرد عملية دعائية.. قال ذلك بلهجة العارف المدقق.. محدثي مجرد عامل بسيط.. لكنه مثل كل أبناء شعبنا أصبح يملك قدرة على النفاذ إلى جوهر الحرب.. تعايش ناسنا مع الحرب أملكهم قدرة عالية على معرفة لغة القتال..

والقدرة على التفريق بين الفعل و«البروياجندا».. ولم ينس الرجل أن يترك لي كالعادة جرائدنا.. أخذت أقلبها وأنا أعرف أنها خاوية.. مملوءة بصور كاذبة.. صور ابن الرئيس مع فرقنا على الجبهة.. وعناوين ضخمة عن احتلال قواتنا لمناطق سعودية.. لم أقل للرجل أن منطقة الخفجي مجرد منطقة أشباح.. سكانها هجروها مع وصول الأنباء عن دخول قوات العراق للكويت.

طاحونة إعلام النظام لازالت تدور محمومة.. تعثرت قليلاً بعد المحاولة التي قام بها الثوار الشيعة لاغتيال.. ثم عادت تطحن الهواء من جديد.. التلغاز الذي في غرفتي تسيل منه الأكاذيب بلا انقطاع.

16 شباط 1991، أمر عدي بالعودة إلى بغداد، غادر جنيف إلى روما ومنها طار إلى عمان، وكان هناك رجال جهاز الأمن الخاص ينتظرون، رافقوه على الطريق الموصل إلى بغداد.. طريق الأتوستراد لازال رغم تعرضه للقصف صالحاً للسير.. ذهب عدي إلى أبيه أولاً ثم جاء لزيارتي.. دلف على الفور إلى مكتب مدير المستشفى والتقى بالأطباء.. عندما جاء لم يظهر اهتماماً بي.. سمعت صوته الغاضب وهو يعنف الأطباء في المرء.. يريد تفسيراً لطول مدة علاجي.. لم يهتم بالجهد الذي بذلوه لإنقاذى.. كانوا يعملون فوق طاقتهم.. لم تعد إمكانيات المستشفى قادرة على مواجهة الحالة الطارئة المفروضة عليها.. آلاف الجرحى كدسوا في الغرف تتعالى أناتهم.. يجرى الأطباء هنا وهناك بلا كلل.. قال له الأطباء أن أصبغى المصاب يحتاج لعملية بلاستيكية تكلف كثيراً.. عندما دلف إلى الغرفة معهم لم يتوقف عن متابعة الحديث.. فقط حياني بإيماءة واستمر في متابعتهم.. قالوا إنهم لا يملكون هنا غير حل واحد.. هو بتر الإصبع.. كنت أعرف ما يدور بخاطرهم.. يدركون أن واجبهم الإنسانى يقضى بالانصراف إلى إنقاذ آلاف الجرحى الذين تتعالى صرخاتهم في جنبات

المستشفى.. ولاقدرة ولاوقت لديهم لإجراء عملية يحافظون بها على مجرد إصبع.

استمع الفتى إليهم طويلاً.. ثم قال متوعداً: إذا لم تستطيعوا تجنب بتر إصبع هذا الرجل فسوف أقتلكم جميعاً.. قال ذلك ثم خرج مهرولاً يحوطه حراسه.

20 شباط 1991، بعد أربعة أيام من زيارة عدى جاء الحراس وأخذوني.. ذهبت معهم وعلامات الإعياء لازالت بادية على.. أمروني بارتداء حلة ابن الرئيس السوداء.. عرفت أننا سوف نذهب إلى البصرة من جديد.. وربما - لو سمح الموقف العسكري - نذهب إلى معسكرات الحرس الجمهوري في شمال الكويت.. على الطريق فرغت للدمار الواضح المعالم.. كان الركب يسير في تمهل حذر.. ليلة بطولها ونهار كامل كنا نرحف بسياراتنا على طريق جانبي لنتفادى الغارات.. إلتقينا فيه بفرق كثيرة أجبرت على ترك مراكزها، تتراجع مرتبكة إلى مراكز أخرى.. وصلنا إلى مشارف البصرة وقرص الشمس يميل ليختفى وراء الأفق.. راديو السيارة يث الأنباء.. وزير الخارجية طارق عزيز عاد من موسكو إلى بغداد وصرح أن العراق مستعد للانسحاب من الكويت.. لأول مرة أسمع لغة النظام المنكسرة.. ملامح الهزيمة تبدو في الأفق.. الراديو يث خبراً آخر أشد إيلاًماً.. طلب الأمريكيون باستسلام العراق دون شروط.. كان إلى جوارى في السيارة مصور.. قال معلقاً: نحن العرب يعز علينا أن نرضخ للوعيد.. الموت أحب إلينا.

وكان الرجل كان يقصد الرئيس.. نعرف أن صدام عنيد ومكابر.. لن يقبل بسهولة أن يتنازل عن صلفه.. لايريد أن ينحني للعاصفة.. من المؤكد الآن أن الهجوم الأرضي قادم لامحالة.. الطائرات المغيرة دأبت في الأيام الأخيرة على إغراق مواقعنا بالمنشورات.. تدعو أنجنود في وضوح إلى

الاستسلام.. كانوا يحرضونهم على رفض الحرب والخضوع للمنطق.. قالوا لهم لا أمل ولا مخرج إلا برفع الرايات البيضاء.. وقالوا إن آفاقاً من رفاقهم استسلموا في مواقع كثيرة.. وصلنا إلى مركز صغير يكمن عند هضبة قرب صفوان.. قضينا هناك أكثر من ساعتين.. لم نتمكن من تصوير لقائنا بجنود المركز على الفيديو.. اكتفينا بالصور الفوتغرافية.. الغارات لم تتوقف طوال مدة بقائنا.. قال لنا الرجال إن الأمريكيين يقصفون المنطقة بواسطة قاذفات «B- 52» على الدوام بعد أن رصدت وسائلهم منصات لإطلاق صواريخ سكود.. رصدوها وهي تطلق صواريخاً تجاه شرق السعودية.. لم ننجح في الوصول إلى غايتنا.. الطريق إلى معسكرات الحرس الجمهوري محفوف بالمخاطر.. أخذنا طريق العودة إلى بغداد.. آلام مبرحة تحوطني.. النار تسرى في ذراعي المصاب.. أغالب النعاس فيغلبني.. لا أحس بهزات السيارة ولا صوت الانفجارات البعيدة.. بعد ساعتين من وصولنا بثت الصور التي صورها مرافقونا.. بثت أولاً صورة لى مع الجنود.. قال المذيع إنى ألقى كلمة تشجيع على الجنود.. تحاشوا بث صور واضحة المعالم.. لم تظهر ضمادتي إلا في لقطة واحدة وبشكل خاطف.. أخذنى العجب.. لم يظهروا الحدث بشكل كافٍ.. خاطرنا بحياتنا من أجل لقطات قليلة.. شغلت بالكاد بضع ثوان على الشاشة.. قلت ذلك لحارسي الجالس إلى جوار فراشى في المستشفى الذي أعادوني إليه.. قال في الغد سوف تعرف وابتسم.. مع إشراقة الصباح جاء ومعه حزمة جرائدنا.. جاء ومعه نصف جواب أمس.. تطلعت إليها.. مسرحية جديدة.. قلت ذلك ساخراً.. وابتسم هو موافقاً.. لم أحاول أن أخفى ما بداخلي.. لقد تألفت والرجل فلم نعد بحاجة إلى مداراة مايمور بين جنباتنا.. أوضح لى الأمر أكثر.. قال لى إنهم في الوقت الذي ذهبنا فيه نحن إلى الجنوب كانوا هم يصورون عدى في الاستديو.. صوروه ونزاعه اليمنى مضمداً.. والرأس أيضاً.. نسجوا رواية حول إصابة الفتى

على يد الثوار ليصنعوا منه بطلاً.. أخذت الصحف تلوك القصة لتعوض غياب التلفاز.. لم يعد الإعلام يعول كثيراً على البث عبره بعد أن كثر انقطاع التيار عن منازل بغداد.

24 شباط 1991، في الرابعة صباحاً انطلق الجحيم.. عوت دبابات الحلفاء وهي تأخذ طريقها إلى حيث تتخندق فرقنا.. وبدأ الهول الكبير.. ازدحمت غرفتي بالأطباء والمرضى.. تحلقنا المذياع الصغير نفتش عن الأخبار.. لم يعد أحد ينظر إلى شاشة التلفاز الذي تركناه يدور.. لم يعد أحد ممن زحموا الغرفة يولي انتباهاً لصورة صدام ولا لكلماته الباكية وهو يصرخ عبر الجهاز: بوش الأثيم وأتباعه بدأوا هذا الصباح بالهجوم الأرضي.. واجموا بلدنا وشعبنا على كل الحدود.. العار لهم.. سوف يعرفون أن الشعب العراقي البطل أقوى منهم.. وظل يصرخ فينا: قاتل يا شعب العراق الشجاع، يا أبناء أمهات كل المجازر قاتلوا لحماية نساءكم وأطفالكم، هذا يوم مجدكم.. نحن الآن بحاجة لمعرفة مايدور.. الإذاعات كلها خصصت معظم ساعات إرسائنا لمتابعة يوم الهول.. استسلم في اليوم الأول للحرب أكثر من عشرين ألفاً دون أن يطلقوا طلقة واحدة.. وآلاف آخرين داستهم الدبابات والمجنزرات.. تهاوت حصوننا متلاحقة.. واختلط الحابل بالنابل.. وسائل إعلامنا لا تذيع إلا خطب صدام ونداءاته التي تستجدي الصمود.. بغداد وحدها توقفت الطائرات عن قصفها.. فقط تمرق في الأفق القريب في عروض جهنمية لبث الرعب دون أن تسقط القنابل.. لازال صوت صدام يصرخ: السلاح الذي صنعوه ليقاتلونا به سيرفع من أيديهم، ثم يبدأ القتال بين أهل الإيمان وأهل الكفر، قاتلوهم؛ لا ترجموهم، لا تأخذكم بهم شفقة، سوف ينصركم الله ويشد أزر المؤمنين.. يغشانا الصمت وتلفنا الكآبة.. صوت الموسيقى العسكرية والأغاني الوطنية التي تتخلل الإرسال تصيبنا بالتحاسة.. تجسد لنا مأساة النظام

الذى خارت قواه ويوشك على الانهيار.. الضربات أقوى وأشمل.. تفوق طااقته وقدرته.. يستسلم أو ينتحر.. السكين تزحف إلى الرقبة.. والعنبر لا يرحم.. وكان لامنجة له إلا برفع الرايات البيضاء.. أربعة أيام كانت كافية.

3 آذار 1991، في صفوان تبدأ المحادثات لوقف إطلاق النار، أرسل صدام سلطان هاشم أحمد نائب وزير الدفاع وصلاح عبود محمود قائد الفيلق الثالث ليشاركوا في المحادثات.. هموم النظام الخائر تتزايد بعد أن هدأت نار الحرب.. كان عليه أن يعيد ترتيب أوضاعه في بغداد، وأن يواجه القلاقل الآتية.. شوكتة التي انكسرت فجرت الحمم التي تمور تحت السطح.. الجيش الذى تشتتت فرقته في الجنوب سادته صور التمرد على النظام.. أخذ الجنود والضباط الحانقون يمزقون صور صدام في جراحة.. ينزعونها من على جدر البصرة ويدوسونها بالأقدام.. تدافع الجنود في طرقات المدينة يفتشون عن مراكز الحزب وأعضائه.. يلاحقون رجال جهاز الأمن الخاص ويذبحونهم علانية على قوارع الطرق.. تقتحم سجون البصرة ويطلق السجناء.. ملامح الثورة على النظام تتشكل في الجنوب.. أوجاع النظام تتزايد مع إشراقة كل يوم جديد.. المعارضة التي يقودها في الجنوب التجمع الإسلامى الثورى الأعلى تخرج إلى العلن وتشارك في مطاردة رجال النظام.. وفي الشمال أيضاً .. الأكراد يقوى ساعدتهم بعد الهزيمة التي مزقت هيبة النظام.. ينشط رجال البشمركا للسيطرة على كردستان.. أرخت الحرب قبضة النظام.. تبيست أصابعه ولم تعد قادرة على الإمساك بخيوط اللعبة.. فقد سيطرته على الأطراف ولم يعد له غير المركز.. لم يعد يملك إلا فرق الحرس الجمهورى المعسكرة في بغداد.. بقيت وحدها تحت قبضة النظام وطوع أمره.

استنفر النظام البقية الباقية من رجاله لمواجهة خطر الحرب الأهلية

التي تدق أبواب العراق.. بعد أحداث كربلاء جمع صدام رجاله المقربين..
ولديه عدى وقصى، أصهاره حسين كامل حسن وصدام كامل حسن، وعلى
حسن المجيد الكيماوي، ومدير جهاز الأمن الخاص.. الرجال الستة وصدام
يؤلفون القيادة العليا لمواجهة الثوار.. يدرك النظام أن التصدع داخل
جسد الأمة أشد خطراً عليه من نار الحلفاء.. ووزعت المهام لمواجهة
الخطر.. قصى صدام حسين ويشار السبعائي أوكل إليهما مهمة قيادة
أجهزة الأمن الخاص، عدى عين رئيساً لاتحاد الصحفيين ليسيطر على
وسائل الإعلام.. وكان أول خطوة قام بها هي رفع رواتب الصحفيين
بنسبة 25٪.. وقدم لهم صكوك تملك أراض للبناء.. خاطبهم بوجد: هدفى
هو المحافظة على حرية الصحافة وحمايتها.. محاولته لمخاطبة ودهم لم
تمنعه من وخزهم بتهديداته المبطنة: عليكم بالانتباه والتدقيق.. تحذير
يعرفه كل من يعمل في مهنة الصحافة.. يعرفون أن كلمة واحدة ليست في
موضعها كافية لجز الرقبة.

حسين كامل حسن وصدام كامل حسن توليا قيادة الفرق التي لم
تدخل الحرب.. وأوكل أمر ثمانى فرق من الحرس الجمهورى لعلى حسن
المجيد.. قبض الثلاثة على مقاليد هذه الفرق وأعدوا الوسائل لمجابهة
الثوار.. الشيعة في الجنوب والاكرد في الشمال.. وبدأت ملامح المجابهة:
خرجت كل الصحف تنذر وتتوعد «من يعتقدون أنهم قادرون على زلزلة
الوحدة القومية العراقية.. القوات الحكومية والشعب سوف يسحقهم.. كل
الخونة سوف يعاقبون.. سنلاحقهم أينما كانوا..». لكن لم يعد الوعيد
مجدياً.. المشاكل تزحف وتدق حتى أسوار العاصمة.. تزحف الكتابات
المناوئة للحكم على جدران بغداد لتقول للطغاة نحن هنا.. قادرون على
الوصول إلى عقر داركم الحصينة.. المواجهة في البصرة وكربلاء
تتصاعد، وقوات الحرس الجمهورى توالى محاولاتها للبطش بالثوار

والمتمردين.. إعدامات متلاحقة للجنود والقادة.. يساق إلى سجون بغداد زعماء شيعة.. يضغطون على الرجال ليمارسوا تأثيرهم الديني على الثوار.. ويرفض الرجال أن يرضخوا لمطالب النظام فيلقوا ربههم شهداء.. صرخ أحدهم في رجال النظام: أقول لرجالي مزقوا صورة هذا الظالم، حطموا تماثيله، إبعدوا الكفرة عن المساجد.. لم يرحموا شيخوخة الرجل.. أوقفوه في العراء وسكبوا البنزين عليه ثم أشعلوا في جسده النار.

المعتقلين الآخرين أخضعوهم لتعذيب وحشى لكى ينطقوا بأسماء النشطاء.. أوقفوهم صفوفاً.. إستعرضهم قصى وهو يلوح أمام وجوههم بسوط العذاب.. يفرق وجه آخر من يقف فى الصف بمسحوق حارق.. عرضوهم لغاز الأعصاب.. شلوا قدرتهم على التنفس.. فقلوا عيون بعضهم وقصوا أذان وأنوف البعض الآخر.. بلا رحمة بتروا الأطراف.. امتلأت سجون الرضوانية والدجيل بالصرخات والتلويحات.

أول نيسان، ومخاوف النظام أخذة في التزايد دعانى قصى للمثول في حضرته، أخذنى في رفقته إلى الرضوانية.. هالنى ماتموج به الزنازين من بشر.. ثوار شيعة وأكراد.. حطام رجال حشروا في غرف ضيقة ومظلمة.. روائح كريهة تعبق المكان وتخنق الأنفاس.. اختلطت روائح البول والغائط برائحة اللحم المحروق.

جال قصى وأنا معه على بعض الزنازين.. كان التوتر بادياً على محياه.. خنقته الروائح النتنة التي تحيط بالمكان.. اتجه مسرعاً إلى مكتب مدير السجن.. دخلنا فوجدنا صدام كامل .. عانق قصى ثم اتجه ونحن معه إلى ساحة السجن.. الساحة خاوية.. لاشيء غير القبار.. جلس قصى وصدام على كرسيين أتى بهما الحراس.. أمر مدير السجن بإحضار مجموعة من النزلاء.. بعض من شيعة كربلاء الذين اتهموا بالتحريض على الثورة.. صدام يقبض بيمناه على مسدس ضخـم.. وفي اليسرى ملفات

الخونة.. جاؤوا بالرجال ليستجوبوا تحت لظى شمس الظهيرة الحارقة.
قُلْ إن صدام هو الأكبر - لأحد يلفظ بكلمة - أنتم جبناء.. أطلبوا
الرحمة أطلق سراحكم.. بعض من خارت قواهم طلبوا الرحمة كما أمر
الرجل فأعدمهم على الفور وهو يصرخ: الرئيس لا يحب الجبناء.

خمسة عشر رجلاً حصدتهم رصاصات الرجل الجالس في هدوء على
كرسيه وسط الساحة.. لأربع ساعات متواصلة كان علينا أن نراقب
ما يحدث.. نرى البشاعة مجسدة.. جثث القتلى تجر إلى الزنازين لتروع
الأحياء ولتدفعهم إلى طلب الرحمة.. طلب الرحمة من رجل لا يرحم..
ترتفع بشاعته مع ارتفاع حرارة الشمس .. يسعى لإرضاء سادته لينال
الرضا والتقدير.. عشرون ألف دينار مقابل كل رأس سوف يدفعها له على
حسن المجيد.. وسيارة مرسيدس من الرئيس وعمارات في بغداد.

منتصف نيسان 1991، تعرض صدام كامل الذي سمي لقسوته
بجزار بغداد لمحاولة اغتيال.. كان عائداً من منطقة الكراة التي أعدم
فيها مئات المعتقلين.. كمن له بعض الثوار وأطلقوا النار على موكبه.. لكن
عزائسه استطاعوا إفشال المحاولة.. طاربوا الثوار وقبضوا على ثلاثة
منهم.. ثلاثة تعساء وقترؤا في قبضة الرجل.. مارس عليهم كل أحقادهم..
أفرغ في أجسادهم كوامنه الحيوانية.. قتلهم بعد أن حولهم إلى خرق
بالية.. عرضهم لصعقات الكهرباء.

كم هو مجرم وطاغية هذا النظام.. كل رجاله آثمون ومتوحشون.. حتى
رئيس البغى يشارك في حفلات الدم.. أخنوني إلى واحدة منها.. وقفنا
عند أطلال قصر صدام الذي دمرته الغارات.. وقفت السيارات المرسيدس
متراصة.. ووقف صدام يتطلع إلى أنقاض قصره مهتاجاً.. نظر إلى
رجالته والحقن يغلى في صدره.. وكان التكريتي، شبيب التكريتي..
عبد حميد وصدام كامل.. وقصي.. تسربل الكل بالصمت.. لا يعرفون

كيف يحاولون دون سيدهم وبركان الغضب الذي اجتاحه وهو واقف عند الانقراض.. قبل أن يفوه بالكلمات عرفوا ماسوف يأمر به.. تلقفوا أمره قبل أن ينطق به ..ركضوا ليلبوا رغبته.. أحضروا له المساجين ليقرغ فيهم ثورته.. هروا لروكان إلى ساحة القصر، عاد يسوق أمامه ثلاثين من الثوار الأكراد.. أوقفوهم صفاً واحداً .. وانطلقت الرصاصات متتابعة من مسدس صدام.. تساقط الرجال تحت أقدامه.. نشط رجاله في إزاحة الجثث حتى لا تلوث حذاء المهيب.. الضباط الآخرون يقلبون الجثث علّ يبينها من فيه بقية أنفاس ليسكتوها بأحذيتهم الثقيلة.. ولم تروِ الدماء المسكوبة عطش القائد فأمر بإحضار ثلاثين آخرين.. أعاد معهم الكرة.. بعدها انفجرت أساريه وانطلقت ضحكاته من مقلها.. ضحكات مجنونة.. قال بعدها الرجل: هؤلاء الخونة .. يريدون الاستيلاء على السلطة.. عملاء إيران وأمريكا.

الكرامية تتعمق في داخلي.. كراهيتي لصدام ولنظامه.. وحتى نفسى كرهتها.. عطاياهم أصبح لها طعم العلقم.. عند أنقراض القصر التي لوثتها دماء الثوار وقفت ثانية في حضرة صدام .. جئت إليه ليكرمنى.. ليهدينى سيارة مرسيدس 500 زرقاء.. وصك قيمته مائتى ألف دينار تقديراً لبطولتى في الحرب!! أى حرب يارجل.. قلت ذلك لنفسى.. إنها ملهاة.. قمة من قمم المأسى.. نستحق جميعنا لأنوارنا فيها السحل وليس المكافأة.. كلنا مجرمون.. وجبناء.. يتصدرنا كبير النظام ورأس العصابة.. هل من مخرج؟!.. أفتش عن طاقة أमرق منها قبل أن أأحترق.. أأحترق في أتون النظام الذى لازال يسدر في غيّه.. لم يردعه الدرس.. ولم تردعه الغارات التى أودت بحياة الآلاف من أبناء شعبنا الطيب المسالم.. لم تردعه وعاد رجاله يمارسون غيهم ولهوهم غير مكترثين بما حل بشعبهم.. بل أضافوا إلى نشاطاتهم التجارية الأنشطة التى تخلفها الحروب بعد أن

يخفت نوى قنابلها.. أخذوا يتاجرون في كل شىء.. المواد الغذائية وحليب
الأطفال والنساء.. إنهم لا يستحون، يكسبون حتى من عذابات الجرحى..
والأم الأطفال.

18 حزيران 1991، اليوم يوافق يوم مولد عدى.. بلغ الفتى سبعة
وعشرين عاماً.. نظفت طرقات القصر وأزيلت آثار القصف.. عاد المكان
إلى كامل بهائه ورونقه.

احتشدت ساحة القصر والمسبح بالضيوف.. أكثر من ثلاثمائة صبية
وامرأة دعاهن الفتى ليشاركن في الاحتفال بيومه الكبير.. خليط من
الرجال.. تجار سيارات وسماسرة أراض.. وقوانين.. تحول المكان إلى
ماخور يموج بالبشر والخمر وأصناف المأكولات التي تتصاعد روائحها..
لكنها تتبدد في فراغ القصر حتى لاتعبر أسواره حيث تتعالى أنات
الجوعى.. جوعى بغداد المتعطشون إلى كسرة خبز وشربة ماء.. جوعى
الحصار الدولى.. وحصار العصابة أيضاً.. هياكل عظمية تدور في
الطرقات تبحث عن القوت الذى عز.. تدور بحثاً عن لقمة بينما يدور أغنياء
الحرب القوانين في ساحة القصر يعبون الخمر ويعانقون العاريات..
إنتبهت من خواطرى على صوته الفاجر.. قفز عدى إلى المنصة.. إنتزع
الميكروفون من قبضة عادل عكلة.. أخذ يقهقه بصوت بذىء.. زعق في
مجون عبره: هىء هىء هىء.. كل النساء تتعري.. أريد أن أراهن جميعاً
عاريات.. ضحكة هنا ونصف ضحكة هناك.. ونساء تسارع على الفور
لتلبى النداء.. وتتنمى في خجل أخريات.. وقف يراقب.. ثم عاد ليزعق من
جديد: قلت كل النساء.. التي تمتنع ستكون الليلة من نصيب حراسى..
وأخذ يضحك في مجون.. ذاب تردد الخجلات فسارعن إلى الانخراط في
القطيع العارى.. سارعن قبل أن تسارع أيدي الحراس لتشد حمالات
الثياب.. تعرين طواعية قبل أن يعرين عنوة.. وجاء دور الرجال.. عاد

الفتى ليأمر من جديد: الرجال أيضاً.. هيا أيها القوادون.. لا أريد أن أرى سروالاً يحيط بوسط أحكم.

واختلطت الأجساد.. إختلط العرق بالخمير ويلعب القبلات.. طفت خيوط القذارة على سطح الحمام ولطخت أوراق العشب على حوافه.. الموسيقى الصاخبة الماجنة وصوت عادل عكلة يعلوان ليزيدا الماجنين مجوناً.. وهدم المجون والتعب فالقوا بأجسادهم على العشب حتى أفاقنتهم شمس الظهيرة الحارقة.

ياله من داعر.. دعانى إلى مكتبه بعد أن استعاد وعيه.. قال إنى متهم بالتحرش بواحدة من فتياتى.. قال أنى ضبطت متلبسا وأنا أسعى لمغازلة بيداء مذيعة التلفاز.. ألجمتني المفاجأة.. أخذت أسترجع أحداث الليلة الصاخبة.. مصادفة جاءت وقفتى إلى جوارها، بدأتنى هى بالحديث، كانت تعرف أنى أعمل بديلاً لعدى.. طلبت أن أرافقها وبعض صديقاتها.. وأشارت إلى موضع عند حافة الحمام.. قالت ذلك وهى تضحك فى خلعة.. قلت لها لا ياسيديتى.. لا أريد مشاكل مع عدى.

عدى وقف ثم جلس.. ثم عاود الوقوف وهو يصرخ فى وجهى: لماذا تتحرش بصديقتى، لماذا تلاحقها؟.. أخذ يرجف وهو يصيح: أنت تكرهنى، وتتمرد على.. نسيت نفسك.. نسيت أنك طوع إرادتى.. يجب أن أعود لتأديبك حتى تعود إلى صوابك.. المسألة إذن ليست إلا شعوره الكامن الذى يؤكد له أننى لا أرغب فى الاستمرار فى خدمته.. واضح أنه دفع فتاته الماجنة لتحرش بى.. يفتش عن ذريعة ليعود إلى تأديبى.

الفتى أصبح يحس ماتموج به نفسى.. لم تعد ملامح الكراهية له ولنظام أبيه قادرة على التوارى داخلي.. ليس أمامه غير أن يطوعنى أو يقتلنى.. لازال بحاجة إلى خدماتى.

أخذنى الحراس من أمامه إلى غرف التعذيب.. إقتادونى إلى معسكر

الرضوانية خارج بغداد.. معتقل موحش وقاتل.. تضريره الشمس الحارقة
فتشوي أبدان الخمسة آلاف معتقل الذين ساقهم النظام إلى حُجره
الخانقة.. ليست حجر بالمعنى المألوف للكلمة.. مجرد حفر لاتصلح
للحيوانات فضلاً عن أبناء آدم.. وأوكل النظام أمر هذا المعتقل إلى
مجرمين ثلاثة.. أنقذهم صدام من حبل المشنقة.. عفا عنهم بعد أن أصدر
ضدهم أحكاماً بالإعدام.. وقبل أن تتراقص أجسادهم على أعواد
المشائق صدر العفو.. واستداروا لخدموا النظام.. يخدموه بكل تقان
فلازال الحبل معلق على العود لمن تسول له نفسه التناقص.

وكان الرجال عند حُسْن ظن سيدهم.. أحالوا المعسكر إلى واحة
للرعب.. برنامج يومي شديد الصرامة والقسوة.. تدق ساعة الاستيقاظ
عند الرابعة تماماً.. ونصطف في الخامسة للتمام.. دورة التعذيب تبدأ في
السادسة وينهيها الجلادون مع دقائق العاشرة.. الضرب بالكابل، الجلد
على الظهر.. تقطعت أنفاسي.. وأخذت أخور كثور مذبح.. الضربات تهد
قواي.. أجثو فتتغفر رأسي بالتراب الذي يفور بالسخونة.. يقبض
الحارس على أنفي.. تنقطع أنفاسي.. أجاهد لأتملص من قبضته.. لكنه
يزيد من الضغط على رقبتني.. أخضعوننا للعبة معذبة يسمونها (البوش
أب) من لاينجح في الاستمرار يفرسون الدبابيس تحت أظافره ثم يجعلونه
بواصل المحاولة.. مع دقائق العاشرة يتركونا لنلتقط أنفاسنا.. ساعة
واحدة ثم نعاد إلى مسلسل العذاب.. نأمر بالاستلقاء من جديد وبطوننا
تلاصق الحمى.. تلسعنا حرارته.. وتلسعنا الضربات التي تلاحق ظهورنا
العارية.. علينا أن نقاوم الإعياء حتى نهرب من تلويث أجسادنا الدامية
بالأوساخ.

لم أعد قادراً على الصمت.. جاهدت أن أخفي آلامي طويلاً لأظهر
قدرتي على الصمود في وجه ظلمهم وطفيانهم.. قدرتي على مقاومة

قدرتهم على تحطيمى.. دفعتهم رغبتى في المقاومة إلى زيادة جرعات العذاب.. ربطونى إلى طاحونة الهواء المعلقة إلى الجدار.. أخذت تنور بى وهم يلاحقوننى بالضربات.. أصابت إحداها أنفى فحطمته.. غبت عن الوعى.. سحبونى إلى الحفرة وتركونى ليومين.. أعود إلى الوعى ثم أعود ثانية إلى الإغماء.

جاورنى في الغرفة الضيقة تعس آخر.. صباح مرزة محمود.. أخبرنى أنه سبقنى إلى هنا منذ أشهر سبعة.. كان يبحث عن الكلمات.. صوته المتكسر يرتجف عند حافة الفم .. يحاول أن يبوح بماتمور به جنباته.. يقطع المسافة بين الشك واليقين في معاناة قاتلة.. يريد أن يبوح لي ويخاف منى.. يخاف أن أكون أداة من أدواتهم زرعوها في طريقه.. لأربعة أيام متواصلة ظل التردد يلزمه ثم تجرأ وبدأ يحكي لي حكايته.. إنسابت كلماته المحبوسة.. وتدفق شلال أحزانه مع الكلمات: لقد كنت زميل صباه.. جمعتنى وصدام ألفة الصبا.. شهدت سامراء على الود الذى ساد بيننا.. كان عمري ستة عشر عاماً وقت أن التقيته وتصادقنا.. لم نفرقنا الأيام.. أزرته في المحن.. وواكبت خطوره.. إنخرطت في الحزب رفيقاً حتى وصلت إلى قمة المسؤولية.. لازمته حتى أصبحت حارسه الأول.. وأتى مالم أتصوره أو يجول بخاطرى.. كنا في حفل من الحفلات التي تقام دائماً في نادى الصيد.. واحتشد المكان بقيادة الحزب ورجال الحكم.. ظهر على المسرح المغنى العراقى محمود أنور.. كان يغني أغنية يشيد فيها بصدام.. على الطاولة المجاورة للمسرح كان يجلس رئيس ديوان الجمهورية أحمد حسين.. أراد أن يعلن رضاه عن المغني فرمى إليه بحزمة دنانير.. لم يرقنى تصرفه.. قلت له غاضباً إن هذا عبث.. وتعبير فج.. تبادلنا كلمات جارحة.. توقف المطرب عن الغناء وصمتت الفرقة المصاحبة.. كفت عن العزف.. وجاء الابن الأكبر لأحمد حسين ليهاجمنى

دفاعاً عن أبيه.. بلغ الغضب مني مبلغاً صعباً علىّ عنده كيّت انفعالي..
أطلقت من مسدسي طلقات متتابعة في الهواء لأنذر الابن المهاجم..
في اليوم التالي ذهب الرجل إلى صدام شاكياً.. بعاني صدام
ليواجهني بالرجل.. كانت ملامحه غاضبة.. يدور في مكتبه كثور هائج..
طالبني بأن أعتذر لأحمد فعصيت أمره.. توقف عن الدوران.. حق في
ملاحني وهمهم غاضباً: سوف تذهب على التو إلى معسكر الرضوانية
للتأيب.. سوف تبقى هناك إلى أن تعتذر.

أيامنا في سامراء.. صداقتنا.. الرحلة الطويلة إلى جواره.. خادماً
ومؤازراً.. تبدد كل شيء طيب في لحظة غضب.. أخذني الزبانية على
الفور.. ألقوا بي في هذا المعسكر الموحش.. أذاقوني العذاب ألواناً.

أخذت أنظر إلى الرجل وكلماته المتدفقة كالسيل تفرج أساريه.. أرثى
له أم لنفسى.. وحدت بيننا الآلام المشتركة.. رافقته في زنازنتنا الصغيرة
واحداً وعشرين يوماً.. إلى أن أتى المجرمون.. دخلوا علينا.. أمسكوا
بالرجل وألقوه أرضاً.. حققه أحدهم بغلظة.. فأخذ يتلوى من الألم.. ظل
ينازع وهم يسحبونه على الأرض إلى خارج الزنازنة.. وتركوني وحيداً..
تكوّمت عند الحائط أفكر في آخر الكلمات التي نطق بها وهو يودعني:
لماذا تعمل مع هؤلاء المجرمين؟!.. أليس لديك شرف؟!.. سوف يفعلون بك
مافعلوه بي.. سوف يرمونك عندما ينتهون منك.. رأسى المحترق ضغطته
بين ركبتي.. قلت هامساً للرجل الذي غاب: وداعاً .



● وحيداً بقيت في الزنزانة.. ثلاثة أسابيع متعاقبة ألوك فيها عذاباتي.. يأتون ليمارسوا الوحشية في جسدي كل يوم.. يتركونني معلقاً بين الحياة والموت.. أزحف إلى الأركان علّ الحركة تخفف حرقه الألم.. وتُخافت من قرصات الجوع.. الجراح المتقيحة تدفعني إلى البكاء المكتوم.. أشتوق إلى شربة ماء تخفف قيظ الزنزانة ولسعات الكرايبج.

بدأ الخوف يتسلل إلى داخلي.. طويلاً قاومت ذلك الملعون، قاومته لأظلم متماسكاً.. مالكا لإرادتي.. خيط من أمل بقيت ممسكاً به.. كنت أمني النفس بانتهاء الكابوس.. لكن الشقة تتسع والالام تطفئ على إرادتي.. تقتل الأمل داخلي.. لم أعد أملك القدرة على المقاومة.. أضحيت مجرد خرقة بالية.. أسلمتهم نفسي بلا غضب أو كره.. تركتهم يعذبون جسدي دون أن أنبس أو أتأوه.. فقدت الإحساس بالألم.. كما فقدت القدرة على النوم.. تساوت كل الأشياء.. النوم واليقظة.. الألم والراحة.. صرت لاشيء.. مجرد خرقة لا أكثر.

لم أعد حتى قادراً على التفكير.. لقد فكرت طويلاً.. حتى نضب البئر الذي في رأسي.. كل الأفكار السوداء أدرتها في مخيلتي.. سوف يفعلون بك بالطيف ما فعلوه بمحمود.. سيحققونك لتتلوى ثم تموت.. لا سوف يعاملونك بقسوة أقل.. سيرمونك بالرصاص لثموت على الفور.. لن تحس بالألم والكلاب تنهش جثثك.

لا بالطيف عليك أن تتماسك.. قاوم.. يقدرّون على جسّدك نعم.. لكن

رأسك لك وحدك.. في لحظة صحو قلت لنفسى سوف أقاوم.. سأستعين
بالكراهية.. أتوكأ عليها لتحصلنى بعيداً عن عالمهم الموحش.. نكّر نفسك
بجرائمهم فانت لست وحدك.. الآلاف شربوا من كأس العصابة.. تجرعوا
المر وتقاوموا.. وأخذت في التذكر.. صنعت نضداً في رأسي.. ألقيت عليه
حزمة من الأوراق .. غمست الريشة في دواة دموعي وكتبت قائمة
بالأسماء.. الضحايا الذين تساقطوا في جب النظام المظلم:

على جعفر.. سمّم، محسن الصحاب.. سمّم، منعم حادى.. جُوع،
أحمد صالح.. ضرب حتى الموت، حامد الدليمى.. كسرت رجليه أولاً ثم
تركوه للكلاب، صالح السعيدى.. فقلّوا عينيه ثم ضربوه حتى الموت،
صبرى الحديثى.. صرع.. وقبل أن يسمح لأهله بأخذ الجثة أجبروا أخاه
على الرقص فوق جثة القتيل.

وقائمة الوزراء: ثلاثة من النين تولوا وزارة التجارة صرعتهم
الرضاصات، ووزيران للصناعة أيضاً، ثلاثة وزراء خارجية وثلاثة وزراء
دفاع.

تسعة وخمسون عضواً من العاملين فى الحكومة حصدتهم الرصاصات
المجنونة.. طاحونة النظام لا تتوقف عن الدوران.. تبتلع الرجال مع كل
دورة.. تطحن أجسادهم بالرحمة.

حتى حرب الخليج لم تكسر شوكة النظام.. ازدادت شراسته، قتل
الآلاف بعدها.. جرّت سكينه رقابهم.

عملاء الرئيس جاثوا فساداً في المناطق التي خص بها النظام أعضاء
الحزب والحكومة.

- وفي ناحية الكبيسة مثلاً.. وقع رجال تفانوا في خدمة النظام..

وكانت المكافأة القتل بلا رحمة:

خالد عبد عثمان الكبيسي.. وزير سابق.

رحيم السطار سليمان الكبيسي.. عضو في الحكومة.

عبد الحنان الكبيسي.. ضابط.

– وفي ناحية حديثة مجزرة مائة:

كردي سعيد عبد الباقي الحديثي.. عضو حزبي.. شقيق.

عبد العزيز الحديثي.. قائد في الجيش.. أعدم رمياً بالرصاص.

شوكت داكوم الحديثي.. عضو في الحكومة.. أعدم رمياً بالرصاص.

مرتضى سعيد عبد الباقي الحديثي.. وزير سابق.

محمد صبري.. نائب وزير.

نيسان الحديثي.. ضابط.

كاجي الحديثي.. طيار.

كلهم كُوموا في مقبرة جماعية في وسط الناحية.

وتوقف القلم.. أصابته هو الآخر دفقة من ألم.

لماذا استسلم كل هؤلاء؟!.. تركوا النظام يذبّحهم مثل البقر.. هل خوت
البلد من جسور يملك القدرة على قولة لا.. أو يشرع سلاحه ليقتل رأس
الأفعى.. طرحت على نفسي السؤال وأنا أعرف الجواب.. أعرف أن
العصابة متشابكة.. والخيوط معقدة.. والرجل داهية وماكر.. يزرع الحب
ويجأزه بالكراهية.. يطّوع الرجال كما تطّوع الخيل والكلاب.

وأنا أيضاً.. ألسنت أكره عدى.. أمقت كل يوم أمضيته إلى جواره..
أعرف أنه عندما يأخذ مكان أبيه سوف يكون أكثر بطشاً وجوراً.. أتيت

لى فرص كثيرة لأفرغ فى صدره رصاصاتي لو كنت أردت.. صحبته مرات ومرات.. شاهدته وهو يضرب نساءه.. رافقته وهو يجرب السيارات الجديدة.. ضغطة واحدة على الزناد كانت كافية.. لكنى لم أفعل.. لاحق لي إذن في لوم الآخرين.. كلنا جبناء.. موزعون بين الخوف والرغبة في الركون إلى دفء النظام.. نحبه ونكرهه بنفس القدر.. نثور في فلكه.. تحولنا إلى دمي تحركها أصابعه اللاهية.

سحابات الخوف الرمادية حومت طويلاً في سماء العراق.. البيوت والناس والحجارة.. الكل يشارك في اللعبة.. البعض بإرادته والبعض الآخر طلباً للنجاة.. تصرخ الحناجر بالهتاف للنظام لتخرس الأصوات التى تغلي بالكراهية في تجاويف الأفئدة.

ينام الناس على أمل أن يأتئهم الصباح بمخلص طالت غيبته.. يحدقون في السماء علّ الطير الأبابل تأتي لتمطر العصابة بالحجارة.. ولما أتت أمطرتهم هم بالقنابل وتركت النظام.. أتاحت له القدرة من جديد ليصول ويجول بين الديار.. يحصد رؤوساً أينعت وحان قطافها.. زادت قبضته إحكاماً، وتسلم الفتى المدلل العصا الغليظة ليحمى ظهر أبيه.. تربيع قصى على رأس جهاز الأمن الخاص ليحوله إلى أداة أشد قهراً وطفياناً.. وكانت باكورة أعمال الجهاز في عهده الجديد قتل الملازم أول سلمان حرب التكريتي.. إتهموا الرجل بالتجسس لحساب المعارضة.. والحقيقة على غير ذلك.. فقط أراد قصى أن يقول أنا هنا.. يؤكد قدرة النظام الأمنى الجديد بعد أن أعاد ترتيبه.. كان الجهاز الأمنى في السابق مؤلفاً من أربعة أجهزة «جهاز الأمن الخاص، المخابرات، الاستخبارات العسكرية وجهاز الأمن العام».. بعد أن أطلقت يد قصى أخذ إلى الجهاز أفضل من عملوا في الأجهزة الأخرى، أغدق عليهم

الامتيازات ورفع رواتبهم.. وفضلاً عن ذلك خضعت كل الأنظمة الأمنية الأخرى لأوامر قصى.. الأنظمة المتصارعة أصبحت كلها تحت قبضته.

وأتى يومى الثالث والعشرون في المعسكر الموحش.. جاء الجلادون في الرابعة صباحاً ليأخذوني كالعادة.. لم يذهبوا بى هذه المرة إلى غرفة التعذيب.. لكن إلى غرفة أخرى.. قيدوني على مقعد نُبِت فى الأرض بإحكام.. لم أسأل ماذا ينوون أن يفعلوا بى.. تحاشيت النظر إليهم.. حدثت إلى الأرض.. فجأة وجه أحدهم الخطاب إلى: أتريد أن تعرف بماذا حققنا صباح مرزا محمود.. لم أتكلم.. فقط أومأت برأسي.. تعالت ضحكاته.. وجهه بشع وأسنانه نخرها السوس.. مشى إلىّ في تمهل.. ضغط على ساعدي يميناه.. وباليسرى أخرج قلماً من جيب سترته.. أخذ يجريه على ذراعي ذهاباً وإياباً كأنه يبحث عن عرق.. يفعل هذا وهو يواصل ضحكاته، ويتمتع بالكلمات عند أذنى: تاليوم.. كان تاليوم.. تعرف ماذا يكون التاليوم؟.

بدنى الذى ظل ساكناً ارتعش عند سماع كلمات الرجل.. نعم أعرف التاليوم.. بالبشاعة الرجل.. التاليوم مادة تسرى في الجسد.. تدمره خلية خلية.. يتساقط شعر الرأس شعرة وراء الأخرى.. تبدأ الأطراف في الارتجاف.. يفقد الجسم القدرة على السيطرة.. يختل ميزانه وتتوقف مراكز الإحساس.. يفقد المرء القدرة على الأكل.. يتحول إلى وحش ينهش نفسه.. يموت كل لحظة.. أعرف هذا السم القاتل.. لقد وضعوه في طعام بعض الضباط أثناء حرب الخليج الأولى ليتخلصوا منهم في هدوء.. ولما أصابهم المرض أنهم خدعتهم.. ولم ينسوا أن يكرمهم بدعوى أنهم أبطال تقانوا في خدمة النظام والشعب.

زاد الرجل من وخزاته المؤلة.. أحس بالقلم ينفرس في الجلد..

وتتفرس في ظهري أيضاً أنفاس الرجل اللاهثة.. ودمدماته تتسارع
بالكمة المجنونة.. تاليوم.. تاليوم.. يدور حولي كتور هائج.. يلفحني
بأنفاسه الكريهة.. لوأملك بقية من قدرة لبصقت في وجهه ورفسته بين
فخذه.. وقع أقدام أتية في الممر أنقذتني من أنفاسه.. قال له رفيقه أنهم
أتون.. إبتعد عني.. فُتِح الباب واسعاً.. دخل عزام ثم تبعه عدى.. ومن
خلفهما تتابع اثنا عشر حارساً.. كلهم كانوا يرتدون حلاً سوداء وتتخفى
عيونهم خلف نظارات الريان.

تقدم عدى نحوى.. أخذ يلوح بكرياجه.. سألني وهو يضحك في
فجاجة: كيف وجدت التأديب.. اكتفيت أم تحتاج إلى أسابيع أخرى.. نظر
إليّ في كره.. لوح بكرياجه أمام وجهي.. وضرب به الهواء.. أخذ يدور
حولى ويكرر السؤال: هل اكتفيت؟.. لا ينتظر جواباً.. يقولها متلاحقة..
يصرخ فجأة ويضربني على صدري: أجبني.

بماذا أجيبك أيها الشرير.. الجواب هاهو أمامك.. هيكل عظمي..
وشفاه متورمة.. وظهر تغطيه الجروح والقذارة.. انهارت قواى تحت وقع
الضربات.. رجوته في صوت واهن أن يرحمني: سيدى لم أعد أحتمل..
سيدى أنا فدائيك وسوف أكون دائماً.. أنت تسيطر على.. سوف أكون
رهن أمرك.. الله يحمى الرئيس.. وولده القوى ويحفظهما من كل سوء.

توسلاتى لم تجد إليه طريقاً.. أمر الحراس بمعاملتى معاملة القروء..
قال لهم: اخلقوا له مثل أولاد العبيد الأفارقة.. وكان يعنى بأولاد العبيد
الثوار الشيعة أتباع حزب الدعوة الإسلامى.. الثوار الذين تراجعوا إلى
المستنقعات وراء دجلة والفرات بعد الحرب.. ليعاوبوا شن الهجمات ضد
قوات صدام.. المواجهة معهم تزداد شراسة.. يحرق جنود النظام غابات
كاملة ويمسحون سطح المستنقعات بحثاً عن الثوار.. يأخذونهم لتحصدهم

الطلقات بلارحمة.. يؤخذون الشيوخ إلى حيث الإذلال.. يحرقون الشوارب
واللحي وشعر الرأس.

قبض الحارس على رأسى.. قص شعري وسوى نقني.. مرغني
بالصابون.. وسبني.. أخذ الباقون وعلى رأسهم عدى يدورون حولي وهم
يتراقصون ويضحكون في مجون.

تناول عدى شفرة الحلاقة من الحارس.. لامس بها رقبتى.. مررها على
وجهي إلى أن وصل إلى رأسى.. وأخذ ينزع الشعر كالمجنون من على
فروتها.. بعد أن فرغ من الرأس استدار إلى الحاجبين والنقن.. أخذ
يصفق وهو يتطلع إلى.. ويضحك في صخب.. قرد شيعى.. هاها.. هكذا
وصفني بعد أن أهان شرفي.. قلت يائساً: سيدى.. أرجوك أقتلني.. قتلها
بصوت واهن.

ألقى بالشفرة على أرض الزنزانة.. استدار دون أن ينطق.. غادرني..
وفك الحراس قيودي.. حملوني كخرقة بالية وقذفوا بي إلى الأرض
الحجرية.. شدونني إلى الخارج.. ألقوا بي في المقعد الخلفى لسيارتهم..
سارت السيارة بنا بعيداً عن المعسكر.. كانت تسير في الطريق إلى منطقة
الأعظمية.. مروا أمام بيتنا.. تمهلت السيارة في سيرها.. على بعد
خطوات من الباب دفعوا بي إلى الخارج.. ثم انطلقوا.. جسدي المنهك
ورأسى الذى أدمته شفرة الحلاقة ألمانى عندما ارتطمت بالأسفلت.. فقدت
الوعى.. ثم جاهدت لأستعيده.. زحفت على الأرض إلى أن وصلت إلى باب
بيتنا.. بقبضتي الواهنة أخذت أدق وأدق.. أجاهد ليسمع أحد دقاتي..
انخرطت في البكاء وأنا مهان ومحطم القوى.. امتزجت الدماء بالدموع..
وانفتح الباب.

وقفت أُمى تتطلع إلى المكوم أمامها.. تراجعت قليلاً.. لم تتعرف على..

تراجعت من الخوف.. ظننت أن الكم المكوم تحت قدميها أصلع الرأس
دامي الوجه ليس إلا متسول من متسولي بغداد الذين حفلت بهم طرقات
المدينة بعد الحرب..

مأماً.. نطقتها بصوت واهن.. لكنها سمعتها.. تطلعت ثانية إلى ولم
تقو على معانقتي.. أخذت في الصراخ ثم هرولت إلى الداخل.. جاعني
صوتها وهي تنادى اخوتي في هلع.. جاؤوا مسرعين.. حملوني إلى
الصالون.. انصرفت جلالة إلى أمي تواسيها.. تكفكف دموعها.. أتوا لها
بكوب ماء.. صرخ أخى الأصغر: نحتاج إلى طبيب.. لأمي واللطيف.. يجب
أن نأخذهما إلى المستشفى على الفور.. رفعت يدي قليلاً.. قلت بصوت
أقرب للهمس: لا.

قال: لماذا؟.. أجيبته: لاتسألني، ساعدني فقط..

قال: أستطيع أن أساعدك إذا كانت لدى الوسيلة.

أخذ يحاول أن يضمّد جراحي.. تطلع إلى ظهري وقال لافائدة.. يجب
أن آخذك إلى المستشفى.. لم أقو على المعارضة.. أخذوني إلى مستشفى
خاص وسجلوني تحت اسم مستعار.

بقيت رهين الفراش. كانت حالتي بالغة السوء. فقرات الظهر ليست في
موضعها الصحيح. الجروح المتقيحة المنتشرة على ظهري تجعل النوم
حلماً عزيز المنال. تتسلل أصابعي إلى الجلد لتحكه.. تدميه.. تحاول أن
توقف الآلام التي خلفها الماء القذر.. ليالٍ طويلة من المعاناة والآلم
والأوجاع المبرحة.. لولا الرعاية الفائقة التي بذلها أطباء
المستشفى لطالت إلى أكثر من ذلك.. حالتي أخذت في التحسن.

وطدت العزم على أن لا أعود إلى دنياهم.. أن أنفكت من عالمهم

القاتل.. لكن كيف.. على أن أتدبر أمري. أن أهرب من بغدادهم. لا بل من العراق كلها.. وطويت قراري في حناياها.. كتمته في صدري.. وأخذت أنسج تفاصيل خطتي.. على أن ألزم أشد جوانب الحيلة والحذر لأخرج من جحيمهم.

أخذني الأهل إلى دفء منزلنا بعد أن تعافيت.. أحاطوني بدفء عواطفهم ليمسحوا عن نفسي لوعتها وقسوة الأيام.. بعد أيام طُرق بابنا.. جاء رجال عدي.. عزام التكريتي وسلام العوسي وأحمد سيلمان.. قادوني إليه في سيارة خاصة.. قالوا: عدى ينتظرك في مقر اللجنة الأولمبية العراقية.. شد على يدي في حرارة واحتفاء.. بالغ في الاعتذار عن كل ماسببه لي من معاناة.. أخذ يتملى ملامحي.. خاطبني بود: لطيف.. صديقي العزيز.. لم تكن بعيداً عنا.. كنت أتبع أخبارك طيلة مدة رقادك رهن الفراش.. وكان يشغلني القلق عليك.. ولقد تمنيت أن تتعافى وتعبّر محنتك.. أصدفك القول.. طيلة سنواتك معنا لم نر منك سوى الخير.. لم تقصر في أداء واجبك.. رغم كل شيء سوف تكون صديقاً لي.. وسوف تجدني عوناً لك.. بابي مفتوح دائماً في وجهك.. كل ماتحتاجه سوف ألبيه لك.

تمهل.. عاود التحديق في وجهي.. وألقى جملته المفاجأة قال وهو يضغط على الكلمات: من هذه اللحظة أنت حر.. لقد «سرحتك» من خدمتي.. ومن كل عمل حكومي.. أعاد التأكيد: من هذه اللحظة أنت حر.. تقافزت الأفراح داخلي.. حر.. تنفست بعمق.. بذت على ملامح الارتياح.. وأضاف الماكر بعد أن ترك لي لحظات من النشوة: فقط عليك أن توقع هذا التعهد.

رياح الحرية التي تحوم حول رأسي.. نسماها الندية التي تلامس

وجهي تنساب داخلي.. بلا وعي صافحت نظراتي سطور الورقة التي امتدت بها يد عدي.. قرأت متعجلاً سطورها.. سطور عتقي من نارهم:
«أقر أنا الفدائي لطيف يحي أن أمتنع عن الافصاح عن أي سر أو معلومة أو أي واجب قمت به وأنا في خدمة الأستاذ عدي صدام حسين.. وأن لا أبوح أيضاً بأيّة معلومات عن أي منطقة من المناطق الأمنية التي زرتها أو تدريب فيها أثناء خدمتي.. وأن أحرص على عدم الكشف عن أي اسم من أسماء منتسبي المخابرات أو جهاز الأمن الخاص.. وكذلك أي شخص تعاملت معه أثناء مدة خدمتي لدى الأستاذ عدي.. وأي مخالفة مني لهذا التعهد تجعلني عرضة لعقاب يصل إلى درجة الإعدام».

رغم هول العقاب الذي لوح به التعهد وقعت.. لم أتردد.. بوابة الحرية الواسعة تنتظرني.. لم أحفل بورقتهم.

أخذ التعهد مني.. دقق في الامضاء.. علت الراحة ملامحه.. قال متمهلاً: نحن نقدر جهود من يخدموننا بإخلاص.. وأفصح عن المكافأة:

- مكتب للاستيراد والتصدير في شارع فلسطين.

- مزرعة صغيرة يتوسطها بيت مجهز.

- سيارة سوبر يابانية.

- 300 ألف دينار.

- بطاقتان باسمه يتيحان لي التمتع بجناحين.. واحد في فندق بابل وأوبروى والآخر في فندق الرشيد.. تنازل عنهما لي.

زاحمت فرحتي بالهدايا فرحتي بالحرية.. أن لي أن أنعم بحياة رغدة.. أن أرفل في حلل السرور.. جاهدت لأتمالك نفسي. سلمته المفاتيح

التي أحوزها.. مفاتيح شقتي مجمع القادسية وعمارة الحياة.. تعانقنا.. وهممت بالرحيل.

قال قبل أن نفترق أود أن أقول لك شيئاً.. لطيف صديقي.. عندما تراني أدخل فندق ميليا منصور أو الرشيد أو أي مكان آخر عليك أن تغادر على الفور.. لا تنتظر أن ينبهك أحد إلى ذلك.. وأضاف: من الغد سوف أبعث إليك بائتين من حراس اللجنة الأولمبية.. حتى لا تتعرض لمشاكل.. أعرف أن الهدف هو إخضاعني للمراقبة وليس للحماية.. لم أحفل.. قلت في داخلي: سوف أتدبر أمري.. المهم أنني أصبحت طليقاً.

غادرت إلى منزلنا.. جلست وحيداً أمعن التفكير فيما اعتزمت.. أرسم الخطط للفرار.. الانفلات من القفص.. عند الساعات الأولى من صباح اليوم التالي جاء الحارسان.. تيمور محمد ومروان هاشم.. قدتهما إلى الداخل وكنت قد أعدت نفسي للقاء.. واستقر داخلي ماسوف أتبعه من سلوك في أيامي القادمة.. قالاً إنهما يضعان نفسيهما تحت أمري.. قلت: وأنا بحاجة إلى المعاونة.. وشرحت ما أرمي إليه.. سوف ترافقاني بعد قليل إلى النهضة.. أود أن أعرض سيارتين للبيع واحتاج للمعاونة.. لم يظهرها ممانعة.. تحركنا أولاً إلى القصر لنأتي بالمرسيدس التي أهداني إياها صدام، ثم ذهبنا إلى مقر اللجنة الأولمبية لنأخذ السيارة المهداة من عدي.. وذهبنا إلى النهضة.. قدت أنا سيارة أخي.. وقادا هما الأخرتين.. توقفنا عند واحد من المعارض المنتشرة هناك.. دلفت إلي الداخل وحادثت صاحب المعرض.. أفصحت له عن غرضي.. وخرج الرجل للمعاينة.. شددت واحدة من السيارات التي تزحم الصالة انتباهي.. كاديلاك سوداء فارغة.. عندما عاد الرجل حادثته بشأنها.. قلت أود شرائها.. قال مفاخراً: إنها سيارة الرئيس البكر..

أتاني بها ابنه هيثم.. لم أجادله كثيراً حول السعر الذي حددته للسيارة.. قلت له: بعد ساعة واحدة سوف أعود إليك ومعني المبلغ.. ولم يطل انتظار الرجل.. دخلت عليه ثانية ونقدته ما اتفقنا عليه.. 80 ألف دينار.. حررنا العقد.. وتركت له سيارتي ليعرضهما للبيع.

تركت السيارة الصغيرة لواحد من الحراس ليقودها.. وجلست أنا إلى مقود الكاديلاك.. كانت فخمة وواسعة.. يفصل حاجز زجاجي بين مقعد القيادة والجزء الخلفي.. في الخلف جلس الحارس الآخر مسترخياً.. ربما راودته في جلسته الأحلام.. تخيل أنه الرئيس البكر.. تسالت إلى ثغري ابتسامة واسعة.. قدت السيارة مسرعاً إلى المنزل.. دلفت إلى الداخل في استعجال.. نشطت أجمع أغراضي.. قلت للأهل: ذاهب أنا على التو.. سوف أذهب إلى مرزعتي في الراشدية.. كنت فظاً في مخاطبتهم.. اتسم سلوكي تجاههم بالخشونة.. خشونة لم يعهدونها في.. لم أتعمد ذلك.. لكن لاحيلة لي.. ذلك الساكن داخلي طبعني بسلوكه الخشن.. أمات داخلي لطيفهم الذي كنت.. وخلف صورته وسلوكه الشائن.. جعلني قرينه العدواني.. صرت عدياً آخراً.

أمرت تيمور أن يأخذ الأغراض إلى السيارة.. غادرت دون وداع لأنق.. قلت والعجلة بادية على: سوف أمر لأراكم بين حين وآخر.. سوف أفعل كلما سنحت الفرصة.. ودعوني بصمت مجلل بالحزن.. ودعوا لطيفهم الذي طالما انتظروا عودته.. وهامهم يفقدونه من جديد.

ومع الحارسين كنت خشناً أيضاً.. تعمدت ذلك.. لقد قررت أن أكون هكذا.. فظاً وقاسياً.. أعرف أنهما يسجلان على سلوكي.. حركاتي وسكناتي.. هكذا دربوا وهذه مهمتهم التي أتيا من أجلها.. أتيا ليكونا عيناً لعدى.. بعثهم لمراقبتي وليس لحراستي.. أعرف ألعبيته.. وهأنذا

اللاعب بدوري.. سوف يصله عبرهما أن لطيف الذي يعرفه ولي.. وأن لطيفاً آخر في طور التخلق.. لطيف على شاكلة عدى.. عابث وماجن.. لاهم له إلا تجرع كأس الحياة حتى ثمالتها.. قدرت أن سبيلي إلى الانعتاق يحتاج إلى قدر من الحيلة ومكر الثعالب.

وكان على أن أتمادى في مسلكي الجديد.. أقضي الليالي معربداً.. أدلف مع مطلع كل ليلة عبر بوابة فندق جديد.. ولكل ليلة فتاة جديدة أصبحها في نهايتها إلى فراشي.. وامتدت شبكي إلى سنين كثيرات.. ومنهن من كانت على علاقة بعدي في وقت ما.

وهكذا مرت أشهر متعاقبة وأنا أنور في هذه الساقية المجنونة.. لاهم لي إلا الفسق والحياة الداعرة.

وازداد مسلكي خشونة.. في المرات القليلة التي قادتني قدامى إلى بيتنا لم أحرص على كبح جماح خشونتي.. كم من مرة دفعت بمسلكي الشائن أمني الحبيبة إلى بكاء حارق.. كنت أمزق بحالي فؤادها.. وأبي ذلك الحكيم المسربل بالصمت.. انصرف عني.. جاهد كي لا تفصح ملامحه عن ألم يعصف به.

عودتي إلى المجتمع البغدادي لم تفاجئ معارفي.. لقد تعود ناس العراق على مثل هذا النوع من المسرحيات.. لم تزل عليهم مسرحية إعدامي التي بثها تلفاز النظام.

الخطر لازال يحيط بي.. خرجت وبصحبتني واحدة من الفتيات آخر الليل نتطوح من السكر.. صعدنا وبرزفتنا الحارسان إلى السيارة.. لم نتحرك إلا أمتار بعيداً عن بوابة فندق بابل.. فاجأتنا طلقة قطعت سكون الليل.. استقرت في مقدمة السيارة ونجونا نحن.. جاءت الطلقة من سيارة بلا أرقام مرقت مسرعة إلى جوارنا.. أطلق راكبها نار

كلاشينكوفه يقصدنا لكنه أخطأ التصويب.. أو ربما لم يرد أن يدققه
عامداً.. توقفنا.. أحاطتنا سيارات جهاز الأمن الخاص التي كانت تزحم
المكان.. تعرف على رجال الجهاز.. أنوا لي التحية العسكرية.

للمت أعضائي المبعثرة من أثر الخمر والمباغثة.. أطلقت أوامري
للحارسين.. قلت لواحد منهما: عليك أن تذهب بالسيارة إلى الكراج..
وأمرت الآخر بأن يصحب الفتاة إلى داخل الفندق.. ووقفت أحادث رجال
جهاز الأمن الخاص.. رجوتهم أن لا يحفلوا بالامر.. وأن يتصرفوا وكأن
شيئاً ما لم يحدث.. وعدت ثانية إلى جناحي.. أطلقت الماء على جسدي
ثم تسلت إلى الفراش طلباً للراحة.. أي راحة؟!.. دق الهاتف دقات
متابعة وكان الملعون على الطرف الآخر.. جاعني صوته وهو يتصنع
الهلل لما تعرضت له.. قال: حمداً لله على سلامتك.. سوف أرسل نمير
وسانقي الخاص ليصحبك.. سوف أنتظرك في الرشيد.

عدى من جديد.. يا أطفاف الله.. لماذا لا يتركني ذلك الأفاق.. لماذا
لماذا!!!.. جلست على حافة الفراش تدور السؤالات برأسي.. وجاء نمير
والسائق.. تركت الفتاة ممدة في الفراش.. أمرتها بالنوم وذهبت
بصحبتهما إليه.. دلفنا إلى الفندق.. وخطونا إلى القاعة الواسعة..
قاعة ألف ليلة وليلة.. أجمل قاعات الرشيد.

كان كما أعتدته.. يعايب فتياته ويتطوح بفعل الخمر.. سارع إلى..
عانقني.. قال باسمأ: مرة أخرى حمداً لله على سلامتك.. أنت ذئب
ولاخوف عليك.. نعية أطفال كهذه لا تخيفك.. مرت عليك عشرات منها..
تعال ومتع نفسك.

لم أكن ذلك اللطيف الذي عهده في السابق.. لم أقبع في ركن أرقب
الجمع الصاخب كما اعتادني.. أفصحت عن رغبتني في الرقص.. قال

معلقاً: تغيرت يا صاحبي.. قلت ضاحكاً: من يعاشر القوم.. ولم أكمل الجملة الشائعة.. أخذت فتاتان إلى وسط القاعة.. خاطبت الفرقة التي تعزف.. قلت بصوت زاعق: أريد أغنية خاصة تمجد السيد الرئيس.. جاء عدى وراقصني.. دفعته النشوة لسلكي إلى إطلاق نار مسدسه كالعادة إلى سقف القاعة.. وفعلت أنا ذلك أيضاً.. حسن يا لطيف.. تجري خطتك في مسارها الصحيح.. قلت هذا لنفسى.. وأضفت: عليك أن تتماذى في خداع ذلك العدى حتى يركن إليك ويأمن جانبك.. عليه أن يصدق أنك تحولت.. أصبحت مجرد صعلوك يحرص على المتعة.. ولاخوف منه على الأسرار التي يحوزها بين جوانحه.

قلت: عدى صديقي.. لقد هدني التعب. اسمح لي أن أعود إلى فراشي.. ودعته وعدت إلى الفندق.. استسلمت للنوم حتى عصر اليوم التالي.

عزمت على الإسراع في خططي.. يجب أن أجمع الدولارات استعداداً للرحيل.. نشطت في شراء آلاف منها من السوق السوداء.. خبأت نقودي في مكان أمين في بيت المزرعة.. طلبت من حارسى أن يعرض الكاديلاك للبيع وأن يأتيا لي بثمن السيارتين السابقتين.. واشتريت لاستخدامي سيارة أولدن موبييل أمريكية. وحافظت على مسلكي الجديد.. السهر والعريضة في كل ليلة.

أدريت قرص الهاتف لأحدثه.. قلت له بعد المجاملة: عدى صديقي.. لقد مللت الحراسة.. أرجو أن تعفيني منها.. أريد أن أكون وحيداً.. قلت له ذلك ضاحكاً.. وكنت أراوغه.. دعاني إلى المكتب رقم سبعة.. ذهبت إليه تسامرنا في ألفة.. قال مستجيباً لرغبتى: مادمت لا ترغب في الحراس ليكن لك هذا.. ودفع إلى جهاز لاسلكي.. قال: عندما

تحتاج إلى شيء حادثني عبره.. اجعله يوماً معك بدلاً عن الحراس..
شكرته وتعمانقنا.

ماذا على أن أفعل.. الأيام تتسارع.. والخطّة اكتملت ملامحها في
رأسي.. نقودي لا بد وأن أودعها إلى من أركن إلى جانبه.. قانني
التفكير إلى صديق طفولتي.. حائثته على مهمل.. أودعت ما أملك عنده..
قلت: احفظ لي نقودي عندك.. عندما احتاجها سوف أرسل لك من يائيني
بها.. سوف يأتيك وبرفته خطاب مهور بتوقيعي.. رجوته أن يسلمها
له على الفور.. وتعاهدنا على ذلك.. وعدت إلى السهر من جديد.. وكان
صديقي يوماً في رفقتي.. وحدثته بحكايتي.. رويت له ماجرى لي.. أزعجت
عن كاهلي بعضاً من همومي وألقيتها عليه.. وأفصحت له أيضاً عن
رغبتي في الفرار.

أصابه الهلع.. تمهل قليلاً.. حرص أن يرتب كلماته.. قال إن في
الأمرمخاطرة كبيرة.. قلت: لقد وطئت العزم على ذلك.. وأضفت: على أن
أحاول.. وحاولت أن أقطع الطريق على معارضته: هذه فرصة قد
لا تتكرر.. النظام يعاني من هزة قوية تعصف بأركانه.. يفكر فيما هو
أكبر من لطيف.. وأفصحت عن الموعد: استقر قراري على الفرار «ليلة
رأس السنة».. قدرت أنها أنسب توقيت.. سوف يفرق أركان النظام في
اللهو والعريضة.. وسوف تتراخي القبضة على مفارق الطرق.

قلت: صديقي لا وقت للمراجعة.. أطلب منك العون.. رجوته أن
يكون أميناً على حكايتي وأن ينقلها قدر استطاعته لتلقفها الشفاء بعد
أن أنجح في المغادرة.. وخرجت ذات مساء أتجول.. كنت أقطع الطريق
على مهل في منطقة المنصور.. ووجدته في مواجهتي.. عادل الجنابي..
الصديق الجديد لعدى.. قواد مشهور أتخم في الآونة الأخيرة ملاهي
بغداد بفتيات من الريف.. صنف جديد استهوى عدى.

قال الرجل مستفسراً: شاهدت سيارتك الكاديلاك في المعرض.. لكنك

بالفت في السعر المطلوب.. وأفصح لي عن رغبته في الشراء.. عرض
سعراً أقل مما هو مطلوب.. قلت له لا أرغب في البيع وانصرف.
قادتني قدمي في الليلة التالية إلى قاعة ألف ليلة وليلة.. جلست
لتناول وجبة العشاء.. دخل عدى وحوله للزمرة.. النساء والأصدقاء..
ومنهم عادل الجنابي.

هممت بالرحيل.. تذكرت ما أمر به عندما أعتقني.. قال: لطيفاً إلى
أين؟! ذهبت وصافحته.. قلت: لقد أمرت أنت بهذا.. وذكرته بما قال..
ضحك بصوت عالٍ.. قال: يعجبني أنك لا تنسى وتحترم تعهداتك..
لا تذهب.. تعال شاركننا بعد أن تكمل وجبتك.. أطعته.. وحفلت الليلة
بالمجون وشاركتهم فيه.. قبل أن أغادر دعاني إلى حفلة سوف يقيمها
في المساء التالي في رحاب فندق ميليا منصور.. قال إنه يقيمها
بمناسبة أن الوالد منحه أنواط الشجاعة تقديراً لجهوده في الكويت
وجهوده في التصدي للأكراد.

الآلام تتقاذف في رأسي من جديد.. قست السيارة على مهل.. أي
شجاعة أيها المفتون.. لقد تعرضت أنا للموت هناك.. بينما أنت سابر
في غيك ولهوك.. لكن لا حيلة لي.. لا بد وأن أذهب.. أن أرسم على وجهي
علامات السرور والبهجة.. أن أجيد أداء الدور الجديد الذي اخترته
طريقاً للإفلات من عالمهم.

1991 / 12 / 9

ذهبت في الموعد تماماً.. تعالت دقات الساعة.. التاسعة تماماً.. وأنا
أدلف إلى داخل فندق ميليا منصور.. أخذت التصعد إلى الطابق الأخير..

دلفت إلى قاعة الاحتفال.. أومأت بالتحية للمتعلقين حول الموائد.. وأخذت مكاني.. ناديت النادل وطلبت زجاجة ويسكي وثلج وسلطات.. وقبل أن أهنأ بشراب كأسني الأول.. دلف إلى القاعة.. طالعني.. كان متوقداً بغضب جامح.. تجاهلني.. فبقيت في مقعدي.. دارت الأفكار بي أخذت أفتش عن سبب لتغيره.. نصف ساعة طالت ولم أجد جواباً لحيرتي.. تحاملت على نفسي وقصصت «التواليات».. هناك وجدت واحداً من حراسه.. أحمد سليمان.. صافحني وقال هامساً: ماذا فعلت لطيف؟.. الأستاذ غاضب عليك!!.. أجبت: لأعرف.. بالأمس كنا نضحك ونمرح معاً.. وجاء هو.. وقف قبالي.. لم يتركني أكمل جملة.. صرخ في وجهي: لطيف ماذا قلت لعادل الجنابي.. حيثته بما جرى في المنصور.. قلت له إن الرجل طلب مني شراء سيارتي وأنا أبييت.. عاد للصراخ: أنت كاذب.. لقد قلت إنك لاتبيع سيارات لقوادي عدى.

ياله من فاجر ذلك الجنابي.. لقد نجح في إيغار صدر عدى.. كاد لي عنده.

وعاد عدى يصرخ من جديد.. أمرني أن أظل في موضعي حتى ينتهي الاحتفال.. قال: لاتتحرك.. سوف أتي لأخذك معي.. فهمت.. كانت النيران المستعرة في حديقته واضحة التأجج.. التفت إلى الحارس أحمد سليمان.. أمره أن ينتبه لامتثالي للأمر.

رياح الخوف أخذت تعصف بي.. تقافزت صور مجرمي ثورة الضبط «غالب» و«عبد الحسين» و«أبونية» في رأسي.. أحسست من جديد بضربات كرباجه الأسود.. لا بد وأن تخرج من هنا يا لطيف.. كيف؟!.. عليك أن تحتال للأمر.. كتمت عواطفني المهتاجة.. وجانبت أحمد أطراف الحديث.. أخذ أسامره قرابة الساعة حتى هدأت خواطره.. أدركت أن

الفرصة مواتية.. قلت: أحمد.. لماذا لا نشرب.. اذهب واحضر لنا ما يطفى ظمأنا يارجل.. غالب خوفه وضحك.. وذهب ليحضر كأسين لنا.. على عجلة ضغطت زر المصعد وألقيت بنفسي إلى جوفه.. حملني إلى الدور الأرضي.. هرولت إلى سيارتي.. أدت المحرك وقلت وداعاً بغداد.

انتبه بعض الحراس لصوت المحرك.. انطلقوا بسيارتهم ورائي.. أطلقت للسيارة العنان.. وظلوا يحاولون اللحاق بي.. نجحت في تضليلهم.. حاورت وداورت في شوارع بغداد الواسعة والضيقة حتى غابوا.. تنفست الصعداء وأخذت الطريق المؤدي إلى محافظة «نينوى».

ماذا أنت فاعل بالطيف.. كان عليّ أن أحشد أفكارتي.. لم يكن في حوزتي غير ثلاثة آلاف دينار ومسدسي الشخصي وجهاز اللاسلكي.. وبضع بطاقات بأسماء مستعارة.

أخذت دقات قلبي تتسارع.. حاولت أن أكون رابط الجأش.. لاحت أمامي نقطة عسكرية على الطريق.. أوقفت السيارة.. أنحنى الحارس يطلب بطاقتي.. أطلقت المصباح الداخلي.. تعرف على شكلي.. تقهقر إلى الوراء وأدى التحية العسكرية.. عدت لأتنفس الصعداء.. وانطلقت أنهب الطريق.. لم أتوقف إلا عند آخر نقطة عند مدخل نينوى.. وصلتها عند الخامسة صباحاً.. الحراس لا يدققون.. يكتبون بالتلويح علامة الموافقة على الاستمرار.

1991 / 12 / 10

الآن عليّ أن أختار إلى أي الأصدقاء أذهب.. استعرضت في رأسي من من الأصدقاء يمكن أن أركن إليه.. استقر تفكيري على أحدهم كنت

على ثقة من قدرته على كتمان أمري.. قصدت بيته.. طرقت الباب والجرس معاً طرقات متواصلة.. جاء مهرولاً.. وجدني أمامه.. عانقني بشوق.. تسالت رياح الطمأنينة إلى داخلي.. أخذت أنفص خوفي وهواجسي.. قلت له: أفتح كراج المنزل وتعال لنخفي السيارة.. أدخلناها وأحكامنا عليها الغطاء حتى لا يكتشف أحد أرقامها.. عدنا إلى المنزل.. تهاكت على أول كرسي.. غاب قليلاً وأتى لي بكوب شاي طلبته.. أخذ يتطلع إلى.. عاجلته بما يدور داخلي.. قلت له: أريد أن أرحل إلى كردستان.. ومنها إلى الخارج وأود المساعدة.. علامات القلق بدت على ملامحه.. قلت: لأريد أن أسبب لك حرجاً.. لو كنت خائفاً سوف أرحل على الفور.. أجاب بحسم: لانتهم سوف أدبر لك كل شيء.. التقود قادرة على فعل المستحيل.. أفصحت له عن ما أحوز.. قلت: لا أملك الآن سوى ثلاثة آلاف دينار ومسدسي.. قال: هذا يكفي لكي تصل إلى دهوك.. هناك سوف تكون في أمان.. لا حكومة هناك.. ليس سوى البشماركا.

في غبشة المساء أخذنا السيارة إلى غابات «الموصل».. تركناها بعيداً عن الأعين.. وقذفت بجهاز اللاسلكي قدر استطاعي ليستقر في جوف نهر الموصل.. تنفست الصعداء.. وقفنا على الطريق.. لوحننا لسيارة أجرة.. حملتنا إلى المنزل ثانية.. وجلس صديقي يستعرض أسماء المهربين ليجد من بينهم من يقوم بمهمة مرافقتي إلى دهوك.. وعندما استقر على الإسم تركني خارجاً.. عاد بعد ساعتين قال إنه اتفق مع اثنين.. قال إنهما سيقومان بالمهمة.. وأضاف: سوف يحضران في تمام العاشرة من صباح الغد لمرافقتك.. بت ليلتي أنقلب في الفراش غير قادر على النوم.. عاجز عن طرد المخاوف التي أخذت تحوم حول رأسي.. وجاء الرجلان في الموعد تماماً.. ودعت صديقي معانقاً وتقاقرت الدموع في

المآقي.. قدمت له المسدس الذي بحوزتي.. قلت له كى تتذكر لطيف.. عاد لمعانقتي.. صافحت زوجته.. شددت على يدها شاكرأ.. وانطلق ركبنا.. قاد السائق السيارة في طرق وعرة ليتحاشى التوقيف.. ساعة كاملة حسبتها دهرأ.. وعند مشارف قرية صغيرة انتبهت على توقف السيارة.. وترجلنا.. تركنا السيارة على الطريق.. ثماني ساعات متواصلة قطعنا فيها طرقاً وعرة وغير مطروقة.. وممرات ضيقة.. هدنا التعب ونحن نجاهد لنحتمي أقدامنا من الانزلاق.. طرق جبلية وعرة ومغطاة بالثلوج.. دخلنا إلى غار آمن طلباً لبعض الراحة.. ثم واصلنا.. إلى أن وقفت بنا أقدامنا عند مركز للمقاتلين البشماركا.. قابلونا بود.. حرصت على محادثتهم بالكردية.. أعطونا سيارة قديمة متهاكة لتعيننا على إكمال الرحلة.. الآن بلغنا بر الأمان.. قال ذلك قائد السيارة.. تطلعت إلى المعالم التي أمامي.. لاحت لي مشارف دهوك.. تنفست الصعداء.. وزايلني الخوف.. لامظاهر من حولنا تقول إننا الآن في العراق.. الجميع يرتدون الملابس الكردية المميزة.. يخطرون في سراويلهم العريضة.. جميعهم يحملون السلاح.. أعلام مختلفة وصور للقادة الأكراد تزين مداخل البيوت وتزحم نواصي الطرق.. همست لمجاوري باسم قريبي الذي أرغب الذهاب إليه وذكرت له العنوان.. أوما علامة الموافقة.. أخذ يفتش عن الطريق إلى القرية التي أرغب في الذهاب إليها.. استعان بسؤال المارة.. وقفت بنا السيارة في مواجهة البيت.. طرقتنا الباب وانتظرنا.. وقف قريبي لبرهة يتأملني ثم سارع بضمي إلى صدره في شوق عارم.. لم يصدق أن الذي تضمه أحضانه هو لطيف.. أطال العناق.. سرى الدفء إلى داخلي.. غمرتني الهدوء لفرط مودته.. جلسنا جميعاً إلى المائدة العامرة التي نشط أهل الدار في إعدادها.. عاد الدليلان في طريقهما إلى نينوي بعد أن نقدتهما

الآلف دينار التي اتفقنا عليها.. وعدت إلى قريبي تتبادل أطراف الحديث.

1991 / 12 / 12

حدثت الابن الأكبر لقريبي عن رغبتي في زيارة مقر من مقرات الأمم المتحدة لأتلمس عندهم المساعدة على الخروج من العراق.. قال: المنطقة الآن خطيرة وتبدو هيئتكم غريبة.. ونخاف أن تقع في أيدي الرجال المتناحرين هنا.. رجاني أن أمزق أى وثائق أحوزها قد تكشف عن علاقتي بدوائر الحكم في بغداد.. وقال بعد أن قلبنا الأمر معاً: في الغد آخذك إلى مصور ليلتقط لك صورة شخصية تعيننا في تدبير شهادة جنسية لك.. الأمر لن يكلف أكثر من مائة دينار.

حزت الشهادة التي دبرها ذلك الفتى النابه.. وتوجهت بصحبته إلى مقر الأمم المتحدة في دهوك.. خاطبتهم هناك باللغة الإنجليزية.. قادنوني إلى مدير المقر لأشرح له أمري.. وقفت قبالة.. أخذت أتطلع إليه وهو يدون كل كلمة أنطق بها.. كان واضح النحافة وتميل بشرته إلى اللون الغامق.. بعد أن أفرغت له مافي جعبتي.. همهم بكلمات قليلة.. قال بفتور ظاهر: عد إلينا بعد أسبوع.. حاولت أن أستميله بمخاوفي لكنه أصر على الموعد الذي حدده.. عدت خائب الرجاء بغصة في القلب.

1991 / 12 / 13

قبل انتصاف النهار اهتز باب البيت تحت وقع طرقات متواصلة.. جاء من يسأل أهل البيت عن الغريب الذي عندهم.. خرجت إلى الرجال الذين جاؤوا في طلبي.. حدثهم بأمرى.. رافقتهم إلى مقر الجبهة الكردستانية..

حققوا معي.. اتسم مسلكهم بالرقّة.. عاملوني بقدر واضح من الاحترام..
وقفت في مواجهة ستة من الرجال يمثلون الأحزاب الناشطة في المنطقة..
يمثل كل رجل من الرجال حزب من أحزاب المعارضة.. تلاحت أسلحتهم
ليختبروا صدق روايتي.. بقيت رهن الاستجواب حتى التاسعة مساءً..
أصابني التعب.

وتدافعت المخاوف من جديد إلى رأسي.. قال من وضع إنه يتراش
جلسة التحقيق – وتبينت أنه مندوب الحزب الشيوعي العراقي – سوف
تبقى هنا في السجن حتى نتحقق من روايتك.
مرة أخرى يا لطيف.. يلاحقك السجن حتى بعد أن بعدت بينك وبين
بغداد الشقة وحسبت أنك ودعت المتاعب.

لكن نجح أقربائي في الحيلولة دون سجنني.. أكلوا للرجل أنهم
يتعهدون بوضعي تحت أمر لجنة التحقيق في أي وقت إذا ثبت لديها أنني
مدان وأن روايتي فيها ما يجعلني قيد المساعة.

وعادوا بي إلى المنزل.. جلست على أول مقعد بعد أن هدني التعب من
عناء الوقت الطويل الذي قضيته رهن التحقيق.. فأتحت قريبي في رغبتني
استعادة النقود التي أودعتها أمانة في عنق صديقي في بغداد..
وبطريقتهم الحاذقة تدبروا الأمر.. أخنوني إلى من أشاروا إلى أنه كفيل
بإنجاز المهمة دون مخاطر.. وسطرت رسالة لصديقي كما اتفقنا ومهرتها
بتوقيعي.. وكتبت على ورقة منفصلة العنوان في بغداد.. أخذ الرسول
الرسالة وانطلق.

1991 / 12 / 15

تلعب المصادفة أحياناً دوراً حسناً في حياتنا.. كنا جالسين في صحن
الدار نقطع الوقت بالحديث.. طرق الباب ودخل علينا صديق لقريبي

عرفت أنه من تركيا .. بعد برهة من الوقت أفصحت له عن رغبتى الذهاب إلى هناك.. قال ناصحاً: لاأظن أن تركيا مناسبة لك.. وقال إن ساحاتها ومقاهيها تزخر بعراقين كثيرين.. ولاتخلو من عيون لصدام.. وأضاف بلهجة الواثق: من الأنسب لك أن تذهب إلى مكتب التنسيق العسكري لقوات التحالف في قضاء زاخو.. سوف يسهل لك الأمريكيون الموجودون هناك الأمر.. لا تقول كثيراً على الأمم المتحدة.. إنهم يماطلون طويلاً.. قال ذلك بعد أن حكيت له عن موعدي معهم.

وتراقصت الفرحة في رأسي عندما عرض أن يصحبني في شاحنته.. قال: لدى سيارة كبيرة لنقل الكاز أقودها في طريق يمر بمكتب التنسيق.. وسوف أأخذك معي في الغد.

1991 / 12 / 16

صحوت مبكراً.. جلست في الانتظار بعد أن أعددت نفسي للرحلة المرتقبة.. وجاء التركي في الوقت الذي حدده.. ودعت أهل الدار وأوصيت قريبي بالاحتفاظ بنقودي لوقدر لها أن تأتي.. قلت سوف أتيك لأخذها عند ما يصلني منك الخبر.. وانطلقت بنا الشاحنة.. لم يمر وقت طويل حتى أشار الرجل إلى المبنى الذي وضحت ملامحه.. هانحن قد بلغنا مرادك.. توقف بالسيارة لأهبط .. ودعني.. وتمني لي التوفيق.. وقفت في الباحة الواسعة.. بيتان كبيران تعلوهما أقراص الأقمار الصناعية.. تقف في ساحتيهما سيارات مدرعة وأخرى عادية.. قادتني خطواتي إلى البيت الأول.. ضغطت زر المناداة.. جاء من يستطلع القادم.. وقف في مواجهتي بملابسه الكردية قال بخشونة ظاهرة: نعم.. قلت: أريد لقاء المسؤول هنا..

أجاب بتعال: لا يوجد لدينا وقت.. وهم ليغلق الباب في وجهي.. قلت راجياً:
أنا لست من هنا.. قادم من بغداد ولدي مشكلة.. طلب مني الانتظار ودلف
إلى الداخل.. وقفت أمام الباب المغلق معلق بأمل أن يأتي من هو أكثر
تفهماً.. خمس دقائق متلاحقة.. انفتح الباب ثانية وجاء آخر يرتدي
ملابس عسكرية.. تبدو ملامحه أقرب إلى الملامح الأمريكية.. حدثت
سريعاً في الشارة التي تزين حلته.. حروفها تدل على أن الرجل يحمل
اسماً عربياً.. خاطبته بالإنجليزية ورد هو بالعربية بلكنة فلسطينية.. افتر
ثغره عن ابتسامة واسعة وودودة.. قال مستفسراً: ماذا وراك؟.. قلت: لدى
مشكلة أريد لها الحل.. قال جملة واضح أنه دأب على ترديدتها عند
استقبال كل طارق: الأكراد لا تنتهي مشاكلهم.

قلت بصوت واضح وكلمات مرتبة لأقتحم سريعاً داخله: أنا لست من
هنا.. لست من هذا القضاء.. ولا من الشمال كله.. أنا من بغداد.. التفت
إلى الرجل الكردي الواقف إلى جوارنا.. أمره أن يدلف إلى الداخل.. ولما
اطمأن إلى أننا وحدنا أضاف: لكن نحن لسنا جهة للمساعدة.. نحن فقط
فريق حماية للأكراد ضد هجمات نظام صدام.. بغيتك هناك عند الأمم
المتحدة.. شرحت له محاولتي معهم.. وكان على أن أدخل إلى منطقة
الرمي.. قلت: ليست مشكلتي بالعادية.. وحياتي في خطر.. أخرج مفكرته
وطلب أن أترك الاسم والعنوان.

: لطيف يحيى لطيف.. ملازم أول في جهاز الأمن الخاص.

وأصابته الكرة شباك الرمي.. لم يكمل الرجل تدوين النصف الثاني
من الجملة.. حلق في ملامحي بعد أن باغته بجوابي.. اندفعت يمناه إلى
مرفقي.. قادنني إلى الداخل.. في منتصف الصالة الواسعة توقف بي..
قال غير مصدق: ماذا قلت؟.

أعدت تأكيد الرمية التي اخترقت مرماته: قلت لك اسمي وعملي.. وأنت سمعت جيداً.. أضفت لأمزق الشباك برمية أكثر إحكاماً: وأنا أكثر من ذلك.. أنا الفدائي الخاص لعدى صدام حسين.

ليس ثمة مجال للتردد.. شدني بترحاب إلى الغرفة الواسعة.. غرفة تزحمها الأجهزة.. أجهزة استقبال وهواتف.. أنواع متعددة أعرفها جيداً.. مثل التي تزحم هناك القصر الجمهوري.

وأفصح الرجل عن اسمه.. قال: اسمي سعدالدين حليم.. ويلقبونني هنا بـ«دين» وأضاف هل تود أن تحتسي شيئاً؟.

ذهب دين ليأتينني بكوب من الشاي وفق رغبتني.. عاد وعلى الوجه ابتسامة واسعة.. أصبح أكثر ودأ.. قال عليّ أن أعتبر نفسي في بيتي.. وأضاف في وضوح: لاتخف.. عندما نتأكد من هويتك.. سوف ننقلك إلى البلد الذي تريد.. قلت أمازحه: هذا عمل الأمم المتحدة.. ضحك عالياً.. فطن إلى ما وراء الكلمات.. قال: نعم قلت أنا هذا في البداية.. أعذرني.. يطرق بابنا كل يوم عشرات من الناس.. يطلبون أن نساعدهم في الخروج من العراق.. يلحون في ذلك وكأننا نحن شركة للسفریات.

قام سعدالدين إلى الهاتف اللاسلكي.. هاتف عبره الكولونيل ناب مسؤول المكتب.. ولم تمر غير دقائق حتى كان الرجل في مواجهتي.. وقف بقامته المتوسطة يتطلع إلى.. البشاشة واضحة على ملامحه.. امتدت يده للمصافحة.. شد على يدي بمودة.. جلس ودعاني لأجلس بدوري.. وبدأ في الإمساك بخيوط الحكاية.. أعدت له الرواية.. تحدثت بالعربية وتولى سعدالدين حليم الترجمة.. وقبل أن نفرق في التفاصيل دعانا إلى تناول وجبتنا.. ثم عدنا بعدها لاستكمال الجلسة.. وتوالت الأسئلة.. لم أخف شيئاً.. وكان الكولونيل ناب يتابعني باهتمام.. يسجل أدق التفاصيل على

الأوراق التي تزحم الطاولة الصغيرة.. وكلما امتلأت ورقة دفع بها إلى الجالس إلى جهاز الإرسال اللاسلكي ليبرق بها على الفور إلى واشنطن.. وتتابع الساعات.. أخذت خلالها أحكي وهم يسجلون.. حتى الثامنة بقيت أتحدث.. أفرغت كل ما في جعبتي.

لحظات صمت قال بعدها ناب: إنها قصة غريبة.. تزحمها وقائع وأشياء فظيعة.. وامتدت يده إلى في حنو بالغ.. قال: الآن عليك أن تأخذ قسطاً من الراحة.. رافقتني هو وسعد الدين إلى البيت الآخر.. قابوني إلى غرفة خاصة.. قال ناب باسماء: المنزل كله لك الآن.. خذ راحتك.. وأضاف مستدركاً وهو يضحك: فقط بعض الغرف ليست لك هي لجنود المركز.. وأشار إلى غرف مغلقة.. أومأت علامة الفهم.. تركتني في ضيافة واحد من ضباطه.. النقيب تيد جولي.. جولي هذا شخص بالغ اللطف أسرتني رفقته.

1991 / 12 / 20

أربعة أيام متوالية.. تلاحقت فيها الأسئلة.. تفتش عن التفاصيل الدقيقة.. أجلسوني في مواجهة أشخاص ثلاثة يتحلون بالملابس المدنية.. قال ناب إنهم منتدبون للتحقيق النهائي بطلب من وزارة الدفاع الأمريكية.. تابعتني الكاميرا التي وجهها إلى طوال الجلسة أحد الرجال الثلاثة.. وأرادوا قبل أن تنتهي الجلسة أن يدللوا على قدرتهم.

دس واحد منهم يده في حقيبة وأخرج مجموعة صور.. وألقاها على المائدة.. أشار إلى إحداها باسماء.. هذه صورتك سيد لطيف.. أليس كذلك؟.. وأشار إلى الثانية.. وهذه صورة عدى.. أخذت أتأمل صورتي..

كنت أرتدى بدلة عدى الخاصة.. لم تفارق الرجل الابتسامة.. عاد
يخاطبني: نحن نعرفك من قبل.. لكن كان يجب علينا أن نتأكد.. شكراً
لك.. وهب واقفاً وتبعه رفيقاه.. شد ثلاثتهم على يدي.. وتركوني.
رافقهم الكولونيل ناب وسعد الدين.. وبقيت أنا والنقيب تيد جولى
وضابطة أمريكية من جناح الطيران تدعى جولى تتبادل أطراف حديث
عادي.

1991 /12 /31

مع اللحظات الأولى من صباح اليوم نشط كل ضباط المكتب ليعدوا
لوداع العام.. قال سعدالدين سوف تشاركنا الاحتفال طبعاً .. سيأتي
أيضاً ضيوف كثيرون من القاعدة الأمريكية في تركيا للاحتفال معنا.. في
المساء ازدحمت حديقة البيت بالمحتفلين.. اختلط الضباط والضابطات..
نجحت زجاجات الويسكي في كسر موجة الصقيع ودفعت بالحرارة إلى
المحتفلين.

1992 /1 /4

بينما أنا جالس أتابع التلفاز مسترخياً في الصالة.. جاء ناب.. قال
باسماً: كيف أنت لطيف.. وجلس.. قال ونحن نتبادل المزاح: ما رأيك..
هل تود أن ترحل إلى أمريكا.. نستطيع أن ندبر أمر ذهابك إلى هناك
كلاجئ سياسي.. أدركت أنه جاد.. وأنه يختبر نواياي.. شكرته رافضاً
العرض.. قلت أنوي الذهاب إلى النمسا.. لم أكن أعرف حتى أين يقع ذلك

البلد على خارطة أوروبا.. كل ما أعرفه عنه أن ابن عمتي هناك..
يعمل طبيباً في العاصمة فيينا.. قال ناب إنه سوف يتولى تدبير الأمر.

1992 / 1 / 6

فاتحت سعدالدين برغبتي في الذهاب إلى دهوك.. قام واتصل بناب
الذي جاء على الفور.. قال الرجل وعلامات الدهشة بادية على وجهه:
لماذا تنوي الذهاب؟.. لقد فاتحنا النمسا حول موضوعك.. قد تأتي
الموافقة في أي وقت وتسافر.. صارحته بدوافعي.. قلت إن لدي هناك
بعض المال.. أريده لأبدأ به حياتي الجديدة.. تطلعت إلى وجه الرجل
أنتظر الجواب.. قال نعم لكن بعض الكدر لاح على تقاسيم وجهه.. ربما
راوبته المخاوف.. يعرف أن الرحلة إلى هناك غير مأمونة.. تأتيه أخبار
الصراعات التي تنور في كردستان بين الأحزاب الكردية.. ولم يكن أمامه
إلا الموافقة استجابة لإلحاحي.. قال سوف أبعثك في سيارة خاصة من
المكتب تأخذك إلى مقعدك في دهوك.

وعدت ثانية إلى هناك.. استقبلني الأصدقاء بفرحة.. ودعت سائق
السيارة البوش الذي جاء بي.. حملته تحياتي إلى ناب وسعدالدين
ورجوته أن يبلغهما أن يطمئنا.. أضفت: يومان على الأكثر أكون بعدهما
عندكم في المكتب.

جلست إلى الأصدقاء وكان الوقت عصراً.. تحلقنا طاولة واسعة
وانصرفنا إلى الورق نلعب «الكونكان».. تبادلنا أحاديث وحكايات.. سروا
عندما أخبرتهم أنني في طريقي إلى النمسا وأن الأمريكيين يسعون
لمساعدتي في تدبير الأمر.

قادني قريبي إلى غرفته الخاصة وأغلق بوننا الباب.. أخرج من بولاب خشبي حقييتي.. وقال باسمًا: الأمانة.. قبضت على ساعده يميني.. تنفست الصعداء.. أعطيته العشرة آلاف دينار أجرة الرجل الذي جلب الحقية.. وعدنا ثانية للأصدقاء الجالسين إلى المائدة المرحومة بورق اللعب.

1992 / 1 / 7

الثامنة صباحاً.. طرقات قوية متلاحقة تدق باب البيت.. هرول قريبي يستطلع القادم.. رجال مدججون بالسلاح يزحمون الباب.. سمعتهم عبر باب غرفتي الموارب ينطقون اسم رئيسهم.. قالوا إنهم رجال رسول مامند رئيس الحزب الاشتراكي الكرستاني.. أضافوا ليفسروا مهمتهم.. قالوا إن رئيسهم يرغب في التعرف على .. طلب أن أزوره.. وأنهم جاؤوا لاصطحابي.. حاول قريبي التملص.. قال إني نائم.. لكنهم تابعوا إلحاحهم.. وخرجت إليهم فاعادوا على مسمعي مطلبهم.. كانوا جميعهم يحملون الكلاشينكوفات.. لم أرتبُ لذلك. قدرت أن الأمر عادي.. كل الرجال هنا لا يفارقهم السلاح.. لقد فُرض عليهم أن يجابهوا النظام.. وكان عليّ أن أرضخ لإلحاحهم.. يبدو أنها دعوة قسرية.. قلت ذلك لنفسي وأنا أتهياً للصعود إلى واحدة من سياراتهم الواقفة في الباحة المحيطة بالمنزل.. صعدت مصطحباً حقية المال.

قالوا إننا سوف نذهب للقاء الرجل في قضاء رانية في محافظة السليمانية الواقعة عند الحدود العراقية الإيرانية.. تحرك ركبنا في طريق وعر وشاق.. خفيق ومتعرج تحيطه الثلوج من كل جانب.. يطلق عليه طريق

«برزان».. بدأ الجالس إلى جوارى محادثتي.. كان يسمى خالد.. قلت له بعد أن بدأت الوسواس تراوطني: أريد العودة إلى دهوك.. هز رأسه علامة الرفض.. ملامحه الخشنة أقصحت عن ماهو مخبوء.. أدركت أنني وقعت في مصيدة.. وأني مساق إلى المجهول.. لغتهم الملفوفة في الرقة انزاحت جانباً.

قال خالد في صفاقة: نحن ذاهبون شئت أم أبيت.. قال ذلك بحسم وعلامات القسوة والفرد تطبع ملامحه.. فوهة مسدسة تلامسني.. فعل ذلك متعمداً إرهابي.. سألني فجأة: تحمل نقوداً كثيرة أليس كذلك؟.. ولم ينتظر الجواب.. تسالت أصابعه إلى جيوبي.. أنتزعت ما فيها.. واستولى كذلك على ساعتى الذهبية وخاتم كلن في يدي وسلسلة كانت في رقبتى.. فعل ذلك بصفاقة.. أحكمت قبضتي على حقيبة النقود.. أدركت المصيبة التي تلوح في الأفق.. لصوص.. قطاع طرق.. أوغاد.. دارت بي الخواطر.. خرسيت ولم أطلق ما بداخلي.. لوفطت ربما كانت رقبتى هي الثمن.. تزداد المخاوف.. اصطحبوني ربما ليقايضوا علي.. يسلموني إلى بغداد ويقبضوا الثمن.. ملايين الدنانير التي ربما رصدها عدى لمن يأتي بي بعد خروجي عن طاعته.. صرخاتي المحبوسة أخذت في التدافع إلى خارجي.. وكان علي أن أطلقها.. قلت لهم بغضب ظاهر.. من هو ذلك المسمى رسول مامند.. أين هو؟!.. إن كان فعلاً رئيس حزب معارض فأنتم بالتكيد لستم رجاله.. أنتم مجرد لصوص.. قطاع طرق.. لم يأنهوا بصرخاتي.. فقط لكمة خفيفة على الرأس أراد بها ذلك المسمى خالد أن يحزنني من مغبة الاستمرار في الصراخ.

هدني التعب.. وهدني أكثر الرعب من المجهول القادم.. وأعيتني الرحلة الطويلة عبر الطرق الوعرة.. وأرهقتني خشونة الرجال.. أربع عشرة

ساعة حسبتها دهرأ كاملاً .. عند العاشرة والنصف مساءً دخلنا قضاء رانية.. لم يأخذوني إلى مقر الحزب كما زعموا في البداية.. أخذوني إلى مبنى متهاالك.. ألقوا بي في إحدى غرفه المظلمة.. انتزعوا مني الحقيبة التي تحوي مالى.. جردوني من كل شيء.. ثم انصرفوا.

عدت بالطيف ثانية إلى وحشة السجن.. جلست على الأرض في ركن من أركان الغرفة أحاول استجماع أفكاري.. البرد يجمد أطرافى.. كرات الثلج المتساقط تضرب سقف الغرفة.. تزيد من توترى.. عدت بأفكاري إلى الوراء.. من هم زعماء المعارضة الأكراد.. مسعود البرزاني رئيس الحزب الديمقراطي للكرديستاني.. جلال الطالباني رئيس حزب الاتحاد الوطني الكرديستاني.. رسول مامند.. رسول مامند؟!.. لقد مر على هذا الاسم.. ربما عبر تقارير وثرثرات منتسبي جهاز الأمن الخاص.. ماذا يريد الرجل منى.. ولماذا هذه المعاملة الخشنة.

يجب أن أجد مخرجاً.. لكن كيف.. وحتى لو وجدت.. إلى أين يمكنني الذهاب ؟. المكان موحش.. مصيرك التجمد لوحاولت بالطيف مجرد السير مترجلاً في هذه الصحراء الجليدية.. أدركت عبث المحاولة.. عدت إلى التوقع في الركن.. جلست أنتظر معجزة ربما تسوقها الأقدار.. استسلمت للمصير المجهول.

بعد عدة أيام قاسية.. أدركت أنني لست الوحيد في هذا المكان الموحش.. وجدت آخرأ.. وجدته في غرفة أخرى يعاني مثلي قسوة البرد وقرصات الجوع.. والانقطاع عن العالم.. طاعن في السن هو.. سألته بصوت خافت بكلمات كردية.. وأجابني بكلمات متقطعة.. كان يشكو من آلام تخنق صدره.. قال إننا وقعنا في قبضة من لا يرحم.. وقعنا في قبضة لصومس أفاقون.. وقعنا في قبضة جماعة رسول

مامند الجرامي.. قال أن الجرامي لقب لازم هذا المامند.. أطلق عليه لما يقوم به رجاله من أعمال قرصنة وسطو.. وعدد لي بعضها.. كان أتباعه ويأمر منه ينتزعون أعمدة الكهرباء لبيعونها لإيران.. ينهبون كل شيء.. الآلات الزراعية.. آلات تعبيد الطرق.. كل ما تطوله أياديهم يبعونه لمن يدفع الثمن.. قلت أتوكأ على حكمة الحاج إبراهيم.. وكان هذا اسم رفيقي في المكان الموحش: بماذا تنصحنني.. أطرق لحظة.. ثم جاعني كلماته واهنة: اصبر.. الله في عونك وعوني.. قلت له: لماذا أنت هنا.. قال الرجل: لأنني لآني حزب من هذه الأحزاب التي تزحم القضاء.. ماجرني إلى هنا مجرد محاولة اعتراض.. كلمات ضجرة.. تأتي إلى هذا القضاء كل أسبوع عدة شاحنات تحمل الغاز السائل والنقط الأبيض ليوزع على أناس المنطقة.. رجال مامند يتحكمون في توزيعه.. يهبون بعض ماتحملة الشاحنات لمعارفهم والأصدقاء.. ويبعون الباقي لحسابهم في السوق السوداء.. سوء حظي دفعني إلى مجادلتهم.. وما أنا هنا أعاني الجوع والمرض وقساوة الحبس.

1992 / 1 / 12

أخيراً جاؤوا.. دخلوا على.. أسلحتهم مشرعة.. انتزعوني من الركن.. أحكموا شد العصابة حول عيني وكبلوا يدي بالقيود.. جروني إلى واحدة من سياراتهم.. قانوني إلى منطقة اسمها «جار قرنة».. هبطوا بي إلى مكان موحش آخر.. ستة عشرة درجة أحصتها قدمي.. نزعوا العصابة وغادروني.. تركوا لي فانوساً صغيراً شاحب الضوء.

وجاء خالد وعصابته للمرة الثانية.. أطلق تهديدات عدة.. حذرني من

الكلام.. قال حازر أن تفصح عن شيء.. لاتقل إننا أخذنا منك شيئاً.. لن أتوزع عن قتلك لوانطقت.. قلت واليأس يحوطني: لايهمني المال.. فقط أريد العودة إلى زاخو.. قال: لم يحن الوقت.. لم نفرغ منك بعد.. لايزال لدينا بعض التحقيقات بشأنك.. بعدها سوف نقرر مصيرك.. عدت إلى الانفعال والصراخ من جديد: من أنتم!! أريد رسول مامند.. أهاجتهم كلماتي.. أوسعوني ضرباً.. جربوني من الملابس.. عروني.. ورشوني بماء بارد.. ثم تركوني ولم يغفلوا عن إحكام إغلاق الباب من خلفهم.. ولعشرة أيام متواصلة عاودوا المجيء.. وأذاقوني خلالها العذاب أصنافاً.

في صباح اليوم العاشر أخذوني إلى الخارج.. أعطوني ملابس نظيفة.. مغسولة ومكوية.. أمروني أن أرتديها على عجل.. استجبت.. البرد الذي جمد أطرافي دفعني إلى الطاعة.. دفعوني بقسوة إلى سيارتهم.. وعانوا بي إلى قضاء رانية.. أدخلوني بيتاً.. كان في داخله حلاق ينتظر.. دفعوني إليه.. قص شعري وهذب لحيتي وشواريبي.. ثم قادوني إلى غرفة نصبت بها كاميرا فيديو.. أمرني خالد أن أجلس في مواجهتها.. أمرني أن أشكر حزبهم.. وأن يلهج لساني بالثناء على رئيسهم.. أن أنمق الكلمات ليطبعوها على الكاسيت لتكون في حوزتهم.

مسرحية أخرى.. يالهم من أوغاد آخرون.. إنهم يصنعون مايصنع عدى.. يحاكون النظام الذي شقوا عليه عصا الطاعة.. لاحيلة لي.. لا بد وأن أطيع رغباتهم.. جلست ورددت ماطلبوا.. رسمت بسمات مصطنعة لتلتقطها العدسة.

ثم عانوا بي إلى محبس «جار قرنة».. أدخلوني إلى الغرفة ذاتها.. لكن هذه المرة منحوني فراشاً وأغطية.. وجلبوا طعاماً جيداً لم يأتوني به في المرة السابقة.. لأعرف سر هذه المعاملة الجديدة!!

فتح باب الحبس.. جاؤوا معهم هذه المرة برجال ثلاثة.. دفعوهم إلى الداخل بقسوة.. كموهم وسط الغرفة المظلمة.. وأحكموا إغلاق الباب.. حاذرت في البداية أن أحاول محايدة القادمين الجدد.. توجست أن يكونوا رجالاً من رجالهم.. دسوهم على.. يومان بطولهما أرقبهم ويرقبونني.. في منتصف نهار اليوم الثالث تلكأت الكلمات على الشفاه.. لكن لم يكن هناك بد من خروجها.. عرفت أسماء الرجال وعرفوا اسمي.. أولهم كان يدعى بختيار والآخر أحمد.. والثالث اسمه حسن خوشناو.. وعرفوا أنني من بغداد.. تسالوا عن سبب وجودي.. قلت أنني حقيقة لا أعرف.

وقبل أن يغرب هذا اليوم الذي تعارفنا فيه بعد تردد خرج بختيار وأحمد.. سحبهما اللصوص إلى الخارج وتركونا أنا وحسن خوشناو.. أفصح لي عن الظروف التي قادتني إلى هنا.. قال إنه كان منتسباً إلى مديرية الاستخبارات العسكرية «شعبة الاستطلاع العميق».. كان يتسلل أثناء الحرب مع إيران إلى طهران.. يذهب إلى هناك ليزرع المتفجرات.. كرر الأمر مرات متلاحقة نجح في أغلبها.. وكوفيء من قبل نظام صدام على ذلك.. أجزل له العطاء.. بعد غزو العراق للكويت عاد إلى رانية.. أهله فيها.. رغب في الانضمام إلى المعارضة.. لكنه وقع في أيديهم.. أيدي رجال رسول مامند.. اتهموه بأنه لا يزال يعمل لحساب النظام في بغداد.. أرادوا أن يبيعوه لإيران التي تطلبه حياً أو ميتاً.. وصل إلى علمهم أنها رصدت لمن يأتي به خمسة ملايين من الدينار العراقية.. هو إذن صيد ثمين وفرصة مواتية لعصابة رسول مامند.. قال حسن وعلامات اليأس

تحوم حول رأسه: إنهم يفعلون ذلك دائماً.. يصيدون الرجال ليقبضوا الثمن.. من بغداد أو طهران.. الأمر لديهم سيان.

عادت المخاف إلى رأسي.. ربما لهذا حرصوا على إجلاسي في مواجهة الكاميرا.. الآن تتجسد ملامح خطتهم في مخيلتي.. يسعون بالتاكيد إلى بيعي إلى رجال صدام.. ويحتفظون بالكاسيت ليتقوا غضبة الأحزاب الكردية.. يحتفظون بدليل على أنني كنت ضيفهم وأكرموا وفادتي.. غادرتهم طوعاً والكاسيت خير دليل لمن تساوره الوسواس أنهم أبرياء طاهرون براء ~~من دم يوسف~~ من دم يوسف.

1992 / 1 / 29

ولم أنعم طويلاً بصحبة حسن خوشناو.. جاؤوا وانتزعوه كما انتزعوا بختيار وأحمد.. لكن لم يأخذوه إلى الخارج.. قابوه إلى زنزانة أخرى.. دلتني عليها صرخاته العالية المتوجعة.. أسمع عبر الجدر الصلدة فرقعات سياطهم وهي تضرب المسكين.

عدت وحيداً.. يقتلني الخوف ويحوطني اليأس.. تمليت الجدران مرات ومرات.. لازالت عليها آثار شعارات البعث.. لقد كان محبسنا مقراً من مقراته.. شغلته في السابق منظمة من منظماته.. الآن حولوه بعدما أحكموا قبضتهم على كردستان إلى سجن يقودون إليه الرجال بلا ذنب أو جريمة.. لافرق بينهم إذن.. لافرق بين نظام أو معارضة.. كلهم سواء.. وكأنك يا أرض الوطن أرض هرمة لاتنبت إلا الأشواك الشيطانية.. سوف لا أعود إليك أيتها الصحراء التي خلت إلا من الظلم والجور إذا قدر لي الانفلات من هنا.

1992 / 2 / 2

قبل منتصف الليل جاؤوا من جديد.. سمعتهم وهم يسبونهم ويدفعونه دفعا إلى الداخل.. تركوه ومضوا.. تطلعت إليه.. رغم الضوء الشاحب بانث لي ملامحه.. شاب في مقتبل العمر.. لا تتخطى سنوات عمره الثامنة عشرة أو تدور حولها.. حاولته على حذر.. تيقنت أنه ليس من رجالهم.. قال إنه من أتباع مسعود البرزاني رئيس الحزب الديمقراطي الكرستاني.. حكى لي كيف أقتيد إلى هنا.. ألقت الشاب والفني.. قال إن نفسه تحدثه أنه لن يبقى هنا طويلاً.. قال إن مشكلته ليست بالمشكلة الكبيرة.. لأعرف لماذا وثق محمد زيرك – وكان هذا اسمه – في أن الرجال سيطلقونه بعد مدة لن تطول.. لكنني أمسكت بالأمل.. أمل الاعتماد على معونته إن تحقق ظنه.. رجوته إن حدث ذلك أن يسعى إلى مساعدتي.. أكد أنه سوف يفعل.. قال إنه فور الإفراج عنه سوف ينقل الأمر عبر مسؤوله ليصل إلى رئيس الحزب مسعود البرزاني.. قال ليبعث الطمأنينة إلى نفسي: لا تقلق.. أقسم بشرفي ومقدساتي أنني سوف أفعل.. سوف أفعل كل ما في طاقتي لإطلاق سراحك..

تدافعت الطمأنينة إلى قلبي.. بددت سحب الخوف واليأس والقنوط التي تحوم حول رأسي.. وتمنيت له من كل قلبي أن يفك أسره.. من أجله ومن أجلي..

1992 / 2 / 7

وصدقت تقديرات محمد زيرك.. مع الساعات الأولى للصباح جاؤوا.. دلت ملامحهم على أنهم جاؤوا لإطلاق سراحه.. ودعني.. همس في أذني على عجل: لا تقلق سوف أتدبر الأمر.. وقالت ذلك أيضاً نظراته المشجعة

وهو ينسحب إلى الخارج.. جلست بعد أن غادرني يحذوني الأمل.. جلست على حافة الفراش أنتظر الخلاص.

1992 / 2 / 10

قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء سمعت أصواتاً تقترب.. سيارات يتعالى هديرها.. تقافزت لأتشوف.. أرقب ماهو آت.. الفرج أم الكرب.. لم أصدق ماأخذ يطرق أذني.. صيحات عالية تردد اسمي.

لطيف.. لطيف.. أين أنت يالطيف.. كانت واضحة لا لبس فيها.. إسمي.. إنهم لا ينادون على آخرأ.. ينادون على أنا.. يفتشون عن مكاني.. قبل أن أصبح مستجيباً.. قال صوت تبينت نبراته: إنه في الملجأ.. ميزت الصوت ولم يختلط على.. إنه صوته.. صوت ذلك الأفاق الذي يدعى عبدالكريم.. عبدالكريم الذي تفنن في التنكيل بي عندما جعلوني هدفاً لإجرامهم.

غمرتني الفرحة الطاغية.. لقد نجوت يالطيف.. لن تموت هنا.. لن تأكلك الوحدة ويجمدك الصقيع.. سوف تواصل رحلتك التي بدأتها لتنفلت بعيداً عن عالم الأشرار.. لقد فعلها الفتى.. صدق محمد بما وعد.

سمعت أقدامهم وهي تتسارع هابطة.. وقفوا في مواجهتي.. حياني شاب كان في مقدمتهم.. قال وابتسامة واسعة تحلي محياه: أنا الدكتور سربست.. من الحزب الديمقراطي الكردستاني.. لقد أبلغنا محمد زيرك أنك هنا.. جئنا على الفور.. أنت الآن ضيفنا.. وامتدت يده تصافحني في مودة.

أنت الآن ضيفنا.. قالها في مودة واضحة وهو يقودني إلى النور..

أخذ يأسف لما أصابني ويعتذر كما لو كان هو وحزبه من تسبب في ذلك.. الساحة الواسعة.. كانت محشودة بالرجال تحلبهم ملابسهم الكردية المميزة.. لم تخطئهما نظراتي كما لو أنها كانت تقتش عنهما.. خالد وعبدالكريم.. سارعت إليهما والغضب والقرق يزاحمان فرحتي بالخروج من السجن.. بكل ما في من قوة بصقت في وجهيهما.. أفاقون وقتلة.. سوف أفضحكم أنتم ورئيسكم اللص.. ووددت أن أطبق عليهما.. أكليل لهما بعض الذي لقيته على أيديهما.. لم يمنعي غير الود المرتسم في عيون بقية الرجال الذي جاؤا من أجلي.. لم أود رغم غضبي أن أطبع في أذهانهم صورة شائنة لي.. كان على أن أتسم باللياقة.. وأن أترك لهم تسوية الأمر مع هولاء اللصوص الذين ينتسبون زوراً إليهم.. وقادني الدكتور سريست باسماء وهو يحاول تهدئة خواطري وثورتي إلى سيارته اللاندرورز.. سار ركبنا خمس ساعات متواصلة.. قطعنا خلالها طرقات وعرة.. حتى وصلنا إلى مقر الحزب الديمقراطي الكردستاني في قضاء شقلاوة في محافظة أربيل.

أمام المبنى توقفت السيارات.. هبطنا جميعاً.. دخلنا من البوابة الواسعة.. طالعت صورة كبيرة تزين المدخل للسيد مسعود البرزاني.. وإلى جوارها أخرى لوالده السيد ملة مصطفى البرزاني.. أكد لي الدكتور سريست ونحن جالسون في الداخل أن حزبهم لن يترك حزب مامند يواصل جرائمه التي تشوه نضالهم.. واصل الحفاوة بي والاعتذار عما أصابني ونحن مقبلون على الطعام الذي ازدحمت به المائدة التي أعدت لنا.. أقبلت على الطعام.. أكلت بشهية.. ليس الجوع أو رائحة الطعام كانا وحدهما فقط وراء تمتعي بالطعام.. وإنما سبقهما في تحريك شهيتي ماهو أهم وأعظم.. إنها الحرية التي خطوت إليها بعد عنت دام أياماً

طويلة وقاسية.. وأسهم في ذلك أيضاً ود الرجال وحفاوتهم.

أفصحت لمضيفي عن رغبتني في الرحيل إلى زاخو.. قال ضاحكاً: إن شوقك إلى الرحيل عارم.. لقد بحثنا طويلاً وهانحن قد وجدناك أخيراً.. فور أن تلقينا البرقية التي بعث بها الكولونيل ناب سارعنا بالبحث في كل اتجاه.. سألنا كل الأحزاب.. ومن بينها حزب رسول مامند.. وهأنت الآن معنا.. مع مطلع الغد سوف نصحبك لتصل إلى مبيتناك.. بت ليلتك هادىء البال والخطر.. خذ قسطاً من الراحة لتغسل عن نفسك بعض همومها ووعثاء الترحال.. وتركتني عند أطراف الفراش الوثير الذي قادني إليه.. دخلت إلى الحمام لأغتسل.. أطلقت الماء لأنفض عن جسدي قاذورات السجن.. سجن اللصوص الأوغاد.

جلست على طرف الفراش.. حرصت قبل أن أغرق في النوم أن أسطر الأحداث التي تعرضت لها في الأونة الأخيرة.. ولم أنس تدوين الأشياء التي نهبتها اللصوص الأوغاد مني.. أعددت ذلك ليكون دليلاً أدفع به ليكون تحت نظر رئيس الحزب الديمقراطي الكرديستاني في مواجهته لجرائم وتجاوزات حزب رسول مامند.. وسطرت أيضاً رسالة شكر وامتنان للمنيذ مسعود البرزاني.. ولما انتهيت أحسست براحة عميقة ثم استسلمت لنوم هادىء.

11 / 2 / 1992

استيقظت من النوم على طرقات وادعة تدق في رفق باب الغرفة.. دخل أحد الرجال يحمل في يمينه طعام الافطار.. قال وهو يضع الطعام على الطاولة المجاورة للفراش: أرجو أن تكون قد تمتعت بنوم هادىء.. رجاني أن أفصح عن رغباتي.. قال مضيفاً في ود زائد: لاتخجل أنت في

بيتك.. أسرتني موبته.

قمت فاغتسلت.. بدلت ملابسني.. أكلت بنفس الشهية السابقة.. ومع آخر رشفة من الشاي الساخن جاء آخر.. حياني ودعاني لمصاحبتة.. قال إن السيد نيجرفان في انتظاري.. أضاف موضحاً: السيد نيجرفان هو مساعد السيد مسعود البرزاني وابن أخيه.. عندما دخلنا عليه وجدناه واقفاً خلف مكتبه مستعداً للقائي.. صافحني مرحباً.. أفاض في الاعتذار والأسف لما حل بي.. شكرته.. ورجوته أن ينقل تحياتي للسيد مسعود بعد أن أعلمني أنه في مهمة في تركيا.. وقال باسمأ: إنه لو كان هنا لكان في استقبالك بنفسه.. وأضاف: إنه شدد على ضرورة إنقاذك.. ثم مازحاً: أياً ماكان عملك في بغداد.. مادمت قد وليت هارباً من هناك فنحن نعتبر أنك الآن واحداً من المعارضة للنظام الظالم.. واجبنا أن نسامحك ونساعدك.. وفي نهاية اللقاء ودعني بالمودة نفسها.

صحبني الدكتور سريست إلى السيارة التي وقفت عند الباب تنتظرنني.. صعدت في رفقة السائق وأربعة من الحراس إلى السيارة اللاندرز.. وانطلقنا في طريقنا إلى دهوك.. سلك السائق بنا طريق برزان.. وعند الثامنة مساءً كنا عند مشارف دهوك.. وصلناها بعد أن هدنا التعب وأرهقنا الطريق الوعر.

اصطحبوني إلى منزل واضح الفخامة.. قابلنا صاحبه بترحاب زائد.. قدموني إليه.. قالوا إنه السيد بابكر أحد المسؤولين في الحزب الديمقراطي الكردستاني بالمحافظة.. قال الرجل والابتسامة الواسعة مرسومة على محياه: لطيف ضيفي هذا اليوم.. قال ذلك للحراس وأمرهم بالعودة.

1992 / 2 / 12

في الصباح دق بابكر باب غرفتي.. قال باسمأ: عليك أن تنهياً

لرحلتك.. على مائدة الإفطار تبادلنا أطراف الحديث.. وصحبني مودعاً
عندما جائت السيارة إلى حيث تقف.. شد على يدي وتمني لي السلامة.
عند الحادية عشرة وقبل أن تبلغ الشمس موضعها في كبد السماء
توقف هدير السيارة عند الباب.. باب المقر.. خرج على صوت الطرقات
الرجل ذاته.. ذلك الكردي الذي طالعت في المرة الأولى التي جئت فيها
إليهم.. قابلني هذه المرة باسماً.. بغير الجهامة السابقة.. قال إن
الكولونيل ناب ليس هنا.. خرج ومعه سعد الدين في جولة.. وجاء النقيب
تيد جولي.. عانقني بحرارة.. قادني إلى الداخل.. جلسنا نتسامر.. حتى
جاء ناب وسعد الدين.. أخذوني إلى أحضانهم الحارة.. قال ناب: لقد بحثنا
عك طويلاً.. طلبنا من البرزاني والطالباني أن يفتشوا عنك في كردستان
كلها.. وهأنت الآن بيننا.

توالت المعلومات السارة على لسانه.. قال: سوف تبقى هنا فقط إلى
الغد.. في الصباح سنعلم الأمم المتحدة أننا عثرنا عليك.. وأضاف: لقد
وافقت النمسا على منحك حق اللجوء السياسي.. ضحك بصوت عالٍ: لقد
قايضناك بعائلة مسيحية تعيش في فيينا وترغب في الرحيل إلى أمريكا.
قال معتذراً: غرفتك في البيت يشغلها الآن ضيوف قَدِموا من أمريكا..
لكن سوف نتدبر الأمر.. على الفور هاتف السيد جلال الطالباني ليوفر لي
مقراً لإقامتي المؤقتة في زاخو.

وصحبوني إلى هناك.. كان في انتظارنا شخص يدعى «حسين أغا»..
تركبني ناب وسعد الدين في ضيافته.. صحبني الرجل إلى داخل منزله..
تبادلنا حديثاً ودياً.. عرفت منه أنه يعيش في أوروبا.. ويأتي إلى هنا عدة
مرات في كل عام ليسهم في العمل الحزبي.
عشرة أيام قضيتها في ضيافة الرجل.. أسرني خلالها بوده وكرمه..

عدت من جديد إلى المقر.. جاء ناب وأخذني إلى هناك في سيارته.. قال ونحن نقطع الطريق إلى مكتبه أن الإجراءات جميعها قد تمت.. وقال في تمهل ليعرف وقع الخبر على مسامعي: سوف تسافر الأسبوع القادم.. تقافزت فرحاً وأنا أسمع النبأ الذي طال انتظاره.. وقال موضحاً: كان بالإمكان أن تسافر قبل ذلك الموعد.. لكنني فضلت التريث لأؤمن لك السفر جواً.. لقد رتبنا انتقالك إلى تركيا على متن إحدى المروحيات.

وقف على باب غرفتي.. أخذ يتأملني قبل أن ينطق.. وتطلعت إليه بدوري.. ماذا وراء ناب.. انتظرت أترقب ماسوف ينطق به.. استعد للمفاجأة.. قالها ضاحكاً.. أجبته مبتسماً: هات ماعندك.. قال : سوف تطير اليوم إلى تركيا.. اليوم؟.. سارعت إلى معانقته.. وتسارعت الدموع إلى مقلتي.. قفزت ملامح أهلي إلى مقدمة رأسي.. تذكرت بغداد بطلوها ومرها.. الحلم تمهل طويلاً.. تلكأ لكنه في النهاية أتى.. سوف أغادر عالمي.. عالمي بكل ما فيه.. المتعة والألم.. الأوفياء والأوغاد.

وقف ناب صامتاً.. أجل مشاعري التي انطلقت من عقاليها.. تركني لحظات لما يدور في داخلي.. وعاد ليقودني إلى غرفة أخرى.. أطلعني على هدايا كثيرة أعدها من أجلي.. زجاجات عطر وأشياء أخرى.. أراد ورفاقه أن يطبعوا في رأسي ذكراهم.. ولم ينسَ إخراج الكاميرا من جرابها ليلتقط لي بضع صور تذكارية.. قال ضاحكاً: سوف أعود إليك بعد ساعة

من الآن لنحتفل بوداعك مقرنا.

جاؤوا جميعاً.. ناب وسعد الدين وضباط المقر.. الرجال والنساء..
تحلقوني.. أخذنا نضحك ونمرح.. نتقارع بالكؤوس حتى ارتفع صوت
المروحية هائلاً ينبئ بالرحيل.. وخرجت في صحبتهم إلى المطار
الصغير.. عانقتهم جميعاً قبل أن أصد لأغوص في بطن الطائرة.
لوحت لهم وأنا عند نهاية السلم.. لهم ولأرض الوطن.
وجلست تهديني المشاعر المختلطة.. مشاعر الفرح المختلطة بمشاعر
الآلم.. وارتفعت الطائرة.. حذقت عبر النافذة الصغيرة لألقى آخر نظرة
على الوطن.

وهبطت الطائرة في واحدة من القواعد الحربية في تركيا.. وجدنا في
انتظارنا سيارتين تحملان علامات الأمم المتحدة.. صافحت رجال المنظمة
الدولية الذين جاؤوا لاستقبالي.. وصحبتهم إلى مقرهم في ديار بكر.
بعد أن مكثت لبعض الوقت حملني سائق إلى الفندق.. كان واضح
الفخامة.. شدد السائق على موظف الاستقبال ضرورة تلبية كل مطالبي.

1992 / 3 / 3

في الصباح جاء رجلان من موظفي المنظمة إلى الفندق.. صحباني
إلى مطار ديار بكر.. صحفيون كثيرون كانوا هناك في الانتظار..
تحلقوني.. لمعت أضواء كاميراتهم لتطبع ملامحي على الرقائق الفيلمية..
حاولوا أن ينتزعوا مني الكلمات لكنني تسربت بالصمت.. جاءت الطائرة
لتنقنني من إلحاحهم.. لوحت مودعاً.. وطرت إلى أنقرة.. على أرض
المطار وجدته في انتظاري.. قدم نفسه.. قال إنه مسؤول الأمم المتحدة
هنا واسمه براين.. أخذني في رفقته إلى فندق «كوناك».. ولقيت رعاية
مماثلة لتلك التي أحاطوني بها في ديار بكر.. شدد الرجل على أنني
ضعيفهم.. ولم ينس قبل أن يتركني أن يدس يده في حقيبته.. منحني ألف

بولار قال إنها لاحتياجاتي الطائرة.. وترك في رفقتي اثنين من رجاله
ليتلبيا مطالبي.. ولم ينس أيضاً أن يترك لي أرقام هواتفه.. قال: ربما
تحتاجني.. خابر في أى وقت.

1992 / 3 / 6

صحبني براين إلى السفارة النمساوية.. ختموا لي هناك تصريح
الدخول إلى بلدهم.. فعلوا ذلك على الجواز الدولي الذي أعده براين..
الجواز الذي أعد لسفرة واحدة.

1992 / 3 / 9

عند العاشرة صباحاً ذهبت برفقة براين إلى المطار.. جلسنا في
انتظار الطائرة التي سوف تنقلني عبر اسطنبول في طريقها إلى فيينا.
بقات الساعة تشير إلى منتصف الثانية ظهراً.. حطت الطائرة على
أرض مطار فيينا.

الآن أخطو على أرض الحرية.. تنفست الصعداء أخيراً.. من اليوم
سوف أبدأ في تصفية حسابي مع نظام بغداد.. هكذا قلت وأنا أخطو
إلى خارج ساحة المطار الجميل.

وأذاع الأتراك الخبر بعد أن غابرت إلى النمسا.. قال راديو أنقرة في
نشرته المسائية.. إن البديل لابن دكتاتور العراق نجح في الفرار إلى
أوروبا.. وتصدر الخبر الجرائد التركية.. وتناقلته الوكالات العالمية.. على
أبواب المطار كان مندوب وكالة الأنباء النمساوية في انتظارى.. في انتظار
البديل الذي خرج من خلف أسوار مملكة الرعب.

سوف يحفر التاريخ في ذاكرتى هذا اليوم.. 9 أذار 1992.. يوم
ال بداية لحياة جديدة بلا خوف.. بلا عدى.



المحتويات

1	ظهر المخاوف	5
2	الجنة	27
3	التطوع	41
4	التمرين 54	53
5	صدام حسين	77
6	الظهور الأول	89
7	الخوف من الاغتيال	103
8	الاعتداء	117
9	بداية الجرائم	135
10	موت المتنوق	153
11	البنيت الخرساء	171
12	حملة النهب	187
13	الكل سرق	199
14	القذائف تتساقط	215
15	محرقة الرضوانية	227
16	الهروب من الجحيم	243

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

هذا الكتاب

جمعت سنوات الدراسة الأولى بين لطيف يحيى المتنمي الى واحدة من عائلات بغداد العنية وعدي الابن الاكبر لصدام حسين دكتاتور العراق... ثم فرقتهما الأيام حتى التقيا من جديد... عيول عدي المشبوهة في أرجاء العراق أنت بلطيف، إنتزعته من جبهة القتال بعد أن أختارة الفتى ليكون فدائيا له يواجه الخطر الذي يترصده...

ينوات خمسة قضاها لطيف قريبا من العصابة التي تحكم بغداد لأتاحت له الولوج الى عالم الرعب الشائك... عرف خبايا القصر ورجال الحكم... عاش مجولهم وتكشفت أمام ناظرية فضائحهم... طوعوه على غير ارادته ليكون في خدمتهم... عرف الالم والعذاب وهو بـينهم... تحين الفرص لينجو من قبضتهم. الى ان أتت حرب الخليج الثانية... سلك الدروب المتعرجة الى الشمال ومن هناك فر بعيدا.

نجح في اللجوء الى النمسا... عندما حطت أقدامه على أرض مطار العاصمة فيينا تنسم ريح الحرية.

على صفحات هذا الكتاب يحكي لطيف القصة ليكشف ما يدور خلف الستار الحديدي... يروي مأساة شعب وسجون عصابة... ويكشف فوق كل هذا هشاشة النظام المتربع على عرش بغداد.

الناشر